جامعة الجزائر3
كلّية العلوم الاقتصادية والعلوم التجارية وعلوم التسيير
قسم العلوم الاقتصادية

قراءة في العولمة من خلال دراسة تطوّر النظام الاقتصادي العالمي

أطروحة مقدّمة ضمن متطلّبات نيل شهـــادة دكتـوراه العلوم في العلـوم الاقتصـادية،
تخصص: تحليل اقتصادي

إعداد الباحث: سفيان بطاطا **بإشراف: أ. خالد كوّاش،**

أ.محمد ابراهيم خريس،

جامعة الزرقاء الخاصّة، الأردن.

أعضاء لجنة المناقشة:
أ.مسعود كسرى.....رئيسا
أ.خالد كوّاش.....مقرّرا
أ.عبد القادر برّيش.....ممتحنا
أ.محمد حشماوي.....ممتحنا
أ.أحمد علاّش .....ممتحنا
أ.محمد الطاهر قادري.....ممتحنا

السنة الجامعية:2013/2012

جامعة الجزائر3
كلّية العلوم الاقتصادية والعلوم التجارية وعلوم التسيير
قسم العلوم الاقتصادية

قراءة في العولمة من خلال دراسة تطوّر النظام الاقتصادي العالمي

أطروحة مقدّمة ضمن متطلّبات نيل شهـــادة دكتـوراه العلوم في العلـوم الاقتصــادية،
تخصص: تحليل اقتصادي

إعداد الباحث: سفيان بطاطا **بإشراف: أ. خالد كوّاش،**

أ.محمد ابراهيم خريس،

جامعة الزرقاء الخاصّة، الأردن.

أعضاء لجنة المناقشة:

أ.مسعود كسرى.....رئيسا

أ.خالد كوّاش.....مقرّرا

أ.عبد القادر برّيش.....ممتحنا

أ.محمد حشماوي.....ممتحنا

أ.أحمد علاّش .....ممتحنا

أ.محمد الطاهر قادري.....ممتحنا

السنة الجامعية:2013/2012

إِنِّي رَأَيتُ أَنَّهُ لاَ يَكْتُب أَحَدٌ كِتَاباً فِي يَومِهِ إِلاّ قَالَ فِي غَدِهِ، لَو غُيِّرَ هَذَا لَكَانَ أَحْسَن، وَلَو زِيدَ هَذَا لَكَانَ يُسْتَحسَن، وَلَو قُدِّمَ هَذَا لَكَان أَفْضَل، وَلَو تُرِكَ هَذَا لَكَانَ أَجْمَل، وَهَذَا مِن أَعْظَمِ العِبَرِ، وهُوَ دَلِيلٌ عَلَى اِستِيلاَءِ النُقصِ عَلَى جُملَةِ البَشَرِ "

العماد الاصفهاني

ملاحظة: يستحسن قراءة هذا البحث تحت عنوان: العولمة الاقتصادية: قراءة في تاريخ النسق العالمي، إذ أنّه يعكس أحسن المقاربة والمحتوى. ولقد تمّ الاحتفاظ بعنوان" قراءة في العولمة من خلال تطوّر النظام الاقتصادي العالمي، من أجل مسائل إدارية بحثة.

كـلمـــة شـــكـــر

الحمد لله الذي يسّر لي السبل، ووفقني لإتمام عملي هذا، وأسأله تعالى أن يعينني على شكره.

كما لا يفوتني أن أتقّم بأجزل الشكر للأستاذ المشرف الفاضل، أ. خالد كوّاش، الذي لم يتوانى في تيسير ما استعصى علينا، والذي أفادنا بنصائحه القيّمة وتوجيهاته السديدة.

كما أشكر الأستاذ الفاضل المشرف الثاني، أ. ابراهيم خريس، الذي يسّر لنا الأمور أثناء إقامتنا العلمية بالأردن.

كما أشكر الأخ الفاضل الأستاذ مهدي فريد، الذي تولّى أمور التصحيح اللغوي لهذا البحث.

كما أشكر كل من مدّ لي يد العون لإتمام هذا العمل.

فـإلـــى هـــــؤلاء جـــمـــيعـــا جـــزاهـــم الله عنـــا كـــلّ خيـــر.

مقدّمة

مرّ العالم بشقّيه المادي والإنساني بمراحل عدّة، منذ خلق الإنسان إلى يومنا هذا، اختلفت هذه المراحل وتباينت خصوصياتها، آخرها المرحلة التي نعيشها والتي اصطلح عليها بالعولمة[1].

يمكن اعتبار بداية تكوّن أوّل المجتمعات نقطة البداية لصيرورة هذا التطوّر المرحلي الذي لم ينقطع عبر الزمن الطويل، كان المجال الأرضي فيه مسرحا بعد ذلك لمحاولات عولمة و/أو لمحاولات عولمات، هذه الأخيرة يمكن تسميتها بعولمات مصغّرة.

أمّا العولمة الأولى فيمكن اعتبار تاريخ ومسار الإنسانية في شكل مستمر على المدى الطويل، صيرورة تسير في اتّجاه عام واحد من أجل توحيد المجتمع العالمي أو تكوينه. وتعتبر المرحلة الحالية آخر مرحلة أو مرحلة من المراحل الأخيرة في هذا البناء.

أمّا العولمات الأخرى، فنقصد بها كل المحاولات والاجتهادات الداعية إلى توحيد العالم والهيمنة عليه، والتي عرفتها المعمورة من قبلِ الفراعنة، والفرس، والرومان، والمسيحيين، والتتار...وإلى غاية الأوربيين الرأسماليين التجاريين والصناعيين، بالإضافة إلى العولمة الإسلامية التي تعتبر عالمية بالنشأة. وعلى هذا يمكن اعتبار هذه العولمات المختلفة أو محاولات العولمات جزء مكوّنا للعولمة الأولى.

رغم اختلاف القراءتين، إلاّ أنّ هناك شبه إجماع على أنّ مصطلح العولمة الذي نتداوله اليوم، إنّما يقصد به المرحلة التي تلت انهيار النظام الاشتراكي منذ تسعينيات القرن العشرين، قد تمتدّ بدايتها الجنينية إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية، أو حتّى إلى نهاية القرن الخامس عشر.

كما أنّ اختلاف القراءتين لا يثني القول أنّ العالم مرّ بمراحل مختلفة، يمكن التمييز بينها من خلال تباين هيكلة العالم أو هيكلة المجال العالمي أو النسق العالمي système mondiale ، من خلال تباين الهياكل الأساسية الفاعلة في النسق العالمي، ومن خلال النشاطات الأساسية التي تقوم بها هذه الهياكل، ومن خلال طبيعة العلاقات التي تربط هذه الهياكل؛ وتعتبر العولمة مرحلة قد تتميّز بوجود هياكل وعلاقات جديدة.

لقد حاول الكتّاب بمختلف تخصّصاتهم من تاريخ واقتصاد وعلوم سياسية التطرّق إلى العولمة، وكتبوا فيها كتابات قد لا تعدّ ولا تحصى، اختلفوا فيها في المواقف والمقاربات، وكذلك في الزوايا التي تطرّقوا من خلالها إلى العولمة.

[1]- يعتبر هذا المصطلح العربي المترجم للمصطلح الفرنسيMondialisation، والإنجليزيGlobalization الأكثر استعمالا وقبولا في الأدبيات العربية من المصطلحات الأخرى كالكوكبة والكوننة والقولبة.

ركّز الباحثون في علوم الاقتصاد على تكاثف العلاقات الاقتصادية والتجارية والاستثمارية على حدّ سواء، أو على النظام السائد في مرحلة العولمة، كما تطرّقوا إلى مؤسّسات العولمة المتمثّلة أساسا في الهيئات –المؤسّسات– الدولية والشركات العالمية.

بينما يهدف هذا البحث إلى محاولة قراءة العولمة الراهنة كنسق اقتصادي اجتماعي، من خلال تطوّر النسق العالمي والنسق الرأسمالي عبر الزمن والمكان، وهذا باعتماد دراسة وتحليل هيكلة المجال المكاني وتطوّره عبر الزمن. كما يرمي إلى استجلاء التغيّرات التي مسّت النسق العالمي؛ تغيّرات تبرّر أحقّية أو جوهر تسمية هذه المرحلة بالعولمة؛ وعلى هذا يمكن القول إنّ هذا البحث يهدف إلى مقاربة ما كتبه الاقتصاديون عن العولمة بشكل نسقي تاريخي.

اهتمّ الفكر الماركسي بهذه المقاربة، حيث حاول عرض الوقائع الاقتصادية من خلال المراحل التاريخية بمنطق نسقي، وهذا بالتأكيد على عموم ظاهرة الرأسمالية وعلى العلاقات الموجودة بين مختلف العناصر والمكوّنات على الصعيد العالمي. ولم يتوقّف هذا الفكر عند الوصف بل يسعى إلى تفسير التغيّر والتنبّؤ به، انطلاقا من متغيّرات متداخلة: اجتماعية، اقتصادية، تاريخية، جغرافية وحتّى نفسية.

واستعمل هذه المقاربة أيضا أنصار مدرسة التبعية كسمير أمين، وكذا مدرسة الحوليات لـ "برودل" Braudel و"والرشتين" Wallerstein ، بدون أن نهمل إسهامات "ميشل بو" Michel beaud التي قد تصب في السياق نفسه.

تتجلّى أهمّية البحث في اعتباره اجتهادا في قراءة التاريخ العالمي[1] وتوظيفه في قراءة تاريخ العولمة الاقتصادية، من خلال محاولة قراءة التاريخ الاقتصادي العالمي بمقاربة نسقية[2]" approche systémique"، وما يقتضي ذلك من الاستفادة من خصائص النسق"système" المنهجية، بما فيها الشمولية؛ فضلا عن محاولة استنباط اتّجاه تاريخي عام لتغيّرات النسق العالمي وتتبع هذه التغيّرات الحادثة ومحاولة استعمالها في استنباط وفهم التغيّرات التي تحدث في النسق العالمي للعولمة.

[1] - أنظر: Chloé Maurel, **La world/global history, Questions et débats**, Revue d'histoire, 2009/4 - n° 104, pp : 153- 166.

[2] - التطرق إلى موضوع أو ظاهرة علمية باستعمال النسق في تحليلها.

على إثر الخلفية السابقة، يمكن تحديد إشكالية البحث على نحو:

فيم تكمن الخصوصية الهيكلية لنسق العولمة الاقتصادية في ظلّ التطوّر التاريخي للنسق العالمي؟

تتفرّع عن إشكالية البحث التساؤلات الفرعية التالية:

- ماهي مختلف أشكال الأنساق العالمية التاريخية التي مرّ بها العالم؟
- ماهي خصوصيات كل نسق تاريخي من هذه المراحل؟ وعلى وجه التخصيص ماهي الخصوصيات الهيكلية والاقتصادية لكلّ مرحلة؟
- ماهية خصوصية النسق العالمي في عصر العولمة؟

على ضوء ما تمّ طرحه من أسئلة، تمّ اعتماد الفرضيات التالية:

- تعتبر العولمة امتدادا تاريخيا لتطوّر البشرية والإنسانية، فهو بناء إنساني تراكمي؛ وعلى هذا قد نجد خصوصية هذا البناء" التراكمية" في النسق العالمي، وقد نجد آثار هذا البناء في العولمة أيضا.
- يعتبر التغيّر الهيكلي الميزة الرئيسية التي من خلالها يمكن تمييز أي مرحلة عن أخرى من المراحل المختلفة لتطوّر النسق العالمي، واعتمادا على الهيكلة تتحدّد العلاقات النسقية لكل مرحلة تاريخية.
- تعتبر العولمة عولمة مجال النظام والنسق الرأسمالي إذ أضحى يغطّي العالم كلّه، ومن ثمّة يمكن القول إنّ خصوصية النسق العالمي للعولمة مستوحاة من خصوصية النسق الرأسمالي.

لقد تمّ استعمال المنهج الوصفي، حيث استعمِل في فصول البحث كلّها، في عرض النسق العالمي ووصف خصائصه وذكر هيكلته وعناصره، وكذلك في وصف مختلف مراحل تطوّر النسق العالمي والنسق الرأسمالي عبر الزمن والمكان، اجتهادا في استرداد ماضي النسق العالمي وربطه بأهمّ الوقائع التاريخية خاصّة منها الاقتصادية، ومحاولة تتبّع تطوّرات هذا النسق عبر التاريخ، في محاولة تحليل العلاقة بين المراحل المختلفة للنسق العالمي، فضلا عن علاقات النسق العالمي وتطوّراتها.

تمّ استعمال المنهج المذكور في إطار النسق كأداة منهجية في دراستنا؛ هذا وتمّ استعمال بعض الأدوات المهمّة والمتمثّلة بالدرجة الأولى في الأشكال التي حاولنا من خلالها تنميط وتمثيل

النسق العالمي، وكذلك الخرائط الجغرافية التي اعتمدناها في تبيان هيكلة المجال العالمي، إضافة إلى استعمالنا للجداول تبويبا للإحصائيات في العادة.

تُطُرّق للعولمة في موضوعات عدّة، ومن زوايا مختلفة، حاولت تسليط الضوء عن علاقتها بالتجارة الدولية، والاستثمار الدولي، والهيئات الدولية، والتكتّلات الإقليمية، والشركات العالمية ...، إلاّ أنّه في ضوء المعلومات المتاحة، لم نصادف دراسة سابقة عالجت الموضوع من نفس الزاوية التي عولجت من خلالها العولمة في هذا البحث.

يمكن حصر صعوبات البحث فيما يلي:

- أنّ طبيعة الموضوع تستوجب إلماما وإحاطة علمية وثقافية وفكرية واسعة، إذ استوجب البحث ضرورة الإحاطة بعلم التاريخ، وهذا ما شكّل صعوبة بالنسبة لنا، وفائدة علمية في الوقت نفسه إذ أنّ الأمر سمح لنا بتدعيم معلوماتنا التاريخية.
- كما أنّ اتساع المجال الزمني أمر ضروري في هذا البحث، الأمر الذي يمكن اعتباره صعوبة من جهة أخرى، إذ أنّ ذلك استوجب علينا التعامل مع كتب مختلفة، اقتصادية وغير اقتصادية، تاريخية بدرجة أكبر، وكل تخصص له منهجية كتابته التي تتماشى والمنهجَ العلمي للتخصص، فكنّا بذلك أمام منهجيات مختلفة وكتابات متباينة، بينما كنّا مطالبين بمخارج متجانسة. والمشكلة ذاتها طرحت فيما يتعلّق بتباين التواريخ في المراجع، وكذلك الاختلافات التي تنجرّ عن اختلاف المدارس الفكرية لأصحاب الكتب.

اقتضت طبيعة الموضوع عدم وجود حدود للبحث بالشكل المتعارف عليه، حدود مكانية وحدود زمنية، إلاّ أنّه يمكن إيراد بعض الحدود المنهجية الأخرى.

- لم تتم دراسة النسق العالمي في البحث بكلّ جوانبه، وانّما سلّط الضوء بدرجة أكبر على هيكلة النسق وأهم عناصره الهيكلية، وعلى علاقات النسق العالمي الملخّصة للعلاقات الدولية، فيما لم يتطرّق إلى تطوّر إيديولوجية النسق العالمي التي قد يتطرّق إليها في بحث مستقل.
- إن استعمال النسق في البحث يجعل من مقاربته مقاربة شمولية، فهي بذلك تفتقر إلى التخصيص والتدقيق والشرح المطوّل في نقاطها، ولذلك قد لا نجد في البحث بعض التفصيل الذي قد نجده في بحوث أخرى، وإنّما اجتهدنا لأن نخوض في النقطة من البحث بحسب الحاجة. وقد نجد ذلك أيضا في ذكر الأحداث التاريخية، إذ حاولنا التطرّق إلى الأحداث التاريخية لا بحسب أهمّيتها التاريخية المطلقة، وإنّما بحسب

أهمّيتها في مقاربتنا الاقتصادية؛ وللغاية نفسها لم نُولِ بالغ الأهمّية لبعض التواريخ، ولاختلاف المؤرّخين عليها.

يحتوي البحث على خمسة فصول، فصل تمهيدي وأربعة فصول.

حاولنا من خلال **الفصل التمهيدي** الذي عُنوِنَ بـ" **مدخل إلى مفهوم العولمة والنسق العالمي**"، والذي أريد من خلاله تأصيل وتأطير البحث من خلال التعريف بالعولمة على اعتبارها مفهوما، ومن ثمة التلميح إلى بعض خصائص المفهوم، ثمّ محاولة عرض مختلف تعريفات العولمة وتأريخها.

ثمّ بعد ذلك التعريف بأداة البحث المتمثّلة في النسق، وبيّنّا استعمال هذه الأداة في العلاقات الدولية، وكذا أهم الاجتهادات التي ارتكزت عليها دراستنا، لشرح المقاربة النسقية التي اعتمدت والمتمثّلة في "النسق–عالمsystème-monde"و"الاقتصاد–عالمéconomie-monde".

كما تطرّق إلى بعض الدراسات التاريخية الاقتصادية والاجتماعية، التي حاولت تقسيم وتحقيب مراحل التطوّر الاقتصادي، وكذلك تلك التي حاولت تأريخ العولمة باعتبارها حدثا تاريخيا.

ثمّ التطرّق إلى خصوصية النسق الرأسمالي في آخر مبحث من الفصل باعتبار أن العولمة عولمة النظام الرأسمالي.

وجدير بالذكر أنّ هذا الفصل خُصِّص بذكر نبذة عن كل اسم علم شخص ذُكر في المتن تمّ الاعتماد على اسهامه بصفة مباشرة أو غير مباشرة في فهم العولمة، وذلك لتحديد البعد المقاربي الذي قاربنا به العولمة.

ثمّ جاءت الفصول الأخرى تباعا، اجتهادا في تقسيم مراحل بناء المجتمع العالمي واعتمادا على تغيّر هيكلة النسق العالمي، وذلك منذ وجود الإنسان على الأرض؛ واعتمدنا في تقسيم المراحل على تقسيم علوم التاريخ للمجال التاريخي فتحصّلنا على أربعة فصول. يمثّل كل فصل حقبة تاريخية أو عصرا تاريخيا، وتتمثّل هذه العصور في: العصر القديم، العصر الوسيط، العصر الحديث، العصر المعاصر.

وبذلك جاء **الفصل الأوّل** المعنون بـ" **النسق العالمي للعصر القديم، النسق العالمي في مرحلة الحضارات القديمة**"، تمّ من خلاله استنباط النسق العالمي من نزول آدم عليه السلام إلى الأرض وبنائه المجتمع الأول إلى تعدّد المجتمعات وتكوّن الحضارات العبودية القديمة العريقة، سمّيناها حضارات ودول وإمبراطوريات حسب التسميات الواردة في المراجع، والتي كانت آخرها إمبراطورية روما التي انهارت في القرن الخامس للميلاد.

في **الفصل الثاني** الذي جاء تحت عنوان "**النسق العالمي للعصر الوسيط**"، تمّت محاولة رسم معالم النسق العالمي من القرن الخامس ميلادي إلى القرن الخامس عشر، وتمّ التطرّق لمختلف العوالم المتواجدة والمتعايشة والمتحاربة أيضا، والإشارة فيه إلى ثقل العالم الإسلامي في هذه الفترة.

جاء عنوان **الفصل الثالث** "**النسق العالمي للعصر الحديث، الاقتصاد-عالم الأوربي المعولم، أو العولمة الأوربية**"، امتدّ مجاله الزمني من القرن الخامس عشر حتّى الحرب العالمية الأولى، تمّ التطرّق فيه أساسا إلى العالم الأوربي المتفوّق، والمعولم نسبيا في تلك الفترة، وتمّ التركيز على التغيّرات التي طرقته.

وأخيرا عُنون **الفصل الرابع** بـ" **النسق العالمي للعصر المعاصر وعولمة الاقتصاد-عالم الرأسمالي، أو النسق العالمي المعولم**"، تمّ من خلاله تتبّع كل التغيّرات التي أصابت النسق العالمي، منذ الحرب العالمية الثانية إلى الوقت الراهن، حيث اصطُلح على مرحلة جزئية منه على الأقل بالعولمة، وتمّ التركيز على خصوصيات هيكلة النسق العالمي.

فـصـــل تـــمهيـــدي

مـدخـــــل إلـى مفهـــوم العـــولـمـــة والنـــــســـــــق العـــــــــالـمـي

تعتبر العولمة أحد أكثر المواضيع معالجة منذ أواخر القرن الماضي، وفي مطلع مشاغل الأذهان، إذ يجري الحديث عن طبيعتها، وعن حقائقها، وعن تجلّياتها، وعن آثارها أيضا؛ فأصبح المصطلح الظاهرة الإطارَ المرجعي والخلفية الدراسية لجلّ الدراسات الاجتماعية والإنسانية، وأضحت التحوّلات السياسية، والاقتصادية، والثقافية المذهلة والمتسارعة إمّا مداخلَ تُفسَّر بها العولمة، وإمّا مخارجَ لها تفسّرها هي، لتكون بذلك ملخّصا، ومفسّرا، ومبرّرا لكلّ التطوّرات والتقلبات التي يعيشها العالم اليوم.

وعلى هذا الأساس، حاولنا أن نجعل من فصلنا هذا، مدخلا نحدّد من خلاله مقاربتنا لمفهوم العولمة.

المبحث الأوّل: مفهوم العولمة

قبل الشروع في محاولة إعطاء وإيجاد تعريف للعولمة كمفهوم، حبذنا الشروع في محاولة إعطاء تعريف للمفهوم في حدّ ذاته.

1- تعريف المفهوم

المفهوم هو "الفكرة أو المعنى الذي يُحمل في الذهن بواسطة مصطلح معيّن، أو هو مجموع الخصائص الموضوعة لكل معنى كلّي". "وهو أيضا "تصوّر ذهني عام مجرّد لظاهرة أو عدّة ظواهر وللعلاقة بينها" وهو" رأي أو منطق أو مجموعة معتقدات حول شيء معيّن"، وعلى هذا الأساس فالمفاهيم تختلف حسب المسلّمات والمقاربات المنهجية[1].

ولا يعتبر المفهوم شيئا ثابتا غير قابل للتبديل والتغيير وإنّما هو شيء ديناميكي يتغيّر ويتحوّل ويتطوّر. فالمفاهيم تولد وتموت، فعلى سبيل المثال سادت في النصف الثاني من القرن الماضي مفاهيم لا نجد لها مكانا في بحوث اليوم: كالتعايش، والحرب الباردة، والشيوعية، وعدم الانحياز، والتأميم....، مفاهيم اندثرت بانتفاء الظواهر والحالات لتصبح تاريخا إيديولوجيا وفكريا انبثقت منه مفاهيم ومصطلحات ومضامين جديدة كالنظام الدولي الجديد، وصراع الحضارات، ونهاية التاريخ، والمجتمع العالمي، والعولمة....

[1]- قاسم عجّاج، **العالمية والعولمة، نحو عالمية تعدّدية وعولمة إنسانية، دراسة تحليلية مقارنة للمفهومين**، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، 2008، ص ص:41-44.

وعلى هذا، يتجسّد مفهوم ما أيّا كان في ظواهر ومظاهر تمثّل في واقع الأمر مكوّنات المفهوم الذي لا يستحسن فهمه إلاّ بتفكيكها للتوصّل إلى معناه العميق. تُمكّن هذه المكوّنات من التوصّل إلى أبعاد المفهوم المعيّن؛ فمكوّنات وعناصر المفهوم تساعد على تحليله، وقياسه، والتأكّد من منطقية وواقعية وعلمية محتوياته. وعلى هذا، يمكن استصدار تعريف إجرائي للمفهوم باعتباره "محدِّدَ المفهوم باستخدام ما يُتّبع في ملاحظته، أو قياسه، أو تسجيله"[1،2].

2- مفهوم العولمة

يعتبر مفهوم العولمة "أداة تحليلية لوصف عملية التغيير الاجتماعي في مجالات مختلفة، وعنصرا أساسيا في هيكل نظرية التغيير الاجتماعي العالمي في الزمن المعاصر منذ بداية التسعينات من القرن العشرين"[3].

لقد تعدّدت تعاريف مفهوم العولمة إلى حدّ التباين فيما بينها. وذلك راجع:[4]

- إمّا لاختلاف موقف المعرّف من قبول، أو رفض، أو حياد تجاه هذه العولمة.
- أو لاختلاف وجهة أو زاوية التعريف، بحسب الموضوع أو المجال الذي عرّفت فيه العولمة أو/و تخصص المعرّف.
- أو لتباين مكانة التعريف في المعرفة من وصف أو تحليل.

---

[1]- المرجع السابق، ص:46.

[2] - يمكن اعتبار ما سبق مدخلا ابستومولوجيا يستعمل في فهم قراءة العولمة كمفهوم، وممّا يستحسن ذكره في هذا المجال أيضا فكرة صناعة المفاهيم والأفكار، فالأفكار والمفاهيم تنتج وتصدّر وتستهلك لتحقيق مصالح ومنافع من صاغها وسوّقها، فالأفكار هي التي تولّد الأفعال، وكما قال الفيلسوف الوضعي" أوغست كونت" إنّ الأفكار هي التي تحكم العالم"، خاصة في ظلّ تطوّر وسائل الاتصال اليوم،....والواقع أنّ المفاهيم القديمة نسبيا كالدولة القومية مثلا، مفاهيم صدّرت من أوربا إلى باقي العالم الذي تبنّاها، وكذلك يحذو خطاها مفهوم العولمة إذ أضحى يفسّر به كلّ عسير فهم كما سبق القول.

ثمّ في السياق نفسه، ينبغي من أجل فهم العولمة فهم جيّدا تفكيك موضوعها عن خطابها المعلن، فموضوع أو واقع العولمة هو ما يمكن ملاحظته بالدراسة العلمية، ويمكن أحيانا قياسه بأرقام ومؤشّرات، من ظواهر طبيعية، واقتصادية، وحتّى ظواهر موضوعية تاريخية وحتمية مرتبطة بتطوّر الحضارة والرقي الإنساني. أمّا خطاب العولمة فهو مزيج من الأفكار والعقائد والمعلومات والأوهام والطموحات، التي ترافق الموضوع، وتكمّله، وتتجاوزه أو تتشابك معه، أو تغطيه أو تبرّره. أنظر: كامل علاوي الفتلاوي، عاطف لافي مرزوق، **العولمة ومستقبل الصراع العربي**، دار الصفاء، عمان، 2009، ص ص:28-29.

[3]- قاسم عجّاج، مرجع سبق ذكره، ص:274.

[4]- بطاطا سفيان، **العولمة والعالم الثالث، دراسة في الاقتصاد-العالم الرأسمالي**، مذكّرة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، 2004، ص:8.

يقوم مفهوم العولمة أوّلا على علاقة بين مستويات متعدّدة هي الاقتصاد، والسياسة، والثقافة والايدولوجيا[1]، فالعولمة لا يمكن أن تتحقق دون حصول أدنى حد من التقاطع بين مختلف الأوضاع الاجتماعية–السياسية[2،3].

وعلى هذا، هناك من يعتبرها جزءا من التطوّر الطبيعي للحياة الإنسانية ومرحلة من مراحل تطوّر الحياة البشرية، أو بالأحرى "تطوّرا طبيعيا للحياة البشرية"[4] وربّما المرحلة الأخيرة من مراحل تطوّرها كما جاء في كتاب "فرانسيس فوكوياماFrancis Fukuyama" "**نهاية التاريخ وآخر البشر**"**(1990)**، وهي المرحلة التي تجسّدت فيها "**القرية الكونية**"**(1964)** لـ "مارشال ماك لوهان M.McLuhan"، "**عالم بلا حدود**" **(1990)** بعد "**نهاية الدولة القومية**"**(1995)** كما كتب "كينيشي أومي Kenichi Ohmae "[5].

بناء على ما سبق، نجد من التعاريف ما يركّز على تكوّن المجتمع العالمي نتيجة تطوّر وسائل الاتصال "إذ تعتبرها كل المستجدّات التي تسعى بقصد أو بغير قصد إلى دمج سكّان العالم في مجتمع عالمي واحد" أو هي "مرحلة جديدة من مراحل بروز وتطوّر الحداثة حيث تتكاثف فيها العلاقات الاجتماعية على الصعيد العالمي"، أو هي "اتجاه تاريخي نحو انكماش العالم وزيادة وعي الأفراد والمجتمعات بهذا الانكماش"[6]، نتيجة تطوّر العلاقات الاجتماعية من حيث الامتداد، والكثافة، والسرعة والأثر[7]، فتسير بذلك في "الاتجاه المتناهي الذي يصبح به العالم نسبيا كرة اجتماعية بلا حدود، حيث تكتسب العلاقات الاجتماعية نوعا من عدم الفصل إذ تجري الحياة في العالم كمكان واحد، حيث يتفاعل الناس ويتأثّر بعضهم ببعض، ويصبح العالم أكثر اتّصالا وتنظيما على أساس

---

[1]– كامل علاوي الفتلاوي، عاطف لافي مرزوق، مرجع سبق ذكره، 2009، ص:34.

[2]– قاسم عجّاج، مرجع سبق ذكره، ص:274.

[3] – تصدر مؤسسة KOF مؤشّرا سنويا يحمل اسمها، ترتّب من خلاله دول العالم على حسب اندماجها في العولمة، ومن خصائص هذا المؤشّر أنّه يقيس العولمة بأنواعها الثلاث: الاقتصادية، والاجتماعية، وسياسية، وذلك بمعاملات نسبية مئوية على الترتيب 28،38،34. أنظر: بوبكر بعداش، **مظاهر العولمة من خلال نشاط الشركات العالمية متعدّدة الجنسيات، حالة قطاع البترول**، أطروحة مقدّمة للحصول على درجة دكتوراه في العلوم الاقتصادية، كلّية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر3، 2009–2010، ص:13.

[4]– هايل عبد المولى طشطوش، **العولمة، تأثيرات وتحديات**، دار الكندي، إربد، 2007، ص:15.

[5]– هذه كلّها عناوين لكتب كانت من أوّل الكتب التي لمّحت وتطرّقت للعولمة وهي كتب مشهورة، يكاد يذكرها كلّ متكلّم عن العولمة.

[6]– هايل عبد المولى طشطوش، مرجع سبق ذكره، ص:16.

[7]– عطيّة عبد القادر محمد عبد القادر، مصطفى إبراهيم، **قضايا اقتصادية معاصرة**، جامعة الإسكندرية، الإسكندرية، 2005، ص:2.

وحدة الكوكب[1]. وبذلك فالعولمة أيضا هي "التوحّد الثقافي والاقتصادي والاجتماعي بفعل الثورة التقنية–الاتصالات والمعلومات–[2]؛ كما تعرّف أيضا على أنّها العملية التي يتمّ بمقتضاها إلغاء الحواجز بين الشعوب، والتي تنتقل فيها المجتمعات من حالة الفرقة والتجزئة إلى الاقتراب والتوحّد، ومن حالة الصراع إلى حالة التجانس والتماثل، وهنا يتشكّل وعي عالمي وقيم موحّدة تقوم على مواثيق إنسانية عامة"[3].

في السياق نفسه تقريبا، ودعما لفكرة التماسك والتكوّن العالمي، ولكن من المنظور الاقتصادي، هناك من يعتبرها "الظاهرة التي تسمح بزيادة الاعتماد المتبادل بين سكّان العالم بصورة تؤدّي إلى تداخل المصالح الاقتصادية وتشابكها وتمتدّ بتأثيراتها لتشمل باقي مجالات الحياة من ثقافة وإعلام وتعليم وعلوم وتكنولوجيا واتّصال...الخ"[4] أو على أنّها "تزايد الاعتماد المتبادل بفضل الثورة التكنولوجية والاتصالات التي حولت العالم إلى قرية عالمية لتختفي فيه أهمية الحدود السياسية للدول القومية و تحوّلت فيه الصناعة إلى العالمية"[5]، وعرّفها صندوق النقد الدولي باعتبارها"التوافق (التواكل) الاقتصادي المتنامي لمجموع بلدان العالم مدفوعا بازدياد حجم وتنوع المبادلات العابرة للحدود والخدمات والسلع، وكذا التدفق العالمي لرؤوس الأموال في آن واحد مع الانتشار المتسارع للتكنولوجيا"[6].

وتسلّط بعض التعاريف الأخرى الضوء على "حرية حركة السلع والخدمات والأيدي العاملة ورأس المال والمعلومات عبر الحدود الوطنية والإقليمية"[7]، المؤدية إلى "اندماج أسواق العالم في حقول انتقال السلع والخدمات والرساميل والقوى العاملة ضمن إطار من رأسمالية حرية الأسواق، بحيث تصبح الأسواق سوقا واحدا كالسوق القومية"[8].

---

[1]– علاء زهير الرواشدة، **العولمة والمجتمع**، دار الحامد، عمّان، 2008، ص:23.

[2]– المرجع السابق:ص:22.

[3]– علاء زهير الرواشدة، مرجع سابق، ص:21.

[4] – هايل عبد المولى طشطوش، مرجع سبق ذكره، ص:14.

[5]– جلال الشافعي،" **العولمة الاقتصادية: الأثر على الضرائب في مصر** "، كتاب الأهرام الاقتصادي، العدد 179 (نوفمبر 2002)، ص:7.

[6] – Riadh Zghal, « **Globalisation et différenciation des systèmes de gestion, le cas des entreprises du Maghreb** » in M.Y .Ferfera, M . Bengaerna (Direction), Mondialisation et modernisation des entreprises : enjeux et trajectoires, Casbah/ CREAD, Alger, 2001, P : 7.

[7]– علاء زهير الرواشدة، مرجع سابق، ص:21.

[8]– محمد الأطرش، **حول تحديات الاتجاه نحو العولمة الاقتصادية**، المستقبل العربي، العدد 260 (أكتوبر 2000)، ص: 9.

مقابل هذه الجملة من التعاريف، نجد جملة أخرى من التعاريف تركّز على علاقة القوة في تكوين هذا المجتمع العالمي، "هي صياغة جديدة لمنظومة القوّة فهو اسم مخفّف ومهذّب يجري تسويقه من قبل الدول العظمى وخاصة الرأسمالية، أي أنّها لفظ جديد لمضامين قديمة"؛ أو هي بذلك "سعي الشمال عن طريق تفوّقه العلمي والتقني للسيطرة على الجنوب، تربويا وثقافيا واقتصاديا وسياسيا بدعوى مساعدته على التنمية الشاملة وتحقيق العدالة في الاستثمار والرفاهية للمجتمع"، وهي كذلك "فرض الديكتاتوريات الإنسانية التي تسمح باختراق الآخرين بحجّة التبادل الحر وحرّية السوق"[1]؛ فالعولمة حسب أصحاب هذا الاتّجاه ما هي إلاّ الوجه الآخر للهيمنة الإمبريالية على العالم تحت الزعامة المنفردة للولايات المتّحدة الأمريكية، وبالتالي فما هي إلاّ "منطق العلاقات اللامتكافئة بين المجتمعات الصناعية والمجتمعات غير الصناعية، والوقائع تؤكّد أنّ القوى الاقتصادية تسرف بطريقة أو أخرى في استخدام سلطتها التفاوضية عندما تتعامل مع الأمم الأقل قوّة"[2].

وبالرجوع إلى بعض تعاريف العولمة الأكثر شمولية والمستعمِلة لفكرتي النسق والنظام[3] في تعريف المفهوم، نجد من يشير في التعريف إلى ثقل الولايات المتّحدة الأمريكية دائما، من ذلك مثلا: "استحداث نظام عالمي جديد يكون أحادي القطب يدور في فلكه كافة دول العالم، ويسيطر اقتصاديا وثقافيا واجتماعيا وعسكريا وتلعب الولايات المتّحدة فيه دور الرحى"[4].

في حين هناك من يركّز على ثقل الشركات متعدّدة الجنسيات في النسق باعتبار "العولمة هي نمو الشركات العالمية التي تتخطّى الحدود والولاءات القومية"، كونها ذات صلة وثيقة بثورة

---

[1]– هايل عبد المولى طشطوش، مرجع سبق ذكره، ص ص:14–15.

[2]– قاسم عجّاج، مرجع سبق ذكره، ص:267.

[3] – نرى أنّه من المفيد هنا أن نذكر الفرق بين النسق والنظام، أو بالأحرى بين النسق الاقتصادي و النظام الاقتصادي كما فرّق بينهما "فرانسوا بيرو Francois Perroux"(1903–1987) في كتابه "دروس في الاقتصاد السياسي"(1946):"إنّ النظام الاقتصادي هو كلّ يهدف إلى تحقيق غرض معيّن، وهو إطار قانوني وسياسي واجتماعي يتّفق مع هذا الغرض؛ أمّا البنيان الاقتصادي أو النسق الاقتصادي فهو عبارة عن النسب والعلاقات التي تميّز كلاّ اقتصاديا قائما في زمان ومكان معيّنين، أو هو النسب والعلاقات القائمة بين عناصر الحيلة الاقتصادية في مكان وزمان محدّدين."

فالبنيان أو النسق الاقتصادي ينصرف إلى مجموعة من العلاقات لقائمة في ظلّ الحياة الاقتصادية، علاقات يمكن تقسيمها إلى علاقات داخلية وخارجية، أو حتىّ علاقات كيفية وأخرى كمّية، يمكن التعبير عنها بصفة نسبية أو مطلقة؛ أمّا النظام الاقتصادي فإنّه يهتمّ بتحديد خصائص ومميّزات الوضع الاقتصادي القائم في بلد أو هيئة معيّنة في زمن محدّد.

ورغم هذا التباين بين المصطلحين، إلاّ أنّه لا سبيل إلى إنكار الصلة بينهما، فالقوى الكبرى في النسق هي التي تقرّر معايير الشرعية وتفرضها جاعلة منها ركائز ما تسمّيه نظاما وطنيا كان أو دوليا أو غيره.

أنظر: إسماعيل محمد هاشم، مرجع سبق ذكره، ص:10.

[4]– محمود الوادي وآخرون (تحرير)، **العولمة وأبعادها الاقتصادية**، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، عمان، ص:381.

المعلومات وحركة الأموال والأفكار والعمالة وغيرها من التقنيات الحديثة التي لعبت دورا في تقريب اقتصاديات دول العالم"[1]. أو "أنّها عالم يعاد خلقه وتكوينه على صورة طموحات مدراء وأصحاب الشركات العملاقة المتعددة الجنسية، التي غدت تفرض نفوذها على المؤسسة السياسية الحاكمة في أمريكا ودول الاتحاد الأوروبي كإمبراطوريات إمبريالية، تمد أذرعها إلى أقصى بقاع الأرض، وتحكم شباكها الاقتصادية والسياسية والثقافية على ساكنيها"[2].

وفي السياق ذاته، نجد من اعتبر العولمة "سوقا عالمية تشهد بتفريغ الوطن من وطنيته وقوميته وانتمائه الديني والاجتماعي والسياسي، بحيث لا يبقى منه إلاّ خادما للقوى الكبرى"، أو هي "القوى التي لا يمكن السيطرة عليها من أسواق دولية وشركات متعدّدة الجنسية"[3].

وهناك أيضا من يركّز على أنها "نظام اقتصادي رأسمالي معولم، إذ أنّ العولمة الجديدة التي انتهى إليها تطور النظام العالمي مع نهايات عقد الثمانينات من القرن العشرين– وهي لا تزال في حالة التبلور والصيرورة– لا تعدو عن كونها درجة من درجات التطور التاريخي للنظام الرأسمالي القائم على صعيد التراكم الكمي"[4]. فـ" العولمة هي وصول نمط الإنتاج الرأسمالي، عند عقد منتصف القرن العشرين، إلى نقطة الانتقال من عالمية دائرة التبادل والتوزيع والسوق والتجارة والتداول إلى عالمية دائرة الإنتاج وإعادة الإنتاج ذاتها، أي أن ظاهرة العولمة التي نشهدها هي بداية عولمة الإنتاج والرأسمال، أي الإنتاج والرأسمال الإنتاجي، وقوى الإنتاج الرأسمالية، وبالتالي علاقات الإنتاج الرأسمالية أيضا ونشرها في كل مكان مناسب وملائم خارج مجتمعات المركز الأصلي ودوله. وبذلك فالعولمة بهذا المعنى هي رسملة العالم على مستوى العمق بعد أن كانت رسملته على مستوى السطح ومظاهره، فالعولمة هي حقبة التحوّل الرأسمالي العميق للإنسانية جمعاء في ظل هيمنة دول المركز وبقيادتها وتحت سيطرتها في ظل نظام عالمي للتبادل غير المتكافئ"[5].

بل هناك من يؤكّد على ضرورة ووجوب ربط مفهوم العولمة بالنظام الرأسمالي "إنّ تجاهل طبيعة النظام الاقتصادي الاجتماعي الذي تتجلى فيه ظاهرة العولمة، أي الفصل بين العولمة والنظام الرأسمالي العالمي يجعل المفهوم المقدّم للعولمة هو مفهوم مجرد، تبدو معه العولمة كأنها

---

[1] - سيفرين روجومامو، **العولمة ومستقبل إفريقيا، نحو تحقيق التنمية المستدامة**، برنامج الدراسات المصرية الإفريقية، كلّية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 2002، ص:23.

[2] **–** محمد بوعشة، **التكامل والتنازع في العلاقات الدولية: دراسة المفاهيم والنظريات**، دار الجيل، بيروت، 1999، ص:36.

[3] – علاء زهير الرواشدة، مرجع سبق ذكره، ص ص:25،21.

[4] – يحيى اليحياوي، **العولمة، أية العولمة**، إفريقيا الشرق، بيروت، 1999 ، ص: 25.

[5] – حسين حنفي، صادق جلال العظم ، **ما العولمة ؟**، دار الفكر، دمشق، 1999، ص: 98

ظاهرة غير اجتماعية". فهو بذلك يرى أنّه " لا يمكن أن تفهم العولمة كمجرد تجلّ للتطورات التقنية ولثورة المعلومات، إذ أنّ هذه العوامل ستظل مع أهميتها غير مفهومة ما لم تربط بامتداد النظام الرأسمالي إلى معظم أنحاء المعمورة وبالانتصار المرحلي لعقيدة السوق، ولنظام اقتصاد السوق المنفتح، وتيار تحرير التجارة "[1]؛ فالعولمة بمفهومها الشمولي –سواء باعتبارها نظاما أو علاقات أو ظاهرة– أعم من العولمة الاقتصادية، وإن كانت هذه الأخيرة ربّما هي الهدف الأصلي من هذه العولمة الغربية تحصيلا للأرباح الأكثر والأشمل والأكبر، إلاّ أنّها تشمل أيضا العولمة السياسية والثقافية والاجتماعية وما أشبه[2]. فالغرب يسعى إلى جعل نموذجه السياسي والاقتصادي والثقافي هو السائد في العالم كلّه[3].

على ضوء ما سبق من التعاريف يمكن أن نخلص إلى مايلي:

- من التعاريف ما يعتبر العولمة واقعا مرحليا، سواء وصلنا إليه أو نعايشه الآن، أو سنصل إليه ونعايشه في المستقبل[4].
- ومنها من تركز على آلية العولمة، بذكر أو عدم ذكر الفاعلين الأساسيين في العولمة، وهذا ما قد يتوافق مع التعريف اللغوي للمصطلح[5].
- العولمة الراهنة هي عولمة النظام الرأسمالي، أي اِمتداده واتساعه ليغطي كل العالم، وحقيقة معرفة هذا النظام هي التي تفسر لنا تحرير الاقتصاديات، كمثال فقط حول ما أسميناه الاتجاهات التحريرية؛ أما فيما يخص ثورة وسائل الاتصال ميزة هذا العصر، فإنّها مجرّد وسيلة استعملت في عولمة النظام أو ساهمت فيها، فهي تطوّرات اتصفت بالحداثة وأبهرت مجتمع عصرنا، كما اتصفت بالحداثة تطورات عصر مضى وأبهرت مجتمعه، وهذه التطوّرات هي التي تكرّس لنا مبدأ الاعتماد المتبادل.

---

[1]– إبراهيم العيسوي، مناقشة ورقة بحث قدمها السيد ياسين في مفهوم العولمة، في أسامة أمين الخولي (تحرير)، **العرب والعولمة**، ط2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998، ص ص:49–50.

[2] – تحسين أحمد التل، **العولمة والعالمية**، المركز القومي للنشر، إربد، 2010، ص:13.

[3] - وداد يوسف كمال حسين، **العولمة بين الماضي والحاضر**، المكتبة المصرية، الإسكندرية، 2004، ص:9.

[4] - وهذا ما قد يجرّنا إلى التساؤل: هل نحن في مرحلة العولمة، وهل العولمة مرحلة تامّة أو نهائية إن صحّ التعبير أم هي مرحلة انتقالية؟

[5] - يمكن تعريف العولمة لغة على أنّها ثلاثي مزيد، يقال عولمة على وزن قولبة، واللفظ مشتقّ من العالم، وبالتالي معناه جعل الشيء عالميا، أو إعطائه صفة العالمية من حيث النطاق والتطبيق.

- لا يمكن قراءة العولمة والنظام الرأسمالي قراءة اقتصادية بحتة معزولة عن العلاقات الاجتماعية الأخرى كالسياسة والاجتماع والثقافة لأنّ ذلك يجعلنا نتجاهل اجتماعية الاقتصاد كعلم وممارسة.
- لمحاولة فهم أحسن لفعل العولمة، نرى محاولة قراءتها من خلال النسق العالمي، لفهم الآلية التي من خلالها تمّ فرض العولمة على الغير أو جلبهم وجذبهم إليها، أو إقحامهم فيها، أو إقناعهم بها، وأيضا لفهم آلية العولمة، من فاعلين، ومستفيدين، وربّما خاسرين؛ وذلك من خلال دراسة هذا النسق تاريخيا، وتتبّع مراحل تطوّره.

المبحث الثاني:النظريات المفسّرة للتطوّر التاريخي الاقتصادي

تقول مدرسة الحتمية التاريخية التي من روادها الفيلسوف الألماني "هيجل"[1] والمفكّر الاشتراكي "إنجلز"[2] إنّ أحداث التاريخ تسير في انتظام وانسجام حسب نظام محدّد، تترتّب من خلاله نتائج معينة ومعلومة إلى حدّ ما انطلاقا من معطيات محدّدة وفق منطق عقلاني، وهذا ما ينصرف إلى وجود قوانين للتطوّر التاريخي تحكم مسيرة الحياة والحضارة الإنسانية؛ وبذلك أقرّ "أفلاطون"[3] حين قال أنّ الزمن صورة متحرّكة للأبدية، أي بعبارات الحاضر أنّ التاريخ يعيد نفسه عبر الزمن، وسلّم أفلاطون بأنّ الأفكار تسبق الأشياء والحوادث، أو كما قال "هيجل" إنّ المنطق يسبق الواقع ويحكمه، وأنّ التاريخ عملية عاقلة[4].

---

[1] – فريدريك هيجل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (1770-1831) أحد أهم الفلاسفة الألمان حيث يعتبر أهم مؤسسي حركة الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.تقوم فلسفة هيجل المثالية على اعتبار أن الوعي سابق للمادة بينما تقوم النظرية الماركسية على اعتبار أن المادة سابقة للوعي على اعتبار أن المادة هي من تحدد مدارك الوعي وبالتالي يتطور الوعي بتطور المادة المحيطة بالإنسان.

[2] – فريدرك إنجلز Friedrich Engel (1820–1895)، فيلسوف ورجل صناعة ألماني يُلقّب بأب النظرية الماركسية إلى جانب كارل ماركس .اشتغل بالصناعة وعلم الاجتماع وكان كاتبا ومنظرا سياسيا وفيلسوفا. في 1848، أصدر مع ماركس، بيانهما المشهور والمعروف ببيان الحزب الشيوعي.

[3] – أفلاطون Platon (428-427ق.م–347–348 ق.م) فيلسوف يوناني، رياضياتي، كاتب عدد من الحوارات الفلسفية، ويعتبر مؤسس لأكاديمية أثينا التي هي أول معهد للتعليم العالي في العالم الغربي، معلمه سقراط وتلميذه أرسطو، وضع أفلاطون الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم، كان تلميذا لسقراط، وتأثر بأفكاره كما تأثر بإعدامه الظالم.
نبوغ أفلاطون وأسلوبه ككاتب واضح في محاوراته السقراطية نحو ثلاثين محاورة التي تتناول مواضيع فلسفية مختلفة: المعرفة، المنطق، اللغة، الرياضيات، الميتافيزقيا، الأخلاق، السياسة.

[4] – إسماعيل محمد هاشم، **محاضرات في التطوّر الاقتصادي**، دار النهضة العربية، بيروت، 1978، ص:11.

إنّ استعمال التاريخ في دراستنا لمحاولة فهم العولمة أو على الأقل محاولة قراءتها لا يعني بالضرورة تبنّي أفكار مدرسة الحتمية التاريخية، وإنّما موقفنا من موقف الفيلسوف الفرنسي "أوجست كونت"[1] وهو النسبية في الاعتماد على التاريخ في فهم الواقع. وفيما يلي بعض النظريات المفسّرة للتطوّر التاريخي الاقتصادي:[2]

1- ***المدرسة التاريخية الألمانية***

يعتبر الاقتصادي الألماني "فرديرك ليست"[3] من أبرز ممثّلي هذه المدرسة، واعتبر أنّ تطوّر الأمم والمجتمعات مرّ بالمراحل التالية:

أ. المرحلة الوحشية التي يعتبر الصيد البري والمائي فيها أهم مظهر للنشاط العملي للإنسان.

ب. مرحلة الرعي.

ج. المرحلة الزراعية.

د. المرحلة الزراعية الصناعية.

هـ. المرحلة الزراعية، الصناعية والتجارية.

واعتبرت هذه المدرسة أيضا أنّ المراحل الثلاث التي مرّ بها اقتصاد الأمم والمجتمعات هي:

أ. مرحلة الاقتصاد الطبيعي.

ب. مرحلة الاقتصاد النقدي.

ج. مرحلة الاقتصاد الائتماني.

---

[1] – أوغست كونت Auguste Comte (1798–1857)، عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي فرنسي، أعطى لعلم الاجتماع الاسم الذي يعرف به الآن، أكد ضرورة بناء النظريات العلمية المبنية على الملاحظة، إلا أن كتاباته كانت على جانب عظيم من التأمل الفلسفي، ويعد هو نفسه الأب الشرعي والمؤسس للفلسفة الوضعية، أهم مؤلفاته: "محاضرات في الفلسفة الوضعية" و"نظام في السياسة الوضعية."

[2] – عبد الكريم كامل عبد الكاظم، **النظم الاقتصادية المقارنة**، جامعة الموصل، الموصل، 1988، ص ص:19–25.

[3] – فريدريك ليست Friedrich List (1789–1846) اقتصادي ألماني، لم يستبعد الفرضية القائلة إن حرية التجارة يمكن أن تقود إلى زيادة مستوى رفاهية كل الأمم فإنه كان مقتنعاً بأن تحقق ذلك مشروط بكون مستويات نمو مختلف الأمم متعادلة. وبهذا المعنى دافع ليست عن القومية الاقتصادية بأنها دفاعية وليست عدوانية على المستوى الخارجي. ومقولة ليست الرئيسة تتمثل في أن الأمة يجب أن تنمي طاقاتها الإنتاجية قبل أن تواجه المنافسة الدولية. وهذه الطاقة الإنتاجية تكْمُن قبل كل شيء في الصناعة التحويلية وليس في استخراج ما تقدمه الطبيعة.

2- المدرسة الألمانية المتأخّرة

يعدّ كل من "سومبارت"[1] و"ماكس ويبر"[2] و"شمولر"[3] من أبرز ممثلي هذه المدرسة التي تميّز بين ثلاث مراحل أساسية في تطوّر اقتصاد البشرية والمجتمعات تتمثّل في:

أ. مرحلة الاقتصاد المنزلي.

ب. مرحلة اقتصاد المدن.

ج. مرحلة الاقتصاد الوطني.

3- نظرية مراحل النمو "والت روستو

يذهب الاقتصادي الأمريكي"روستو"[4] في كتابه" مراحل النمو الاقتصادي" إلى أنّ هناك خمس مراحل تمر بها جميع البلدان في تطوّرها الاقتصادي، وكل مرحلة من هذه المراحل تؤدّي بالضرورة إلى المرحلة اللاحقة لها، وتتمثّل هذه المراحل في:

---

[1] – فرنر سمبارت Werner Sombart (1863–1941)اقتصادي واجتماعي ألماني، من أتباع المدرسة التاريخية. كان أستاذاً للاقتصاد بجامعة برلين. وعكف على دراسة النظم الاقتصادية. بدأ متأثراً بماركس، و انتهى داعيا للاشتراكية النازية. من أهم كتبه: "الرأسمالية الحديثة"(1902).

[2] – ماكسيميليان كارل إميل ويبر Maximilian Carl Emil Weber (1864–1920)، عالمًا ألمانيًا في الاقتصاد والسياسة، وأحد مؤسسي علم الاجتماع الحديث ودراسة الإدارة العامة في مؤسسات الدولة، وهو من أتى بتعريف البيروقراطية، وعمله الأكثر شهرة هو كتاب" الأخلاق البروتستانتية وروح الرأسمالية" (1920) حيث أن هذا أهم أعماله المؤسسة في علم الاجتماع الديني وأشار فيه إلى أن الدين هو عامل غير حصري في تطور الثقافة في المجتمعات الغربية والشرقية، وفي عمله الشهير أيضا "السياسة كمهنة" عرف الدولة: بأنها الكيان الذي يحتكر الاستعمال الشرعي للقوة الطبيعية, وأصبح هذا التعريف محوريا في دراسة علم السياسة.

[3] – جوستاف شمولر Gustave Shmoler(1838–1917)، اقتصادي ألماني من رجال المدرسة التاريخية التي تتشكل في الطريقة الاستنباطية، كما لجأ إليها رجال النظرية التقليدية بعد آدم سميث. ويرى وجوب الاعتماد على استقراء التاريخ للوصول إلى القوانين الاقتصادية، حاول أن يمزج بين الاقتصاد والعلوم الاجتماعية الأخرى لإخراج علم واحد للمجتمع. من أهم كتبه " الخطوط الكبرى للتاريخ الاقتصادي " (1900– 1904).

[4] – والت ويتمان روستو Walt Whitman Rostow (1916 – 2003) اقتصادي ومنظر سياسي أمريكي. صاغ نظرية التطور والنمو المتطرّق إليها والتي تميزت في الستينات. وكان المستشار الخاص للرئيس الأمن القومي جونسون في 1960.

أ. مرحلة المجتمع التقليدي

تتصف هذه المرحلة بالتخلّف المادي والفكري وركود المجتمع، ومن مظاهرها بدائية وسائل الإنتاج وغلبة النشاط الزراعي، ومحدودية نسبة نمو الدخل للفرد الواحد، ومرّت أوربا الغربية بهذه المرحلة حتّى الربع الأوّل من القرن السابع عشر.

ب. مرحلة الشروط المسبقة للانطلاق

وهي مرحلة انتقالية تتجمّع فيها ببطء شروط الانطلاق الاقتصادي من تطوّر فكري وتقني وبنى قاعدية، وكذلك هيئة عامة أو دول مركزية، وقد تعتبر الغزوات والاستعمار الأجنبي أحد هذه المقوّمات.

ج. مرحلة الانطلاق

وتتميّز هذه المرحلة بحدوث ثورة صناعية وتجديد في النشاطات وفي المؤسسات وفي التقنيات، يزيد في هذه المرحلة نسبة الادخار والاستثمار؛ توافق هذه الثورة ثورات أخرى في مجالات أخرى مكمّلة ومحفّزة على المستوى السياسي والتكنولوجي مثلا؛ وحسب "روستو" انتقلت بريطانيا إلى هذه المرحلة بين سنتي 1783–1802، في حين دخلت فرنسا إلى هذه المرحلة مابين سنتي1830–1860، أمّا الهند والصين فبعد 1952 على وجه التقريب.

د. مرحلة السير نحو النضج

تتسم هذه المرحلة بالثبات النسبي لمعدّلات النمو، واستقرار نسبة الاستثمار بين 10%و20% من الدخل القومي، وزيادة نسبة النمو على نسبة السكان.

هـ. مرحلة الاستهلاك الواسع

تتميّز هذه المرحلة بتحوّل المجتمع إلى استهلاك مستديم للسلع والخدمات بفعل ارتفاع الدخل ارتفاعا يسمح بأكثر من إشباع الحاجات الضرورية، بل ويضمن الاستمرارية والثبات في استهلاك المنتجات الكمالية؛ يزداد في هذه المرحلة حجم المدن، ويرتفع حجم العمالة في المؤسسات الحكومية، وتنتقل الموارد الوطنية من زيادة وسائل الإنتاج إلى زيادة الرفاهية الاجتماعية والاستهلاكية[1].

إنّ ما تقدّم هنا حول مراحل تطوّر الاقتصاد الوطني يمكن أن يُقرأ في الوقت ذاته على أساس تطوّر العالم أو الاقتصاد العالمي.

[1] – أنظر: و.و.روستو، **مراحل النمو الاقتصادي**، برهان دجاني(ترجمة)، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت،1960.

4- نظرية نمط الإنتاج

يقرأ الماركسيون التاريخ الاقتصادي على أنّه تعاقب تاريخي للأنماط الإنتاجية، ويمثّل الصراع الطبقي جوهر هذه القراءة؛ وتميّز هذه النظرية بين خمسة أنماط إنتاجية شهدها المجتمع البشري في تطوّره، تتمثّل في:

أ. **مرحلة المشاعية البدائية**

تعتبر الشكل الأوّل للمجتمع البشري، بدأ بالتشكّل قبل أربعة أو خمسة آلاف سنة قبل الميلاد، ويتميّز مجتمع هذه المرحلة ببدائية وسائل العمل، وبالشكل الجماعي للعمل، وبالشكل المشاع للملكية، وكان الإنتاج في هذه المرحلة إنتاجا طبيعيا.

ب. **مرحلة المجتمع العبودي**

يؤرّخ الماركسيون لظهور المجتمع العبودي في الربع الثالث للثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، ويعدّ أوّل مجتمع شهد ظهور الاستغلال، وعرف الإنسان فيه الزارعة والصيد والحرف كنشاطات اقتصادية أساسية؛ اتصفت وسائل العمل بالنمو البطيء، وتميّز هذا النمط باستعمال العمل المقيّد الذي يقوم به العبيد، إلى جانب العمل الحر الذي يقوم به الحرفيون الأحرار، ومن ثمّة تعايشَ في كنف هذه المرحلة: اقتصاد العبيد واقتصاد الأحرار في مرحلة ما قبل أن يتحوّل الأحرار المتمثّلون في الحرفيين إلى عبيد أرقّاء هم أيضا.

ج. **مرحلة الإقطاعية**

تمثّل الإقطاعية الجزء المتطوّر لملكية الأرض، أين اندمج المنتج المباشر مع وسائل الإنتاج من أجل صيرورة العملية الإنتاجية في ظلّ سيطرة الإقطاعي على كل الأرض التي تجري عليها وبها العملية الإنتاجية، والتفرّد بفائض هذه العملية؛ فما يتملّك الفلاح من جزء يسير من الأرض يستغلّه في نشاطه المنزلي.

د. **الرأسمالية**

جاءت الرأسمالية على أنقاض الإقطاعية، وفي كنف الثورة الصناعية الأوربية والأمريكية، مبدأها الحرية الاقتصادية بعيدة عن أي قيد، وهدفها تحقيق المنفعة الشخصية من أجل تحقيق النفع العام، يتملّك فيها الخواص عوامل الإنتاج ويقومون به، ويسعون باستمرار لتراكم رأس المال وإعادة استخدامه في العملية الإنتاجية.

هـ. الاشتراكية

جاء الفكر الاشتراكي كنقيض للأفكار الرأسمالية، منتقدا لنظامها الاقتصادي، معتبرا إيّاه مجرّد مرحلة من مراحل تطوّر البشرية، يصل في نهاية المطاف إلى الأزمات ثمّ الانهيار بسبب التناقضات التي يحملها، والصراع الطبقي بين أصحاب المال والعمال الذي يعتبر أحد سماته بسبب سوء توزيع المداخيل بينهم. وعلى عكسه، يدعوا النظام الاشتراكي إلى تولّي الدولة القيامَ بالعملية الإنتاجية أو بالإشراف عليها وامتلاكها لوسائل الإنتاج، وتوزيع المداخيل توزيعا عادلا بين أفراد المجتمع.

يمكن اعتبار بعض من هذه القراءات صالحة لأن تكون قراءات تاريخية للعولمة رغم أنّ أصحابها لم يعايشوا العولمة حتّى ينظّروا لها؛ فبعضهم توقّف في التنظير عند الزمن الذي عايشه، وهنا يمكننا إذا أردنا أن نتابع التحقيب على نفس منهج المدرسة الألمانية مثلا، فيمكن أن نتبع الاقتصاد الوطني بمراحل: الاقتصاد الدولي، اقتصاد الشركات الدولية، اقتصاد الشركات العالمية الذي قد يعكس مرحلة العولمة؛ فيما تطرّق البعض الآخر للعولمة بشكل ضمني إذ تنبّأت مدرسة نظرية الإنتاج بعولمة اشتراكية[1].

المبحث الثالث: الأصول التاريخية للعولمة

اختلف الباحثون بشأن تحقيب وتأريخ العولمة كما اختلفوا في تعريفها، ويمكن تلخيص أهم قراءاتهم في الاتجاهات التالية:[2]

1- الاتجاه الأوّل

يستند أصحاب هذا الاتّجاه إلى الاعتماد على التاريخ البعيد للإنسانية، ويربطون العولمة بظهور الإنسان، ويعتبرون أنّ المراحل التي مرّت بها الإنسانية كلّها مراحل من مراحل العولمة المتكلّم عنها، بدءا من الإنسان الذي عاش على ما جادت به الأرض من ثمار ونباتات وصيد، ثمّ من الزراعة والرعي، ثمّ بعد ذلك من الصناعة أيضا. وبتقدّم المراحل ازدادت معرفة الإنسان بالتنظيم و بالعلوم المختلفة، ونقص اعتماده المباشر على الطبيعة، وتحوّل بذلك الاقتصاد من اقتصاد

[1] – في السياق ذاته، ومن حيث تاريخ فكرة العولمة، فإنّه لجدير بالذكر أن نشير إلى فكرة "الفرابي"(874–950) الذي نظّر لفكرة عولمة بعيدة عن الهيمنة، قد استنبطها من عالمية الإسلام إذ نادا بانضمام القرية تحت لواء المدينة، والمدينة تحت لواء الأمّة، والأمّة تحت لواء المعمورة، فتتألّف دولة تشمل الأرض كلّها، الدولة الكونية أو العالمية أو القرية الكونية كما عبّر عنها "مارشال ماك لوهان" في نهاية القرن الماضي، فيتكوّن فيها مجتمع إنساني تتعاون فيه الإنسانية جمعاء.

[2] – عبد الكريم كامل عبد الكاظم، مرجع سبق ذكره، ص ص:11–15.

طبيعي إلى صناعي ، فمالي، فخدماتي، فرمزي بزيادة التحكّم بالزمان والمكان، وفي كنف هذا الأخير أخذت ملامح العولمة تظهر جليا.

وفي السياق نفسه دائما وفي ظلّ تاريخ البشرية، يمكننا القول أنّنا نرى عولمة عبر التاريخ كلّما حاول واستطاع مركز متمثّل في مدينة، دولة، إمبراطورية، حضارة أن يؤثّر ويخضع له العالم، سواء كان هذا المركز مصر فرعون، فارس، أثينا، روما، دمشق، بغداد، أو غيرها من عواصم غرب أوربا، وربّما الآن واشنطن الولايات المتحدة الأمريكية[1].

2- ***الاتجاه الثاني***

صاغ "روبرتسون"[2] نموذجا لتطوّر العولمة مقسّما إيّاه إلى خمس مراحل:

2-1 المرحلة الجنينية

انطلقت هذه المرحلة من القرن الخامس عشر وامتدت إلى القرن الثامن عشر، وشهدت هذه الحقبة نمو المجتمعات القومية، وإضعاف القيود التي كانت تعرقل النهضة في المجالات المختلفة في العصور الوسطى.

2-2 مرحلة النشأة

بدأت من منتصف القرن الثامن عشر حتّى سنة 1870، حدث في هذه المرحلة تحوّل حاد في فكرة الدولة المتجانسة الموحدّة، وتبلورت مفاهيم خاصّة بالعلاقات الدولية، وازدادت الاتفاقيات الدولية، وبدأ الاهتمام بموضوعي القومية والعالمية.

2-3 مرحلة الانطلاق

بدأت من سنة1870 إلى العشرينات من القرن العشرين، عرفت بداية الصياغة الدولية للأفكار الخاصة بالإنسانية ومحاولة تطبيقها، وازدادت سرعة أشكال الاتصال، وأقيمت منافسات كونية مثل الألعاب الأولمبية وجوائز نوبل واندلعت أوّل حرب عالمية وأنشئت أوّل هيئة دولية متمثّلة في عصبة الأمم.

2-4 مرحلة الصراع من أجل الهيمنة

بدأت من عشرينيات القرن العشرين إلى منتصف الستينيات منه، نشأت فيها خلافات فكرية حول نظم العيش في إطار النظم الاقتصادية، تبلورت في الحرب الباردة.

---

[1] – أنظر: وداد يوسف كمال حسين، مرجع سبق ذكره، ص ص:12-202.

[2] – رولاند روبرتسون Roland Robertson (1938 –)، عالم اجتماع اسكتلندي من منظري العولمة، ركزت نظرياته بشكل كبير على اتباع نهج أكثر اهتماما بالظواهر النفسية والاجتماعية للعولمة، ويرى أنّ الجانب الأكثر إثارة للاهتمام في عصرنا الحديث (أو ما بعد الحداثة) هي الطريقة التي طوّرت عن طريقها الوعي العالمي الذي مرّ بأطوار عبر عصور مختلفة في التاريخ العالمي، مؤكدا أننا دخلنا المرحلة الخامسة، عدم الاستقرار العالمي.

2-5 مرحلة عدم اليقين

بدأت منذ ستينات القرن الماضي وهي مستمرة في هذا القرن، انتهى فيها النزاع عن الهيمنة بانهيار العالم الاشتراكي وأفكاره، وبإدماج العالم الثالث في المجتمع العالمي، وتصاعد الوعي الكوني أكثر، وازداد ثقل المؤسّسات الدولية في مختلف المجالات، وتضاعف ثقل الشركات العالمية في الاقتصاد[1].

3- الاتجاه الثالث

يقسّم أصحاب هذا الاتجاه مراحل العولمة إلى ثلاث مراحل أساسية، لا تتحدّد هذه المراحل أساسا بمجال زمني محدّد، بقدر ما يحدّها سبب وجيه لما له من آثار وإسهام في العولمة الاقتصادية. فيرى أصحاب هذا الاتّجاه بأنّ العولمة مرتبطة بانتعاش الاقتصاد الأوربي في نهاية الخمسينات، وسبب هذه المرحلة هو إزالة القيود النقدية على الدولار لما له من أثر على زيادة حجم التبادل التجاري الذي وصلت نسبة زيادته إلى4.9% بين سنتي 1950-1973. وكذلك إزالة القيود على حركة الرساميل، وقيام بعض الدول النامية ودول الكتلة الاشتراكية بإزالة القيود على المدفوعات الخارجية، الأمر الذي أدّى إلى زيادة تدفقات الاستثمارات الأجنبية التي ارتفعت في الثمانينات بنسبة 200%.

وسبب المرحلة الثانية هو تبنّي الدول الرأسمالية مبدأ الخصخصة وفرضه على دول العالم الثالث والعالم الاشتراكي.

أمّا السبب الأخير المجسّد لظهور العولمة فهو تفاقم المضاربات المالية بالعملات القابلة للتحويل، والذي بلغ حجمها السنوي سنة 1995 ثلاث وسبعين مرّة من حجم الصادرات الدولية من سلع وخدمات في ذلك العام.

---

[1]- في سياق هذا التأريخ، يمكن ذكر مساهمة "سمير أمين"، حيث يعتبر العولمة مرحلة من مراحل تطوّر النظام الرأسمالي الذي مرّ بثلاث مراحل تتمثّل في مرحلة الليبرالية الوطنية، ثمّ مرحلة الاجتماعية الوطنية، ثمّ مرحلة الليبرالية المعولمة، وهي مرحلة العولمة الحالية. أنظر: سمير أمين، **دراسة حول الرأسمالية والنسق- العالم**، في الهادي التيمومي، الجدل حول الإمبريالية منذ بدايته حتى اليوم، دار محمد علي الحامي، تونس، 1992، ص: 14؛ كامل علاوي الفتلاوي، عاطف لافي مرزوق، مرجع سبق ذكره، ص:37.

4- الاتجاه الرابع

يذكر "جان شولت"[1] أحداثا يراها الأكثر مباشرة في رسخ العولمة، وهي أحداث لا علاقة لها بالاقتصاد أو السياسة بقدر ما تتمثّل في ابتكارات واختراعات وتطوّرات تكنولوجية عملت على نسج خيوط العولمة.

يعتبر التلغراف أوّل هذه الاختراعات، وكذلك استحداث توقيت غرينتش، ظهور المذياع، إطلاق أوّل قمر اصطناعي سنة 1957، الاتصالات الدولية عبر الأقمار الصناعية، البث عبر الأطباق المقامة على أسطح المنازل سنة1976، ربط اتصالي للعالم عن طريق الألياف البصرية.....

يعتبر هذا التحقيب أنّ العولمة بعيدة عن أيّ نسج سياسي أو إيديولوجي وإنّما هي نتاج التطوّر التكنولوجي والتحكّم في الزمان والمكان.

5- ***الاتجاه الخامس***

يقسّم بعض الاقتصاديين التطوّر التقني–اقتصادي إلى مراحل يسمّون كلّ واحدة منها موجة "كوندراتييف" نسبة إلى العالم الاقتصادي الروسي "نيكولاي كوندراتييف"[2]، وتتمثّل هذه الموجات الخمس في:

الموجة الأولى 1785–1872: مركزها بريطانيا ويقوم التصنيع فيها على الفحم والحديد والطاقة البخارية.

الموجة الثانية 1843–1897: مركزها ألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية، وتقوم على الفلاذ وسكك الحديد والسفن البخارية والمعدّات الميكانيكية.

الموجة الثالثة 1898–1947: مركزها ألمانيا والولايات المتّحدة وتقوم على السيارات والأدوات الكهربائية والكيميائية.

الموجة الرابعة 1948–2003: مركزها اليابان وأساسها الصناعات الكيميائية والكهربائية والإلكترونية وبالذات تكنولوجيا المعلومات.

---

[1] - جان آرت شولت**Jan Aart Scholte** ، مختص في العولمة، أستاذ باحث بمركز دراسات العولمة والإقليمية بجامعة وارويك بالمملكة المتّحدة، وأستاذ بمركز الحكم الرشيد بكلّية لندن للاقتصاد، له أكثر من خمسة كتب في العولمة بالإضافة إلى عشرات الأبحاث.

[2] – نيكولاي كوندراتييف Nikolaï Dmitrievitch Kondratiev (1892–1938)، اقتصادي روسي مشهور باكتشافه لدورات طويلة الأمد للديناميكات الاقتصادية العالمية (تساوي مدة كل من تلك الدورات أو الموجات بين 50 و60 سنة). وتلك الدورات معروفة الآن كموجات كوندراتييف، تم إعدامه عام 1938 في المعتقلات السوفييتية بسبب دوراته الاقتصادية التي يفهم منها أنّ النظام الرأسمالي يعاود النهوض كل مرّة يمر بأزمة، الأمر الذي يحول دون انهياره.

الموجة الخامسة 2003–لم تكتمل: تعتمد الصناعات الالكترونية وتقنية المعلومات.

المبحث الرابع: النسق العالمي

يعتبر النسق من الأدوات المنهجية الأكثر استعمالا في تمثيل وتنميط وتنظير ودراسة العلاقات الدولية، باعتباره يسلّط الضوء على الكل أكثر من تسليطه على الجزء، وبالتالي فنظرته شمولية أكثر منها جزئية.

1- *مدخل للنسق العالمي*

لئن تعدّدت التعاريف لتحديد مفهوم النسق، إلاّ أنّنا يمكننا اعتباره "مجموعة وحدات تربطها علاقات متبادلة"[1]. وعليه، يمكن القول إنّ النسق محدّد من زاوية منهجية بـ:[2]

*تعريف وتعيين العناصر المكونّة له.

*تحديد مميزات وخصوصيات هذه العناصر التي تمكّننا من وصفه .

*تحديد القواعد والقوانين التي تحدّد العلاقات والتفاعلات بين هذه العناصر أو بين خصوصياتها؛ فالتنظيم الذي يميّز نسقا ما، يخص أوّلا وقبل كلّ شيء العلاقات النّاجمة عن خصوصيات عناصر النسق.

إنّ النظرة الشمولية التي تمنحها هذه الأداة، جعلتها موضوع اهتمام واستعمال العديد من الاقتصاديين والمفكّرين في العلاقات الدولية وبالخصوص الاقتصادية[3]، في إطار ما يمكن تسميته عناصر التحليل البنيوي؛ إذ تطوّر هذا الأخير كمنهج من مناهج التحليل في علم الاقتصاد، نتيجة إسهامات المنهج التاريخي الذي يهدف إلى وصف الوقائع في إطارها الزمني ولا يتوقّف هذا المنهج عند الوصف بل يسعى إلى تفسير التغيّر والتنبّؤ به، انطلاقا من متغيّرات متداخلة: اجتماعية، واقتصادية، وتاريخية، وجغرافية وحتّى نفسية.

تكون دراسة النسق الاجتماعي الاقتصادي على مستويين:[4]

---

[1] - Daniel Durand, **La systémique**(Que sais-je), PUF, Paris,1979, p:8.

[2]- P.de Brugne, J.Herman, M de Schoutheete, **Dynamique de la recherche en sciences sociales**, PUF, Paris, 1974, p:177.

[3] – تجدر الإشارة هنا أيضا إلى أنّه من الضروري أن نميّز بين المقاربة النسقية التي تعتبر أداة دراسة عن النموذج النسقي أو النماذج النسقية، فالمقاربة تمثّل اتّجاها عاما تعمل فيه مدارس مختلفة؛ أمّا النموذج فهي بناءات فكرية لباحث أو مجموعة باحثين لتمثيل دقيق لظاهرة علمية اجتماعية كانت أو مادية دقيقة.

[4] – نبيل رمزي، **النظام الاقتصادي من وجهة سوسيو–تاريخية**، دار الفكر الجامعي، بيروت، 2000، ص:5.

- مستوى الديناميكيات الداخلية للنسق، بمعنى دراسة العلاقات التي تربط مكوّنات النسق التي تكوّن مع بعضها البعض شكلا ديناميكيا متوازنا نسبيا، وهو النسق موضوع البحث.
- مستوى الديناميكيات الخارجية للنسق، أي دراسة علاقاته الجدلية مع غيره من الأنساق التي تكوّن شكلا ديناميكيا متوازنا نسبيا يتمثّل في البناء العالمي.

في إطار استعمال هذه الأداة لقراءة الاقتصاد العالمي، وفي ظلّ محاولة إسقاطها على المجال العالمي، نغدو نتكلّم عن النسق الدولي الذي يمكن سرد بعض من تعريفاته الآتية:[1]

"النسق الدولي هو جمع من الدول التي تتفاعل مع بعضها ومع بقيّة الوحدات أو اللاعبين الفاعلين في النسق."

"النسق الدولي هو جمع من الكيانات السياسية المستقلّة المتفاعلة مع بعضها بصورة منتظمة ومتكرّرة."

"النسق الدولي هو مجموعة من الوحدات السياسية المتدرّجة لجهة القوّة والمتفاعلة في علاقاتها على نحو يهيئ لاتّزان قواها ولانتظام علاقاتها، بعيدا عن الفوضى الدولية من جهة وبما يحول دون هيمنة أي من هذه الدول على ما عداها، مكوّنة إمبراطورية عالمية من جهة أخرى".

من الملاحظ أنّ هذه التعاريف أجمعت على أن النسق الدولي يشمل مجموعة من العناصر متمثّلة في الوحدات السياسية –الدول– التي تقف بشكل علاقات هيكلية متمايزة بالنسبة لبعضها البعض، وتتفاعل في شكل عمليات لها صفة متمايزة. والواقع أنّ هذه العناصر قد لا تكون بالضرورة اليوم وحدة سياسية خالصة أو محضة، كما لا تكون بالضرورة هذه العناصر أو الوحدات متمثّلة في الدولة القومية، إذ أنّه وجدت وحدات قلّصت من دور الدولة كالتجمعات الاقتصادية بمختلف مراحلها والتي احتوت الدول القومية في مختلف المجالات الاجتماعية والسياسية كالاتّحاد الأوروبي مثلا، وكذلك الشركات متعدّدة الجنسيات التي أضحى لها ثقل لا يستهان به في شتى المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية.

وأمام هذا التراجع للدولة القومية، على الأقل نسبيا أمام العناصر الأخرى، لم تعد الدولة ميزة يوصف بها النسق، ولذلك نرى أنّه أضحى من الأصح التكلّم عن النسق العالمي عوض النسق الدولي، على الأقل في ظلّ افتراض هذا التراجع أو الاقتناع به.

[1] - أنظر: محمد طه بدوي، **مدخل إلى علم العلاقات الدولية**، المكتب المصري الحديث، الإسكندرية، 1976، ص ص: 246–247.

2- أشكال النسق العالمي

حاول "جاك ليفي"[1] تصوّر أربعة أشكال للنسق العالمي، يمكن أن تُقرأ على أنّها أنساق مستقلّة عن بعضها البعض، أو على أنّها أنساق تترجم تطوّرات مرحلية، محاولا بذلك رسم أنساق تتباين هيكلة مجالها المكاني، بحسب عناصر النسق الأساسية من جهة، ومالها من تأثير على اختلاف العلاقة التي تربط هذه العناصر من جهة أخرى، فميّز بين:[2]

2-1 النسق العالمي كمجموعة عوالم

يتكون العالم وفق هذا النسق، من مجموعات وحدات (أشخاص، تجمعات، مجتمعات)، منفصلة ومتباعدة، بحكم اللاّتحكم في المكان، فالمسافة أو البعد بين الوحدات هي ما لا نهاية، والبعد هنا لا يقصد به البعد المادي فقط، وإنّما البعد الفكري والعقائدي أيضا، هذا الأخير الذي عادة ما يكون مرتبطا بالبعد الأوّل.

وعلى هذا فعلى عكس ما قد يظهر، فإنّه لا يزال من الممكن أن نقرأ مثل هذا النسق في عالم اليوم، عندما يتعلّق الأمر بالفضاءات الثقافية المحدّدة بعدّة مرجعيات كالدين واللغة، والتي مازالت متباعدة رغم ما تقدّمه التطوّرات التكنولوجية لوسائل الاتّصال من فرص للتقارب؛ فالهوية المبنية على العرق، الدين، الأرض، وأيضا الانتماء إلى طبقة اجتماعية أو اقتصادية معيّنة قد تكون سببا لهذا التباعد. ويمكن تمثيل هذا النسق كما يلي:

---

[1] – جاك ليفي Jacques Lévy (1952–)، جغرافي فرنسي، درّس في جامعات مختلفة عبر العالم، وأصدر ما يقارب الخمسة عشر كتاب في الجغرافية والجغرافيا السياسية، من بينها المرجعين الذين استعملناهما، بالإضافة إلى قاموس جغرافية ومجال المجتمعات (2003)*Dictionnaire de la géographie et de l'espace des sociétés* le .

تعتبر العولمة وبالأخص عولمة المناطق الحضرية من بين اهتماماته ودراساته، التي نجد فيها كل من علم الاجتماع وعلم الأجناس، والهندسة المعمارية والجغرافيا البشرية على حد سواء.

[2] - Jacques Lévy, **« Espace-monde, mode d'emploi »,** in Jacques Bidet et Jacques Texier (direction), le nouveau système monde, PUF, Paris, 1994, pp : 57-67.

- Jacques Lévy **,** ***L'invention du monde*** , Presses de Sciences Po | *Hors collection,*2008, pages : 40 – 61.

شكل رقم 1: النسق العالمي في شكل مجموعة عوالم

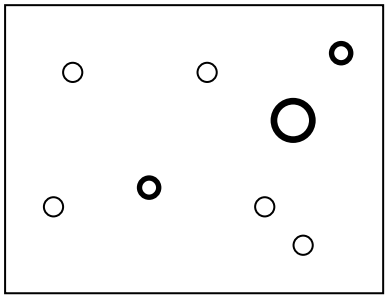

المصدر : Jacques Lévy, « Espace-monde, mode d'emploi », op cit, p : 58.

يمثّل الإطار في الشكل السابق المجال العالمي، فيما تمثّل الدوائر التي بداخله العوالم المختلفة، غير المتجانسة والمتباعدة، والتي لا تربط بينها علاقات ممثّلة.

2-2 النسق العالمي كحقل قوى

يعتبر هذا النسق نسقا جغرافيا-سياسيا، يستعمل عادة في دراسات وتحاليل العلاقات الدولية. أساس هذا النسق هو ظهور الدولة كوحدة سياسية وكهيكل جغرافي قوي تمكّن من حشد وحصر وضم موارد المجتمع، فضلا عن تمكنها من تدعيم تقارب واجتماع مجموعات الأفراد – الأشخاص-.

وعلى هذا الأساس نسمي منطقا جغرافيا-سياسيا مجموع الآليات التي تجعل من وجود وبقاء الوحدة الترابية للوحدة السياسية محلّ خطر؛ وسعي كل وحدة سياسية حقيقية أو وهمية[1] لإنماء قوتها بالحفاظ أو توسيع حيّزها الجغرافي الذي يعتبر بمثابة مخزن للموارد البشرية والمادية، عن طريق مواجهة أمثالها من الوحدات، ما يجعل القوة العسكرية معيارا عاكسا لقوة هذه الوحدة، ويجعل الحروب والعنف ميزة علاقات هذا النسق؛ ويمكن تمثيل هذا النسق في الشكل التالي .

[1] – يقصد بالوحدة السياسية الوهمية الحركات الساعية إلى تكوين وحدة سياسية لم تكن من قبل أو كانت واستعمرت، فهي بذلك غير معترف بها كوحدة سياسية من طرف الوحدات السياسية الحقيقية على الأقل في بادئ الأمر.

شكل رقم 2: النسق العالمي كحقل قوى

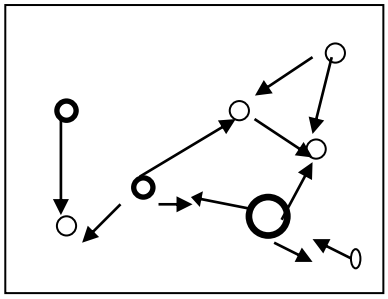

المصدر: Jacques Lévy, « Espace-monde, mode d'emploi », op cit, p : 58.

مقارنة بالشكل السابق، نلاحظ أنّ هناك علاقات بين عناصر النسق العالمي تتخلّل المجال العالمي، مثّلت هذه العلاقات في شكل سهم في اتّجاه واحد كدلالة على علاقة استعمار واحتواء وإخضاع، في حين تمثّل الأسهم المتعاكسة الحروب.

2-3 نسق عالمي مهيكل

يعكس هذا النسق علاقة متواجدة منذ خمسة قرون، بعد ربط المجال العالمي من طرف الغرب لجعله شبكة تبادل، تتمثّل خصوصية هذا النسق في كونه لا يتعلق بمجرّد تبادل السلع، إنّما تتخلّله علاقات أشمل من أن تكون علاقات تجارية مجرّدة، بل وحتى اقتصادية، فرضتها طبيعة هيكلة هذا النسق.

يعرف هذا النسق مركزا مستغِلاّ ومحيطا مستغَلاً، تربطهما علاقة استغلال وهيمنة تجعل المجتمع العالمي كله موجّها إلى ما تراه القوى المهيمنة تطورا ونموّا.

وهكذا نكون قد ابتعدنا في ظل هذا النسق عن العلاقات القاسية التي تجمع بين الدول، ليصبح الأمر يتعلق بهيكلة شبكة نقاط، أماكن قابلة للاستغلال بتطور وسائل النقل والاتصال والتحكم في المكان. كما أن هدف عناصر النسق – الدول– الفاعل لم يعد يكمن في مجرّد احتكارها وامتلاكها الموارد، وإنّما في تنشيطها وتحريكها واستغلالها. يمكن تمثيل هذا النسق في الشكل التالي:

شكل رقم 3: نسق عالمي مهيكل

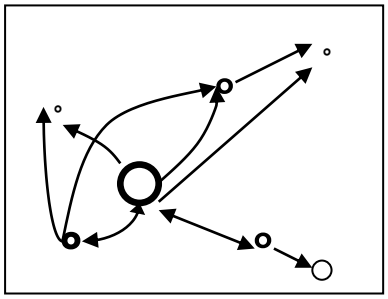

المصدر: Jacques Lévy, « Espace-monde, mode d'emploi », op cit, p : 58.

مُثِّلت العلاقات الأساسية والجديدة في هذا النسق برمز التكافئ كدلالة على وجود علاقة استغلال يتولّى المركز توجيهها، وبذلك تنظيم المجال؛ حيث أهمية تباين حجم عناصر النسق.

لقد نظّر كلّ من المؤرخ "برودل" والاجتماعي "والرشتين"[1]، تطوّر النسق الاقتصادي الرأسمالي في هذا النوع أو الشكل من الأنساق، مستعملين مصطلحي "الاقتصاد-عالم" و"النسق-عالم"، مصطلحين نرى ضرورة التطرّق إليهما لاحقا.

2-4 النسق العالمي كمجتمع

على أساس التنسيق الناجح والمحكم للأنساق الثلاثة السابقة ، يصبح من الممكن التكلّم عن نسق رابع متجسّد في المجتمع العالمي، مجتمع ساهم في انسجامه كثافة المبادلات والتحكم في المكان والزمان، لتصبح رؤيته ومعالجته عالمية، تماما كمشكلاته؛ مجتمع لم يعد يصلح لحكمه سوى هيئات في مستوى كِبَرِ حجمِه، هيئات دولية، عالمية.

هذا دون أن ننفي وجود مجتمعات ذات خصوصية أو دول وطنية في المجتمع العالمي، تماما كوجود مجتمعات ذات خصوصية وإدارات جهوية في الدول الوطنية.

ويمكن تمثيل هذا النسق في الشكل التالي:

[1]- يأتي التعريف بهما وبإسهاتهما لاحقا.

شكل رقم 4: المجتمع العالمي

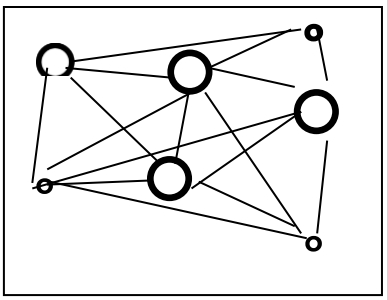

المصدر: Jacques Lévy, « Espace-monde, mode d'emploi », op cit, p : 58.

وكما يتّضح من الشكل، يؤول المجتمع إلى التجانس، كما أنّ علاقاته أصبحت إن صحّ التعبير اعتمادية تبادلية، يستفيد منها المجتمع العالمي بصفة أولى، مثّلناها بخطوط دون أسهم.

إنّ هذه الأنساق الأربعة للعالم بخصائصها المختلفة والمتعلّقة بالمسافات بين المجتمعات، وبنوع العلاقات التي تربط بين هذه المجتمعات، وبنمط تنظيم المجال المكاني (جماعات، إمبراطوريات، أسواق وطنية، مجتمع عالمي)، يمكن أنّ ترى على أنّها قراءات مختلفة لعالم واحد، تمثّل كل قراءة نظرة منفردة للعالم وللعلاقات التي تسوده.

هذا وكما يمكن اعتبار كل شكل أو نسق من هذه الأنساق ترجمة لمرحلة من مراحل تطور النسق العالمي؛ يصعب الفصل الدقيق لمجالها الزمني لإمكانية تزامن ملامح أنساق مختلفة في مرحلة واحدة، لاسيما إذا كانت هذه المرحلة مرحلة انتقالية، حيث تداخل الملامح أمر طبيعي كما يبيّنه لنا الشكل رقم5.

شكل رقم 5: تتابع مختلف أشكال النسق–العالمي

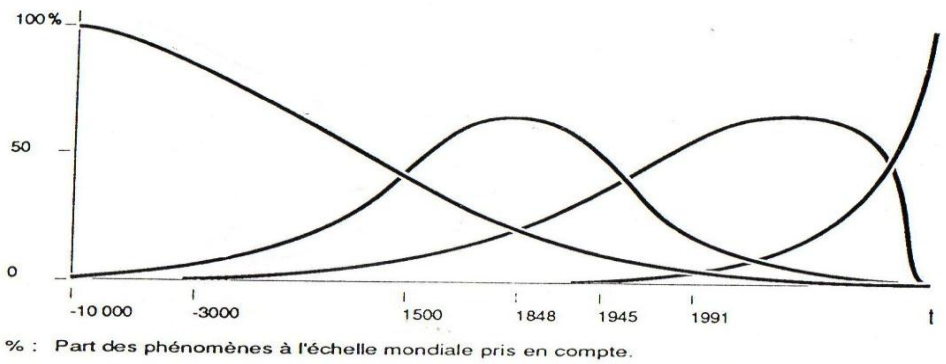

المصدر: Jacques Lévy, L'invention du monde , op cit, p :53.

يمكن القراءة من الشكل أنّ الشكل الأوّل لهيكلة النسق العالمي، عالم مجموعة عوالم، مثّل تمثيلا كاملا للمجال العالمي منذ ظهوره، ثمّ أخذت نسبة تمثيل هذا النسق في التراجع فاسحا المجال للأشكال الأخرى التي بدأ تمثيلها العالمي من الصفر. فيما أخذ الشكل الأخير المتمثّل في المجتمع العالمي، العولمة، في الظهور منذ بداية القرن العشرين، وأخذت نسبة تمثيل هذا الشكل في المجال العالمي تتزايد وتيرتها مع مرور الوقت منذ سنة1991 ليقارب تغطية المجال العالمي، الأمر الذي نجد له دلائل وتفسيرات تاريخية.

المبحث الخامس: الاقتصاد-عالم[1] والنسق-عالم[2]

كما سبق وأن أشرنا، يعتبر هذين المصطلحين اجتهادا في قراءة النسق الرأسمالي.

1-*الاقتصاد-عالم*

يعتبر الاقتصاد-عالم، مصطلحا وأداة للمؤرخ "برودل"[3] اشتقّها ليميّزها عن مصطلح الاقتصاد العالمي إذ كتب معرّفا:

[لا بدّ لنا قبل البدء في المناقشة من أن نشرح تعبيرين من الممكن الخلط بينهما: اقتصاد عالمي، واقتصاد-عالم.

فالاقتصاد العالمي، هو كيان اقتصادي يشمل الدنيا كلّها؛ ويحيط كما يقول "سيسموندي"[4] بـ"سوق العالم كلّه" بـ "الجنس البشري كلّه أو بتلك الشريحة الكاملة من الجنس البشري التي تتجر

---

[1]- Economie-monde ، ولقد ترجم مصطفى ماهر هذا المصطلح بـ"عالم اقتصادي"؛ إلاّ أنّنا ارتأينا ترجمته على هذا النحو، لأنّ عالم اقتصادي هي ترجمة أصح لـ:monde économique وليس هو المقصود، أنظر: فرنان برودل، **الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية**، مصطفى ماهر (ترجمة)، ط1، ج3، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1995، ص:16.

[2]-Système-monde

[3] - فرنان برودل Fernand Braudel مؤرّخ فرنسي (1902-1985)، يعرف بمؤرخ المدى الطويل، حاول ربط التاريخ بمختلف العلوم الأخرى، من بينها علم الاقتصاد، وكان من نتائج هذه المقاربة دراسة تطوّر النسق الرأسمالي من خلال تطوّر الاقتصاد-عالم الرأسمالي، فهو بذلك مشتق مصطلح الاقتصاد عالم كما ذكرنا أعلاه، وتصنّف هذه النظرة إلى العلاقات الدولية كمدرسة ماركسية حديثة.

[4] - جين شارل ليونارد سيسموندي دي سيسموندي Jean Charles Léonard Simonde de Sismondi، (1773-1842)، مؤرخ، اقتصادي، وكاتب سياسيي سويسري تأثر بآدم سميث، وتبنّى الليبرالية في بادئ الأمر حتّى سنة 1819م، تقارب كتبه الخمسة عشر كتاب، من بينها: الاقتصاد السياسي (1815)، مبادئ جديدة للاقتصاد السياسي، الثروة وعلاقاتها مع المجتمع (1819)الذي انتقد فيه الحرية الاقتصادية وتطرّق فيه لأوّل مرّة إلى فكرة إعادة توزيع المداخيل في المجتمع.

انتقد كارل ماركس بعض مواقفه واعتبره عميد "اشتراكية البرجوازية الصغيرة"، ودعاه لينين "الاشتراكي الرومانسي."

بعضها مع البعض الآخر والتي أصبحت اليوم تكوّن سوقا واحدة على نحو ما"

أمّا الاقتصاد–عالم الذي أسميته بالفرنسية Economie-monde وهي تسمية غير مألوفة لم يحسن الناس استقبالها في اللغة الفرنسية، نحتّها بكلّ بساطة قياسا على الألمانية، لأنّني لم أجد وسيلة أخرى أفضل، لكي أترجم المضمون الخاص للفظة الألمانية Weltwirtschaft فيعني كيانا اقتصاديا يقوم في جزء فقط من العالم، في جزء من كوكب الأرض يتّصف بأنّه مستقل اقتصاديا، وبأنّ له القدرة فيما يتّصل بالأساسيات على الاكتفاء الذاتي، وبأنّه له علاقاته وتبادلاته القائمة التي تفضي عليه نوعا من الوحدة العضوية[1].

فالاقتصاد–عالم عالمٌ في حد ذاته يقوم في جزء محدّدا من الكرة الأرضية، فهو كيان اقتصادي مستقلٌ أو كيان مستقل اقتصاديا، قادر على تحقيق اكتفائه بنفسه من خلال علاقات ومبادلات داخلية تعكس نوعا من الوحدة العضوية، تبرّر لنا التكلّم عن عالم في حد ذاته، أو عن كلٌ في حد ذاته يتمتع بوحدة اقتصادية رغم تبايناته السياسية والثقافية والاجتماعية.

يمكننا تلخيص بعض ملاحظات "برودل" لأداته اقتصاد–عالم فيما يلي:

– تعود نشأة الاقتصادات–عوالم إلى قدم مجتمعات، حضارات وإمبراطوريات العصور القديمة، وعلى هذا يمكننا أن نقول إنّ فينيقيا القديمة كانت تمثّل في عصر الإمبراطوريات الضخمة تخطيط اقتصاد–عالم، ويمكن أن نقول ذات القول عن قرطاجة، ونفس القول يعدو صالحا عن الإمبراطورية الإسلامية بعد انتصاراتها الهائلة وأمثلة أخرى كثيرة...، وفي بداية القرن التاسع بدأت ترتسم أوّل معالم لاقتصاد–عالم أوربي قصير الأجل؛ وأخذت الاقتصادات–عوالم شكلا قائما بحد ذاته في القرن الثامن عشر في كلّ من آسيا وأوربا.

– يعرّف أي اقتصاد–عالم أوّلا بتحديد المجال الجغرافي الذي يشغله بحدود أو حواجز معرّفة لا نهائية ، قابلة للتغيّر بشكل بطيء وتتخطّى باستمرار، تكون هذه الحدود في العادة مجالا جغرافيا أو سياسيا صعب الاختراق والاستغلال، وذلك على العموم لسببين: كونها تمثل حدود اقتصاد–عالم آخر أو لصعوبتها الطبيعية: صحاري، أدغال، محيطات؛ وقد يكون المجال الجغرافي لاقتصاد– عالم ما منقطعا.

[1] - فرنان برودل، مرجع سبق ذكره، ص:16،(بتصرّف).

– يقبل هذا المجال مركزا واحدا، قطب حضري مدينة–أمّة في وقت مضى أو دولة–أمّة حاليا ليكون مركز إمدادات النشاط الاقتصادي للاقتصاد–عالم : من معلومات، رأس مال، سياسات مترجِمة لقرارات ، فإذا تعدّدت المراكز فهذا مؤشّر على حدوث تغيّر أو طفرة في الاقتصاد–عالم.

– من الممكن أن تؤدّي التغيّرات الداخلية والخارجية إلى إسقاط المركز تاركا آثارا متفاوتة، تبلغ أبعد نقطة مكانية في الاقتصاد–عالم؛ وينجم عن هذا السقوط انتقال المركز إلى نقطة أخرى في الاقتصاد–عالم؛ وقد يشهد الاقتصاد–عالم مركزين في نفس الوقت قبل أن ينهار أحدهما كمصير حتمي .

فالتمركز يعتبر قانونا طبيعيا في الاقتصاد–عالم، وفي كل مرة يسقط المركز يعوّض بآخر، وكأن الاقتصاد–عالم لا يستطيع العيش و الاستمرار بدون مركز، إنّ هذه العملية – التمركز– عملية نادرة، مصاحبَة في غالبيتها بأزمات سياسية تأخذ شكل حروب، أزمات اقتصادية، أو الاثنين معا.

– يتّسم كل اقتصاد–عالم بسمة الطبقية، فهو يجمع طائفة من المجالات الاقتصادية الخاصة، بعضها فقير، وبعضها الآخر متواضع وآخر غني نسبيا؛ وبذلك نجد ثلاث مجالات متباينة على الأقل:

* مركز ضيّق تتجمع فيه كل معاني التطوّر والرقيّ تفعّله نخبة قوية و غنية غالبا.
* مناطق وسطية ممتدة حول القلب –المركز– وعلى مسافات متباينة تتمتع وتحت كنف المركز بجزء فقط من امتيازاته.
* هامش واسع – محيط كبير، يحمل كل معالم البؤس والفقر والاستغلال، يعتبر في نشاطه الاقتصادي تابعا أكثر من مساهم[1].

أكّد "برودل" في شرح منهجه المتّبع في محاولة دراسة الاقتصاد-عالم الرأسمالي دراسة تاريخية وركّز على فكرة القراءة الاقتصادية للتاريخ من جهة، وعلى التداخل بين كل التخصّصات الاجتماعية في الدراسة مستندا إلى أقوال رجال الاقتصاد ورجال التاريخ إذ يقوم بسرد أقوالهم[...والخط الذي يأخذ به هذا المجلّد يميّز من ناحية المبدأ مجالا بعينه من مجالات التاريخ ألا وهو التاريخ المادي والاقتصادي. و أقول بعبارة أخرى إنّ الموضوع الذي صحّت نيّتي على الإحاطة به هو تاريخ العالم، من منظور اقتصادي في المقام الأوّل.....ويذهب "خوزيه جينتل دا

[1] – Fernand Braudel, **civilisation matérielle économie et capitalisme, XV^e^-XVIII^e^ siècle,** T3**: le temps du monde**, 2^eme^ed, Armand Colin, Paris, 1980, pp : 12-32.
Fernand Braudel, **La dynamique du capitalisme,** Champs Flammarion, Paris, 1999, pp : 84-94.

سيلفا"[1] إلى أنّ "كل الأمور في التاريخ يمسك بعضها بعضا، والنشاط الاقتصادي على وجه الخصوص لا يمكن فصله عن السياسة ومذاهبها، ولا يمكن فصله عن الإمكانات والضغوط التي تتصل به"؛ ويرى "ريموند فيرث"[2] أنّ كل أنشطة الإنسان لها وجه اقتصادي، ووجه اجتماعي، ووجه ثقافي ووجه سياسي ما في ذلك أدنى شك؛ والرأي عند "يوزف شومبتر"[3] أنّ" التاريخ الاقتصادي لا يمكن أن يكون اقتصاديا خالصا" وكذلك عالم الأنثروبولوجيا "جان بواريه" يرى أنّ عالم الاقتصاد لا يمكن أن يحيط بواقعة اقتصادية إحاطة كاملة إلاّ إذا وسّع النطاق وتجاوز حدود الاقتصاد"...."إنّ الانفصال عن العلوم الاجتماعية الأخرى غير مقبول في مجال الاقتصاد السياسي"؛...وهذا ما كان يقوله "جون باتيست ساي"[4] "الاقتصاد السياسي الذي كان يبدو أنّه ليس له من هدف سوى النعم المادية وجد نفسه يحيط بالمنظومة الاجتماعية كلّها، فهو يرتبط بكلّ شيء في المجتمع"؛ فالتاريخ الاقتصادي للعالم هو إذن كل تاريخ العالم، ولكن من منظور معين، هو منظور الاقتصاد][5].

2-***النسق- عالم***

يرى "والريشتين"[6] في السياق نفسه أنّ فهم آلية النسق العالمي يوجِبُ الوقوف عند مفهوم النسق-عالم، الذي يعتبره "نظام اجتماعي له حدود، هياكل، ومكوّنات بشرية متناسقة، مع وجود قوانين تبرره."

---

[1] – *josé-Gentil Da Silva (1595-1607)، من لشبونة.*

[2] – ريموند فيرث Raymond Firth (1901-2002)، نيوزيلندي، عالم الأجناس الجديدة والأنثروبولوجيا، يعتبر واحدا من مؤسسي علم الأجناس الاقتصادي.

[3] – جوزيف شومبتر Joseph Aloïs Schumpeter (1883-1950)، اقتصادي نمساوي، عرف بنظريّاته التذبذبات أو الدورات الاقتصادية، صدر له كتاب تاريخ التحليل الاقتصادي(1954) ، الذي لا يزال يعتبر مرجعا، لا ينتمي إلى المدرسة الكينزية ولا إلى المدرسة الكلاسيكية البعدية، وإنّما يمكن إلحاقه بالمدرسة الاقتصادية النمساوية؛ نظّر لتطوّر النظام الرأسمالي في ظل الديمقراطية في كتابه "الرأسمالية، الاشتراكية، والديمقراطية(1942)، حيث يرى أنّ هذا النظام سينهار بفعل عوامل اجتماعية وسياسية.

[4] – جان باتيست ساي Jean-Baptiste Say (1767- 1832)، أهم اقتصادي كلاسيكي فرنسي، صناعي في مجال القطن، واحدا من رجال الأعمال الفرنسيون في صناعة القطن. وكان أيضا صحفيا، وهو معروف لمواقفه الليبرالية. وهو مؤلف من التمييز الثلاثي "الإنتاج – التوزيع – استهلاك" الذي أصبح فكرا كلاسيكيا. صاحب كتاب" أطروحة في الاقتصاد السياسي"(1803)، أين عرض "قانون الأسواق أو المنافذ loi des débouchés" المعروف بقانون ساي. نشر له قرابة العشرون كتابا.

[5] - فرنان برودل، مرجع سبق ذكره، ص ص:11-12.

[6] –إيمانويل والرشتين Immanuel Wallerstein (1930-) اجتماعي أمريكي، نظّر هو الآخر لتطوّر النظام الرأسمالي عن طريق النسق –عالم والاقتصاد– عالم في نفس الفترة مع "برودل" (بداية السبعينات)، إلاّ أنّه يعتبر الاقتصاد –عالم الرأسمالي الاقتصاد–عالم الوحيد الذي وجد على عكس "برودل".

إن ما يميز نظام اجتماعي ما هو أن الحياة داخله محقّقة وبجزء كبير عن طريقه كما أن ديناميكية نموّه هي الأخرى داخلية المنشأ؛ وبناء على هذا التحديد، تقصى عدّة تشكيلات، كانت تُعتبر أنظمة اجتماعية كالدولة مثلا، التي لا تعتبر في حقيقة الأمر نظاما اجتماعيا بأتم معناه.

ويرى "والريشتين" أن النسق–عالم يأخذ شكلين:

– إمبراطورية–عالم، وذلك في حالة كون هذا النظام في كنف سلطة سياسية واحدة تحكمه.

– واقتصاد–عالم، في حالة العكس، أي عدم وجود سلطة مركزية واحدة وإنما سلطات سياسية متمايزة.

إن كل الاقتصادات–عوالم التي سبقت كانت غير متوازنة، إذ كان مآلها التحول إلى إمبراطورية–عالم في أحسن الأحوال إذا ما لم تتلاش؛ ويبقى الاقتصاد–عالم الرأسمالي الاقتصاد–عالم الوحيد الذي تمكّن من الصمود و العيش لمدة خمسة قرون إلى أن أصبح اقتصاد–عالم عالمي.

ويؤكّد "والريشتين" في هيكلة الاقتصاد–عالم على:

*الضعف النسبي لدول المحيط كخاصية رئيسة للمحيط، ضعفٌ يمكن أن يتحوّل إلى غياب تام أو شبه تام لهذه الدول في حالة استعمارها أو كونها تحت وصاية.

*الأهمّية الهيكلية للمناطق الوسيطية في الاقتصاد–عالم، إذ تكون مسرحا لالتقاء عدّة عناصر حيوية.

* يعرف النسق –عالم تقسيم عمل على مجال واسع، تقسيما ليس وظيفيا فحسب وإنما جغرافيا أيضا، الذي وفي ظل تنظيم اجتماعي يمكّن البعض من استغلال عمل الآخرين للحصول بذلك على جزء أكبر من فائض القيمة؛ استغلال محقق بتمايز قوى النظم السياسية المختلفة والمتمثلة عادة في الدول، فمن غير الممكن أن تكون قوى هذه الدول متماثلة لأنه لو كان الأمر كذلك لما تمكنت أي دولة من تدعيم فئة محدّدة – مؤسسات اقتصادية دولية– في الاقتصاد–عالم، معرقلا بذلك التقسيم الدولي للعمل، مسببا انهيار الاقتصاد– عالم؛ وفي السياق نفسه من غير الممكن أن لا تكون هنالك دولة قوية نسبيا في اقتصاد–عالم ما، إذ في هذه الحالة لا تجد هذه القوى الاقتصادية الدولية –فوق وطنية–، سندا قادرا على حماية مصالحها، ولهذا ففي إطار اقتصاد–عالم تتجلى هيكلة دولية قوية نسبيا في المناطق المركزية وضعيفة نسبيا في المناطق الهامشية[1].

[1] - Immanuel Wallerstein, **le système monde du XV siècle à nos jours, T1, Capitalisme et économie-monde 1450-1640**, Flammarion, Paris, 1980, pp: 311-325.

المبحث السادس: خصائص الاقتصاد-عالم الرأسمالي

لقد لخّص "والرشتين" خصائص النسق-عالم الرأسمالي فيما يلي:[1]

- يعتبر النسق-عالم الرأسمالي نسقا تاريخيا، وبالتالي يمكن تحديد زمن بداية تكوّنه، ومراحل تطوّره، وتاريخه مع الهياكل التي عايشته، ولأنّه يحمل في طيّاته تناقضات، قد ينهار هذا النسق في مرحلة ما.
- وعلى ما سبق، فلقد شهد العالم وسيشهد أنساق-عوالم أخرى، ولقد نشأ النسق-عالم الحالي في غضون القرن السادس عشر، في مجال أرضي ضيّق نسبيا، هذا النسق يسمّى نسقا رأسماليا، وهو النسق الوحيد الذي عاش مدّة زمنيّة طويلة نسبيا وترعرع.
- يتمحور الاقتصاد-عالم الرأسمالي حول عملية تقسيم عمل تاريخية، وتمتّع هذا النسق بديناميكية مكّنته من اختراق المجال المكاني والانتشار عبر كامل الكرة الأرضية، وذلك بإدماج مجالات أرضية أخرى فيه كانت إمبراطوريات- عوالم، أو اقتصادات-عوالم أخرى، أو أنساق فرعية.
- ترتكز عملية تقسيم العمل على قنوات تجارية، نجد في كلّ قناة أشكالا مختلفة لطرق التحكّم والسيطرة على العمّال، وكذلك الاحتكار على عملية الإنتاج؛ ترتبط في العادة ربحية العملية الإنتاجية بدرجة الاحتكار؛ وفي المقابل ينتقل فائض الإنتاج إلى الدول التي تحتكر العملية الإنتاجية والتي تمثّل في العادة المركز، يسمّى أحيانا هذا الانتقال في فائض القيمة من المحيط إلى المركز بالتبادل غير المتكافئ.
- يتناقص الاحتكار الاقتصادي وبصفة مستمرّة مع مرور الوقت، بفعل اجتهاد ونضال أطراف أخرى لم تكن تملك الاحتكار للوصول إليه والاستفادة منه، أمر يستوجب انخفاض معدّل الربحية وارتفاع كمّية الإنتاج، ما يؤدّي بالاقتصاد-عالم إلى كساد أو ركود اقتصادي كشف لنا "كوندرنتييف" عن دوريته. تكون لهذه الأزمة آثار ظاهرة على الاقتصاد-عالم الرأسمالي، وتكون سببا في إعادة هيكلته و/أو انتشاره.

[1] - Immanuel Wallerstein, **le système-monde et son devenir: Thèses sur sa structure et sa trajectoire actuelle**, Fernand Braudel center, New-York, [en ligne], http://www.uqac.ca/jmt-sociologue/

- André GUNDER FRANK, **De quelles transitions et de quels modes de production s'agit-il dans le système mondial réel?,** Commentaire sur l'article de Wallerstein, 1990. "Les classiques des sciences sociales", [en ligne], http://www.uqac.ca/jmt-sociologue/

- لمجابهة الركود الاقتصادي الذي يتعرّض له، قد يضطر الاقتصاد–عالم الرأسمالي أن يكون موضوع إعادة هيكلة، كإعادة توطين المشاريع الاقتصادية الأقل ربحية في مناطق محيطية، أو محاولة تحريك الطلب العام، أو حتّى توسيع حدود الاقتصاد–عالم من أجل الحصول على طبقة عمل أرخص من شأنه تشجيع تراكم رأس المال، أو إنتاج منتجات أو اكتشاف طرق إنتاج تمكّن من الاحتكار فترةً لضمان استمرارية التراكم الرأسمالي.
- تتأتّى دورات الأزمة من تناقضات النسق، ولتجاوز هذه الأزمات يحوّل الاقتصاد–عالم الرأسمالي الأزمات قصيرة المدى إلى أزمات طويلة المدى مستعصية الحل، الأمر الذي يؤدّي في نهاية المطاف إلى أزمة نسق وانهياره.
- تعتبر الدولة – الوحدة السياسية – الوحدة الأساسية في هيكلة الاقتصاد–عالم الرأسمالي، في إطار نسق دولي، إذ أنّنا لا نكاد نجد مجالا جغرافيا لا يخضع لدولة ذات سيادة، تختلف هذه الدول عن بعضها البعض في هذه القوّة، سواء في قوّتها النسبية الخارجية التي تستعمل في العادة بين الدول، ولكن أيضا في قوّتها الداخلية، القوّة والصرامة من أجل تنظيم المجتمع. تعتبر هذه القوّة بمعنييها ميزة تميّز دول المركز.
- يمر النسق الدولي بدورات هيمنة، يمكن تعريف الهيمنة على أنّها وضعية تكون من خلالها دولة واحدة ما، قوية بما يكفي نسبة إلى دول المركز كي تتمكّن من تسيير النسق بما يتماشى ومصالحها، تكون هذه الهيمنة في العادة هشّة ومؤقّتة، أي أنّها تستمر لبعض الزمن فقط، لأنّها تضعف بفعل تكاليف الحفاظ على امتيازات الدولة المهيمنة. تتنافس دول المركز على هذه الهيمنة، أين تكون في العادة الحروب حدثا فاصلا في انتقالها.

ولقد مرّ الاقتصاد–عالم الرأسمالي بثلاث دورات هيمنة منذ نشأته، كانت الأولى تحت هيمنة الأقاليم المتّحدة في منتصف القرن السابع عشر، تلتها المملكة المتّحدة في منتصف القرن التاسع عشر، ثمّ الولايات المتّحدة منذ منتصف القرن العشرين.

- بالنظر إلى إعادة هيكلة النسق المُملى من قبل دورات الأزمة لـ"كوندلرتييف" ودورات الهيمنة من جهة أخرى، يمكن القول إنّه لا يمكن لدولة ما أن تضمن بقاءها ضمن دول المركز أو المحيط، أو حتى المناطق الوسيطية. فهناك دوما حركة بطيئة لتغيّر مكان الدول في هيكلة الاقتصاد–عالم، رغم ثبات هيكلته في ثلاث مناطق أساسية.
- تتمحور إيديولوجية الاقتصاد–عالم الرأسمالي حول أربعة محاور مترابطة، أوّلها شمولية أو عالمية الفكر والأخلاق، ثانيها علوم نيوتن وديكارت باعتبارها أنفع العلوم، ثالثها وجوب وضرورة التطوّر، رابِعها علمانية وليبرالية الدولة.

خلاصة

تكون العولمة باعتبارها مفهوما، موضوع تعاريف مختلفة ومتباينة، تركّز كلّ جملة منها على خاصية من خصوصياتها أو زاوية من زواياها، وعلى هذا يمكن لهذه التعاريف أن تختلف باختلاف المرجعيات الفكرية، والدينية، والإيديولوجية.

وبالنظر إلى التعاريف المختفة للعولمة، فضّلنا اعتبار التعاريف الشمولية، تلك التي تعتبر العولمة مرحلة من مراحل تطوّر النسق الرأسمالي، هذا الأخير يعتبر بدوره مرحلة من مراحل تطوّر النسق العالمي.

يمكن محاولة دراسة خصائص هذا النسق بالاستناد إلى دراسات التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. كذلك الدراسات التي تهتمّ بتاريخ الاقتصاد بصفة عامة وتاريخ الأنظمة أو الأنساق، وتلك التي تهتمّ بدراسة النظام أو النسق الاقتصادي الرأسمالي على وجه الخصوص، بعض من هذه الدراسات الأخيرة اعتمدت أداة الاقتصاد–عالم والنسق–عالم أداة منهجية.

انطلاقا من هذا، سوف نحاول قراءة العالم أو النسق العالمي في كلّ حقبة زمنية في شكل هيكلة وحدات بنيوية، ونحاول أن نقف على أهم علاقات النسق العالمي، لنصل إلى التغيّرات الطارئة في مرحلة العولمة.

الفـــصـــــــل الأوّل

عـــالـم العـــصر القديـم، النـــسـق العـــــالـــمـــي فـي مرحـــلـــــة الحـــضـــــــارات القـديـــــــمة

بغية التطرق إلى تكوّن أوّل المجتمعات والشعوب ينبغي الرجوع إلى هبوط آدم عليه السلام إلى الأرض وبالتحديد بالهند، وذلك لأنّه مصدر ونقطة بداية هذا التكوّن، فهو أبو الخلق من البشر وبذلك هو أبو هذه الشعوب. والواقع أنّنا لا يمكننا التكلّم في تلك الفترة إلاّ عن شعب واحد كان يعيش في مجال مكاني متقارب يتكلّم لغة واحدة، وبلغ تعداده عند موت أبينا آدم بعد تعميره الأرض لتسع مائة وثلاثين سنة حوالي أربعين ألف نسمة[1].

ثمّ إنّ بناء الشعوب هذا، عاود الانطلاق من الصفر في عهد النبي نوح عليه السلام، إذ أنّ الطوفان الذي كان في عهده بعد حوالي ألفين ومائتين واثنتين وأربعين سنة خلت من هبوط آدم[2]، لم يبق على الأرض إلاّ من ذريته لقوله تعالى عن نوح عليه السلام " وجعلنا ذرّيته هم الباقين"[3]، وقيل آمن معه أربعون رجل وامرأة وقيل أربعون رجل وأربعون امرأة[4] فأضحى بذلك جميع الناس والشعوب من ولد نوح الثلاثة[5]: سام وحام ويافث، وكان نوح عليه السلام مستقرّا في جنوب العراق حول موقع مدينة الكوفة حاليا[6].

وحدث بعد مضيّ ستمائة وسبعين سنة للطوفان أنّ الله عاقب ولد نوح فبلبل ألسنتهم إلى عدّة لغات وفرّقهم في الأرض بعدما كانوا مجتمعين، فصار لسام العراق وفارس وما يلي ذلك إلى الهند، فهو بذلك أبو العرب وفارس والروم وقبط الفراعنة وأهل الحجاز وكذا جبابرة الشام؛ بينما كان لحام الجنوب ممّا يلي مصر على النيل وكذلك مغربا إلى منتهى المغرب الأقصى فهو بذلك أبو الأمازيغ وبنو كنعان وإرم وعاد، وكان من هذه الشعوب من يتكلم العربية. فيما صار ليافث ممّا يلي بحر الخزر وكذلك مشرّقا إلى جهة الصين فهو أبو الترك ويأجوج ومأجوج والإفرنج. وهكهذا كـــان

---

[1] – أو ربّما لغات عدّة، باعتبار أنّ المؤرّخين الإسلاميين ومفسّري القرآن الكريم قالوا أنّ الله علّم آدم كل اللغات، أنظر: جمال عبد الهادي محمّد مسعود، وفاء محمد رفعت جمعة، **تاريخ الأمّة المسلمة الواحدة منذ أقدم عصورها وحتّى القرن السابع قبل الهجرة في مصر والعراق**، دار الوفاء للنشر والتوزيع، المنصورة، 1991، ص ص:61-62.

[2] – وهو العصر الذي سمّاه المؤرّخون الغربيون باسم عصور ما قبل التاريخ، أو العصور الحجرية(العصر الحجري القديم، العصر الحجري الحديث، العصر الحجري النحاسي)، أنظر المرجع السابق: ص:73.

[3] – القرآن الكريم، سورة الصافات،الآية 77.

[4] – أحمد الصبّاحي عوض الله، **حياة وأخلاق الأنبياء**، دار اقرأ، بيروت، 1983، ص:69.

[5] – هذا على حسب قول من اعتبر أنّ الطوفان كان طوفانا عاما، على عكس من اعتبر أنّ الطوفان كان خاصا بقوم نوح دون بقيّة الأقوام.

[6] – شوقي أبو خليل، **أطلس القرآن، أماكن، أقوام، أعلام**، دار الفكر، دمشق، 2003، ص:24.

تعداد شعوب ولد بنو نوح الثلاثة عند تبلل الألسن حوالي اثنين وسبعين شعبا[1،2].

تعتبر إمبراطوريات الحضارات القديمة، التنظيم السياسي الأوّل في تاريخ البشرية، وهي التي تسمّى بالدول العبودية؛ ولقد ظهرت في بلاد الشرق أوّلا، في مصر، وفي وادي دجلة والفرات(مابين النهرين) مملكة سومار ومملكة أكاد ومملكة بابل؛ وفي الهند والصين في الألف الرابع والثالث والثاني ق.م، وفي النصف الأوّل من الألف الثاني ق.م في آشور. وفي ذلك الوقت تكوّنت الدولة الحثية القوية في الهضبة المركزية من آسيا الصغرى. وفي القرن الخامس عشر ق.م ظهرت على أراضي اليمن المعاصرة دولة عربية قديمة هي المملكة المعينية.

---

[1] – أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، **الكامل في التاريخ**، عبد الله القاضي (تحقيق)، ط1، المجلّد الأوّل، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987، ص ص: 54–63.

[2] – والواقع أن هذه الشعوب أو منها جاءت الحضارات القديمة، كحضارات بلاد الرافدين القديمة، كأسر السومر (3000–2340ق.م) والآكاديون(2340–2180ق.م)، البابليون(1880–1590ق.م)، والآشوريون(1880–612ق.م)، هذا بالإضافة إلى باقي الحضارات العريقة التي سوف نحاول التطرّق إلى بعضها، كمصر والصين وفارس التي عاصرت هذه الحقبة الزمنية أيضا. وكانت هذه الفترة فترة أرسل فيها الرسل وعاش فيها الأنبياء ، إذ عاش في الفترة بين ألفين وألف سنة قبل الميلاد كلّ من إبراهيم ولوط في أرض الشام، وإسحاق ويعقوب، ويوسف وموسى وداوود وسليمان ويحيى وأرسل المسيح عليه السلام بعد ذلك.

ومن ثمّة فشعوب بعض الأنبياء قد تعتبر من هذه الحضارات العريقة التي نمت وتطوّرت فيها الأنشطة الاقتصادية من الزراعة وتربية الماشية والتجارة وبعض الحرف أيضا، بل وتميّزت بنظم اجتماعية واقتصادية وسياسية كما ذكر عن مصر عزيز يوسف التي كانت في غضون 1780 ق.م، ومصر فرعون موسى التي وجدت في غضون سنة 1200 ق.م؛ والأمر نفسه بالنسبة لمملكة النبي داوود مثلا، الذي أخبرنا القرآن أنّ الله آتاه الملك وأنّه أوّل من علّم صنع الحديد، وورّث داوود سليمان، ولقد أثبتت بعض الدراسات أنّ في عصر سليمان كان استخراج النحاس والحديد والذهب، وأنّ مملكة سليمان عليه السلام كانت أكبر مصدّر للنحاس في العالم القديم ، وأنّ مملكة داوود عليه السلام التي ورّثها سليمان كانت أكبر من مملكة سليمان حين ورّثها، وأنّ القدس كانت عاصمة مملكته، وأخبرت عن وجود علاقات تجارية بين مملكته وممالك أخرى كالدولة الفينيقية وأنّ مملكته كانت تتوسّط مبادلات تجارية معتبرة، وأنّ المسجد الأقصى وقصر سليمان من أعظم الإنجازات المعمارية للملك النبي ، ثمّ إنّ مملكة سبأ والتي سوف يتمّ ذكرها لاحقا كانت في عهد نبي الله سليمان والذي كان سنة 900 قبل الميلاد.

وكانت لهذه الشعوب قوة عمل بشرية كبيرة بفضل حجم البشر الكبير نسبيا في تلك الفترات ؛ إلاّ أنّه لا يوجد عندنا معلومات أكبر عن نشاط هذه الشعوب أو على الأقل معلومات تمكّننا من قراءة نشاطها الاقتصادي، وخاصة أنّ بعضها خسف به ولذلك نحاول أن نقف فقط عند أهم المجتمعات القديمة والتي استطاع علم التاريخ أن يقدّم لنا عنها معلومات معتبرة ومبوّبة. أنظر: محمد بيومي نهران، **دراسات تاريخية من القرآن الكريم**، ج3: في بلاد الشام، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، 1988، ص ص:170–205. شوقي أبو خليل، مرجع سبق ذكره، ص:19–121. جمال عبد الهادي محمّد مسعود، وفاء محمد رفعت جمعة، مرجع سبق ذكره، ص ص:151–395.

وفي الألف الأول ق.م تكوّنت ما وراء القوقاز دولة أورارتو. وفي القرن الثامن والسابع والسادس ق.م وجدت في آسيا الوسطى دولة خوارزم القوية، وفيما بعد الدولة الكوشانية. كما ظهرت في نفس الوقت تقريبا في القسم الغربي من إيران دولة الميديين التي حلّت محلّها في القرن السادس ق.م دولة الفرس. وكذلك في القرن الثامن والسابع ق.م بدأت تتكوّن الإمبراطورية اليونانية، وفي القرن السادس ق.م بدأت تتكوّن إمبراطورية روما القديمة.

سنحاول التطرّق إلى أهم هذه الحضارات، مبوّبين إيّاها حسب القارّات.

المبحث الأول: حضارات الشرق :آسيا

تكوّنت في آسيا العصر القديم حضارات عديدة وهامّة، نحاول التطرّق إلى أهمّها فيما يلي:

1- حضارات مابين النهرين"بابل"

كنّا نود أن نتطرّق هنا إلى حضارات مابين النهرين عموما، ولكن اقتصرنا في نهاية الأمر على التطرّق إلى بابل فقط، وذلك أنّ عددا من المدن أو الدول أو المملكات أو الامبراطوريات مايزال موقعها إلى اليوم مجهولا[1] كـ "أكاد" مثلا، رغم أنّها فرضت نفسها على منطقة كاملة لما كان لها من سطو وعظمة، ثمّ هذه الأسماء التي في بدايتها كانت أسماء مدن أضحت أسماء مناطق بأكملها، شأنها شأن آشور أيضا، بالإضافة إلى أنّ هذه الامبراطوريات في هذه المنطقة، صغيرة كانت أو كبيرة، كانت عرضة للزوال السريع، فبعد أكاد السومرية " أوّل إمبراطورية عظيمة في بلاد مابين النهرين، توالت سلسلة من السلالة السومرية تلتها أوّل إمبراطورية بابلية ترعرعت في عهد الملك "حمّورابي"، ثمّ تلتها الإمبراطورية الآشورية لتبلغ في توسّعها مالم يبلغه غيرها[2]، وعلى هذا اقتصرنا على الإمبراطورية البابلية على سبيل المثال[3].

---

[1]– نظنّ أنّ هذه المدن من المدن التي خسف بها والمحكى عنها في القرآن الكريم، فالمدن المخسوف بها كما جاء في القرآن الكريم كانت مدن عريقة أيضا.

[2] – موريس كوزيه (إشراف)، **تاريخ الحضارة العام**، ط1، ج1، منشورات عويدات، بيروت، 1966، ص ص:137–138.

[3] – بالإضافة إلى هذه الأسباب، هناك سببا منهجيا أكثر قوّة يقتضيه المنهج المتّبع والمتمثّل في المنهج النسقي ذي النظرة أو المقاربة الشمولية، وهو التطرّق إلى بعض عناصر النسق على سبيل المثال وعلى حسب ضرورة الدراسة، فضلا أنّ التطرّق إلى كل عناصر النسق يستوجب إحاطة دقيقة بالتاريخ من غير إفادة هامشية عملية بائنة وظاهرة في دراستنا.

ظهرت الحضارة البابلية في العراق وحكم في ظلّها الملك المشهور "حمّورابي" بين 1768-1686 ق.م وقد عرفت هذه الحضارة ازدهارا في المجالات السياسية والاقتصادية وبدرجة أكبر في المجال القانوني والإداري الذي عرف به هذا الملك. فقانون "حمورابي" الذي يعتبر أوّل وأقدم قوانين مكتوبة عرفتها البشرية[1]، احتوى 282 مادة تدور حول العديد من المواضيع المختلفة في حياة تلك الحضارة بما فيها المواضيع الاقتصادية، ولقد ركّزت هذه القوانين بدرجة أكبر على القضاء والأمن وحقوق المحاربين ومسؤولياتهم، وكذا على عقود الزراعة والرعي واستثمار العبيد وحقوق العائلة والتجارة والبيع وأنواع الحرف، بالإضافة إلى شروط القروض[2]؛ وهي نقاط تبيّن لنا التطوّر النسبي أو بالأحرى التجسد النسبي لمفهوم الدولة أو الهيئة العامة، وسعيها إلى تنظيم النشاط الاقتصادي المتمثل بالدرجة الأولى في النشاط الزراعي، حيث كانت تسخدم وعلى نطاق واسع الأدوات المعدنية التي زادت الحرفيين اتقانا أيضا؛ وقد ورد في قوانين "حمورابي" أيضا تعداد لمختلف أنواع التخصّصات الحرفية من: صانعي الطوب، وحياكين، وحدادين، ونجارين، وبناة سفن، وبناة بيوت وغيرهم، كما سهر القانون على تنظيم النشاط المالي[3].

ومن الناحية التقنية، قاس البابليون المسافات والطرق بدقّة، ووضعوا الرسوم الهندسية للمنازل والقنوات وحتّى المدن، واجتهدو في رسم خريطة العالم أيضا، أين وضعوا بلاد الرافدين في مركز الأرض. واستعملوا الحديد وحديد النيازك في بادئ الأمر ورصّعوا الذهب وعرفوا صنع الزجاج قديما؛ أمّا فيما يخص العمران فلقد كانت مدينة بابل محيطة بأسوار ضخمة، تمتدّ على طول 18 كيلومتر تقريبا، مع حيطان مزدوجة، تتخلّلها أبراج، وأبواب ضخمة مزيّنة ومتينة، الكل يحمي ويحدّ مدينة تفوق مساحتها 300 هكتار[4].

لقد عرفت بابل علاقت تجارية مع مناطق عدّة وبعيدة، فلقد كانت لها علاقات مع مناطق الأندوس والقوقاز وآسيا الصغرى الغربية منذ أقدم العصور، وكان أيضا جماعات من التجار الأشوريين يتعاطون أعمال السمسرة للإستيراد والتصدير، وهم يديرون أشغالهم باستقلالية تامة في"الأرصفة"، وكانوا يستعملون في تجارتهم السفن التي تتسع لحمولة وزن سعته أكثر من مائتي

---

[1] – مدحت القريشي، **تطوّر الفكر الاقتصادي**، دار وائل للنشر، عمان، 2008، ص:30.

[2]– زينب صلاح الأشوح، **الاقتصاد الوضعي والاقتصاد الإسلامي، نظرة تاريخية مقارنة**، [على الخط] www.koutoubarabia.com، ص ص:26؛ مدحت القريشي، مرجع سبق ذكره، ص ص:37،36.

[3] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص ص:78،73.

[4] – موريس كوزيه (إشراف)، مرجع سبق ذكره، ص ص:174-178.

هكتولتر تجدف أو تجري بالأشرعة، وتستعمل أيضا حيونات الجر كالحمير والبغال والجمال على اليابسة، بينما كان استعمال العجلة والحصان منحصرا في الحروب فقط. كما أنّ بعض المعلومات تفيد أنّ بابل كانت تستورد العاج والحجارة الكريمة من الهند، والنحاس من قبرص وأرمينية أو آسيا الصغرى، والقصدير من القوقاز. كما أنّ بابل كانت تصدّر الحمير والقماش والأشياء المصنوعة[1].

إنّ شريعة وتنظيم "حمورابي" جعلت من مملكته شكلا نموذجيا للدولة العبودية في زمنه، فكانت السلطة العليا التشريعية والتنفيذية، القضائية والدينية كلّها في يد الملك، الذي كان يعتمد على بعض الموظفين في إدارة فروع الحكم المركزي، حيث كانوا يحكمون مختلف المقاطعات والمدن بصفة ممثّلي الملك. في حين وفي ظلّ اقتصاد مقسّم إلى ثلاث طبقات: السادة، والشعب الحر والرق، شكّل مالكو العبيد قوّة اقتصادية.

2-حضارات شبه جزيرة العرب

كانت المملكة المعينية العربية القديمة تشتمل، عدا اليمن[2]، على غربي حضر موت وساحل البحر الأحمر في شبه جزيرة العرب، تطوّرت في ظلّها العلاقات العبودية رغم المخلّفات القوية للنظام العشائري- القبلي-،. وكان العبيد بصورة رئيسية إفريقيين إثيوبيين ونوبيي السودان؛ ولقد بلغت هذه المملكة ازدهارا كبيرا، ففيها أنشئت قنوات الري والسدود الكبيرة، والقصور وغيرها من المنشآت.

أُبتلعت المملكة المعينية في القرنين السابع والسادس ق.م. من قبل الدول العربية القديمة العبودية المبكّرة التي ظهرت بعد المملكة المعينية والمعروفة باسم مملكة سبأ (950-115 ق.م)[3]، أخبر عنها القرآن في قصة سليمان، وبيّن أنّها تحكمهم امرأة ولها عرش عظيم، ليبيّن لنا مدى التقدّم والاتقان الذي توصّل إليه هذا المجتمع. كما تخبرنا أيضا كتب التاريخ عن زراعتها المتطوّرة، إذ

---

[1]- المرجع السابق، ص ص:157-158.

[2]- تمركزت في غرب الجزيرة العربية ، دولة اليمن، كان لها لغة خاصّة غير اللغة العربية المنتشرة في الجزيرة، وكانت لها ديانتها الخاصّة المرتكزة على عدّة آلهة يقوم في خدمتها عددا من كهّان في معابد، كانت هذه الأخيرة مزارات للوفاء بالنذور وتقديم القرابين والصلوات. وكانت دولة اليمن المتكوّنة من أراضي من وديان وجبال خصبة، نقطة التقاء للتجارة بعيدة المدى. اتّحدت دويلاتها الصغيرة المحلّية فيما بعد في مملكة كبيرة، عاصرت ظهور المسيحية؛ تمثّلت في الدولة الحميرية (110 ق.م-525م). أنظر: ألبرت حوراني، **تاريخ الشعوب العربية**، نبيل صلاح الدين(ترجمة)، ج1، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، القاهرة، 1997، ص:37.

[3] - شوقي أبو خليل، **أطلس القرآن، أماكن، أقوام، أعلام**، دار الفكر، دمشق، 2003، ص:147.

بضواحي مدينة مأرب، التي أصبحت عاصمة مملكة سبأ، وجد سد مأرب المشهور في العالم القديم، كان هذا السد المنشأة المركزية لمنظومة الري في جنوب شبه جزيرة العرب على مرّ قرون[1].

أمّا من حيث النشاط الاقتصادي، فعُرفت العرب لدى الشعوب القديمة بأنّهم وسطاء التجارة وحفظة لدروبها، وصابرين على مشقّتها من حلّ وترحال، بالإضافة إلى موقعهم الجغرافي الذي جعل منهم حلقة اتصال بين مماليك العالم القديم؛ فلقد شغل المعينيون والسبئيون والتدمريون - ابتداءا من النصف الثاني من القرن الأول قبل الميلاد في الشام، شمال شرق دمشق- وحتّى الحمّريون مراكز معتبرة في تجارة الشرق، منذ القرن العاشر قبل الميلاد، إذ كانوا يصلون بين الهند والعراق والحجاز واليمن ومصر والشام وحتّى أوربا، وذلك من منتجات مختلفة من تمر وزبيب وأدم وبخور وحجارة كريمة ومنسوجات من مواطنها المختلفة[2].

والواقع أنّ هذا االتمرّس للتجارة والتحكم بها من طرف العرب لم يضمحل باضمحلال الامبراطوريات والمماليك والدول، إذ انتقل التحكّم في التجارة في القرن السادس ميلادي إلى القرشيين بعدما اضمحلّت هذه المماليك في الجزيرة العربية قبيل ظهور الإسلام[3].

3- حضارة الصين القديمة

تكوّنت أول دولة عبودية في الصين في القرن الثامن عشر ق.م، أمّا ازدهار النظام العبودي في الصين فكان بين القرن الخامس والقرن الثالث ق.م، أين تكوّنت امبراطورية هائلة في الصين القديمة؛ ولقد استخدم العبيد في كلّ مكان في الإمبراطورية وفي كلّ مجال، فأخذت تظهر استثمارات واسعة خاصّة قائمة على انتشار العبيد. وأصبح عدد العبيد مقياسا لثروات وممتلكات المالكين الكبار[4].

تعتبر الإمبراطورية الصينية حضارة يصعب التطّرق إلى خصوصياتها الحضارية في هذا المقام، إذ دامت هذه الإمبراطورية أربعة آلاف سنة دون أن يطرأ أي تغيير يذكر على قوانينها، عاداتها، لغتها وحتّى طريقة لبس أهلها، قد تعتبر العزلة من بين أهم الأسباب التي ساهمت في ذاك الثبات والدوام وعدم التغيير[5].

---

[1] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص:95.

[2] – سعيد الأفغاني، **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**، دار الفكر، دمشق، 1960، ص ص:9-12.

[3] – أنظر الفصل التالي، المبحث الثاني.

[4] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص ص:93-94.

[5] – وداد يوسف كمال حسين، **العولمة بين الماضي والحاضر**، المكتبة المصرية، الاسكندرية، 2004، ص ص:35-38.

يُرجع المؤرّخون أهم أسباب النهضة الصينية إذا صحّت تسميتها كذلك إلى حاكم فيلسوف اسمه "كنفوشيوس" في القرن الخامس قبل الميلاد، ركّز في بنائه للحضارة على التربية الفردية والأخلاقية[1] فقدّروه وعبدوه بعد موته، ولعلّ هذا هو سبب عدم اضمحلال الحضارة بسقوط الامبراطوريات.

ظلّت الصين اقتصادا منتجا لأرقى المنتجات الزراعية والحرفية، وظلّت التوابل والحرير بالإضافة إلى المنسوجات الأخرى منتجات تطلبها الدول والامبراطوريات والعوالم الأخرى عبر الزمان، إلاّ أنّ الصينيين لم يتولّوا بأنفسهم التجارة بعيدة المدى، وإنّما استغلّ هذه التجارة واشتغل بها غيرُ الصينيين من العرب والمسلمين في زمن لاحق، والأوربيين من بعدهم، وحقّقوا من ورائها أرباحا وافرة؛ هذا فضلا عن رقي العمارة والبنيان، حيث يشهد على ذلك سور الصين العظيم الذي يعتبر أحد العجائب السبع، وظلّت اقتصاد–عالم بذاته حتّى القرن الثامن عشر تقريبا، حيث سيطرت على مناطق شاسعة وربطتها بمصيرها وهي كوريا، واليابان، والجزر المحيطية، والفيتنام، والتبت ومنغوليا[2].

4– حضارة الهند القديمة

وُجدت في أراضي شبه جزيرة الهند حضارة رفيعة منذ الألف الثالثة والثانية ق.م؛ وعلى تخوم الألف الأوّلى ق.م بدأت تتكوّن أول الدول العبودية من اتحاد القبائل العديدة في الهند، ترأسها

[1] – من بين ما قال: "يجب على الحكومة أن تعنى بغرس الأخلاق الطيّبة، ذلك أنّ الأخلاق إذا فسدت فسدت الأمّة معها"...."إنّ القدامى الذين أرادوا أن ينشروا أرقى الفضائل في أنحاء الإمبراطورية قد بدأوا بتنظيم ولاياتهم أحسن تنظيم، ولمّا أرادوا أن يحسنوا تنظيم ولاياتهم بدأوا بتنظيم أسرهم، ولمّا أرادوا تنظيم أسرهم بدأوا بتهذيب نفوسهم، ولمّا أرادوا أن يهذّبوا أنفسهم بدأوا بتطهير قلوبهم، ولمّا أرادوا أن يطهّروا قلوبهم عملوا أوّلا على أن يكونوا مخلصين في تفكيرهم، فبدأوا بتوسيع دائرة معارفهم إلى أبعد حدّ مستطاع، وهذا التوسّع في المعارف لا يكون إلاّ بالبحث في حقائق الأشياء، فلمّا بحثوا عن حقائق الأشياء أصبح عملهم كاملا، ولمّ كمل عملهم خلصت أفكارهم، فلمّا خلصت أفكارهم تطهّرت قلوبهم، فتهذّبت نفوسهم، ولمّا تهذّبت نفوسهم انتظمت شؤون أسرهم، ولمّا انتظمت شؤون أسرهم صلح حكم ولايتهم، ولمّا صلح حكم ولايتهم أصبحت الإمبراطورية كلّها هادئة سعيدة. "أنظر: المرجع السابق، ص ص:37–38.

[2] – فرنان برودل، مرجع سبق ذكره، ص:19.

الزعيم الحربي لأحد القبائل يدعى "راجا"، وبتراص الطبقة الارستقراطية القبلية حوله، أصبحت وظيفته وراثية مع مرور الوقت، وحوّل أجهزة إدارة القبيلة إلى حلقات في إدارة الدولة؛ وفي آن واحد، أخذ يتقوّى مركز من يسمَّون بالبرهميين أو البراهمة، وكان هؤلاء في السابق منفّذين بسطاء للطقوس الدينية ثمّ تحوّلوا إلى كهنة محترفين.

غير أنّ الدولة الاستبدادية في الهند نشأت متأخّرة وارتبطت باسمي ملكين من سلالة "ماوريا" هما "تشاندرغوبتا" و"أشوكا"، وقد تكوّنت إمبراطورية ماوريا في القرن الرابع ق.م.

كان الملك في الهند شأنه شأن الدول الأخرى في آسيا وإفريقيا مؤلَّها، فهو نائب الله على الأرض؛ وتدّعم الكهنة دائما هذه العلاقة ومن ثمّ العبادة؛ مهام كان يقوم به البرهميون قبل أن ينتشر آنذاك دين آخر جديد في الهند انتشارا واسعا هو البوذية.

وكان عمل العبيد يُستخدم في اقتصاد الملك ومن طرف أسياد العبيد، وذلك بدرجة أكبر في بناء المنشآت الاجتماعية، إذ أنّ الاستثمارات الزراعية الكبيرة لم تكن انتشرت إنتشارا واسعا في الهند، وإنّما شكّلت المشاعية الهندية الريفية شكلا للتنظيم الاقتصادي والاجتماعي عند الأحرار أو الأسياد، فكانوا يوحّدون جهودهم للإبقاء على منظومة الري واستصلاح الأراضي في الأدغال والعمل فيها. بل وكان أعضاء المشاعية الأحرار يُنتجون بأنفسهم ما يحتاجونه من أدوات ومصنوعات حرفية، وبذلك كان عمل العبيد يستخدم من حيث الأساس في الاقتصاد المنزلي، حيث كان غالبية العبيد نساء[1،2].

ظلّت الهند تعتبر اقتصادا–عالما حتّى القرن الثامن عشر تقريبا، استغلّت المحيط الهندي لخدمة أغراظها وحوّلته إلى ما يشبه البحر الداخلي ابتداء من سواحل شرق إفريقيا إلى الجزر المحيطية[3].

---

[1] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره ، ص ص:91–93.

[2] – ولحضارة الهند صفة استثنائية إذ هي لا تزال حية حتّى أيّامنا دون أن تتخلّى عن خصائصها الأساسية التي عرفت بها منذ أوائلها التاريخية، فالمغامرة الهندية تتابع و تتواصل إلى اليوم، فهي لا تعتبر مجرّد ماض سحيق أكل عليه الدهر وشرب كمصر وبابل؛ لهذه الديمومة بالطبع أسباب أو صفات أساسية تتسم بها حضارة الهند والمجتمع الهندي، ساهمت في الحفاظ على حضارته تتمثّل في: المجتمع الهندي يحبّ التقليد، الأمر الذي يسهّل انتقال العادات من السلف إلى الخلف دون تحريف أو تحويل، ثمّ إنّ هذا المجتمع يحبّ الوحدة رغم كون التعقيد والتناقض من مقوّمات أو على الأقل من خصائص المجتمع، وأخيرا إنّ المجتمع الهندي يهوى التشريع والتصنيف الأمر الذي ساعده على الحفاظ على ثقافته. أنظر: موريس كوزيه (إشراف)، ص:547.

[3] – فرنان برودل، مرجع سبق ذكره، ص:19.

5- إمبراطورية الفرس

ظهرت دولة "الميادين" منذ ألف عام قبل الميلاد، واستوطنوا في جبال إيران حيث وجدوا النحاس والحديد والرصاص والذهب والفضّة والرخام والحجارة الكريمة، وفلحوا أرض السهول وسفوح الجبال، واستخدموا العمارة ذات العمد، وكوّنوا حضارة لا يستهان بها[1].

وعلى آثار هذه الحضارة، ظهرت هناك منذ القرن السادس قبل الميلاد عبر نهر الفرات إمبراطورية عظيمة أخرى هي الإمبراطورية الساسانية، الفارسية، التي امتدّ حكمها ليشمل ما يعرف الآن باسم إيران أو بلاد فارس وآسيا الصغرى، فكانت تضمّ مجموعة من المناطق المتحضّرة ومدنا قديمة تسكنها مجموعات عرقية مختلفة يفصلها عن بعضها البعض سهوبا أو وديانا. وأصبحت أوسع المنظّمات السياسية في العالم القديم قبل الدولة الرومانية، ومن أحسنها حكما في جميع عصور التاريخ[2].

حكمت الفرس من حين لآخر أسر مستقرّة قويّة كان آخرَها "الساسانيون" الذين استمدّوا قوّتهم من دعم الشعوب الناطقة بالفارسية جنوب إيران، ولقد حاولت هذه الأسرة توفير أسس ثابتة قويّة من الوحدة والولاء بإحياء الماجوسية باعتبارها الدين القديم لإيران، الذي ينصّ أنّ العالم هو ساحة قتال–تحت مظلّة الإله الأعلى– بين الأرواح الخيّرة والشريرة، حيث ينتصر الخير في النهاية، ولكن الرجال والنساء من ذوي الفضيلة والطهر في العبادة يمكن أن يعجّلوا بالنصر لقوى الخير؛ ويعتبر الحاكم ملكا عادلا يحافظ على الانسجام بين طبقات المجتمع المختلفة.

كانت عاصمة الدولة الساسانية "أصطخر"، ثمّ نقلت بعد القرن الثالث ميلادي إلى "طيسفون" أو"المدائن"، في المنطقة الخصبة المزدحمة بالسكّان في وسط العراق التي يرويها نهر دجلة والفرات؛ أين تعايشت المجوسية والديانات السماوية الأخرى من المسيحية واليهودية في المدائن، إذ استقطبت الفلاسفة الوثنيين وعلماء الطب من اليونان أيضا[3].

وظلّت هذه الدولة أو الإمبراطورية من بين أهم الامبراطوريات على الصعيد الثقافي، الاقتصادي وكذا السياسي والحربي حتّى ظهور الإسلام.

---

[1] – وداد يوسف كمال حسين، مرجع سبق ذكره، ص:28.

[2] – المرجع السابق، ص:30.

[3] – ألبرت حوراني، مرجع سبق ذكره، ص ص:35–36.

6-مملكات ودول آسيا الوسطى

ازدهرت دول عبودية قديمة في منطقة "الأورارتو" التي تشكّل أرمينيا، إيبريا،الكولشيز، ألبانيا القديمة(غير ألبانيا الموجودة في شبه جزيرة البلقان)، الخوارزم، سوجديانا، باكتريا، كوشان، مملكة البوسيروس[1].

6-1 الأورارتو

فعلى مرتفعات أرمينيا فيما وراء القوقاز تكوّن في الألف الثاني والأوّل ق.م عدد من الدول العبودية الصغيرة، تميّزت منها دولة أورارتو التي بلغت ازدهارا كبيرا في القرنين التاسع والثامن ق.م. إذ كانت تشتمل على جزء من أراضي الجمهوريات السوفيتية سابقا فيما وراء القوقاز شمالا، ووصلت إلى حوض دجلة في الجنوب الشرقي، وقريبا من سواحل البحر المتوسط في الجنوب الغربي.

كانت المرتفعات التي تحتلّها "الأورارتو" قليلة الخصوبة، الأمر الذي جعل هذه الدولة تتمركز في وديان الأنهار التي كانت توفّر الماء اللازم للري، فاستغلت تربية الماشية المكان الرئيسي من بين نشاطاتها قبل إقامة زراعة جبلية مروية متطوّرة، أُستخدم فيها بصورة واسعة عمل العبيد والأدوات الحديدية؛ وذلك أنّه في قمّة تطوّر هذه الدولة في أواخر القرن التاسع ق.م وفي ثلاثينات القرن الثامن بعده كانت من أكبر مراكز صهر الحديد، الذي استعمل كذلك في بناء المدن والقلاع[2].

6-2 -أرمينيا

في نفس منطقة "الأورارتو" تقريبا ، تكوّنت دولة عبودية أخرى بلغت مستواها المتكامل في القرن الثامن ق.م، قام نظامها على العبيد والفلاحين والحرفيين، شيّدوا المدن الكبرى والقلاع والطرق، واستخرجوا المعادن، ومورست التجارة على نطاق واسع مع إيران وآسيا الصغرى ومصر[3].

6-3- المملكة الكوشانية

تكوّنت في آسيا الوسطى كذلك على تخوم الألف الأول ق.م. دول عبودية كخوارزم وغيرها؛ وفي القرن الأوّل ميلادي توحّدت هذه الدول في المملكة الكوشانية القوية التي نشرت سلطانها فيما بعد على الهند الشمالية وسينتسيان. وكانت المملكة الكوشانية تشمل مناطق ذات مستويات مختلفة

---

[1] – عاصم الدسوقي، **دراسات في التاريخ الاقتصادي**، دار الكتاب الجامعي، القاهرة،1981، ص:23.

[2] – المرجع السابق، ص:24.

[3] – المرجع السابق، ص:25.

من العلاقات الاجتماعية، أخذت المناطق التي كان امتلاك العبيد فيها متطوّرا تلعب تدريجيا الدور الحاسم، الأمر الذي أدّى إلى انتشار النظام العبودي في جميع أراضي المملكة [1].

6-4-إيبريا والكلوشيز

احتلّت مملكة "الكلوشيز" الساحل الشرقي من البحر الأسود، في حين تموقعت "إيبيريا" على الجزء الجبلي الأوسط فيما وراء القوقاز، وكنتيجة لحروبهما مع الرومان، أُجبرت إيبيريا على التحالف مع الرومان فيما انقسمت الكلوشيز إلى عدد من الدويلات والإمارات الموالية لهذه الإمبراطورية[2].

المبحث الثاني: حضارات إفريقيا

شهدت إفريقيا بأقاليمها الواسعة نشوء وتطوّر دول عبودية مختلفة كالتي قامت في مصر، وكوشي وقرطاج ونوميديا، غير أنّها ليست كلّها في نفس الدرجة من الأهمّية؛ نحاول أن نتطرّق لأهم هذه الدول أو الحضارات.

1-حضارة مصر القديمة

نجد من أهم الحضارات أو المجتمعات المتقدمة التي جاءت في نهاية الألف الرابعة ق.م الحضارة المصرية الفرعونية التي تعرف باسم المملكة القديمة[3]، والتي كان يحكمها فرعون الحاكم، الملك، الإله أو ابن الإله حسب عقيدتهم. وكان فرعون المقدّس عند شعبه المالك الوحيد للأراضي ومحاصيلها ومناجمها(من الذهب والنحاس) ومائها وساكنيها أيضا؛ وكان يتدخّل في كل شؤون البلاد والعباد الدينية والدنيوية. فمجتمع مصر فرعون انقسم إلى طبقتين: الطبقة الحاكمة والثانية تشمل بقية الرعية من عمال وأجراء وعبيد[4].

---

[1] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص: 94.

[2] – عاصم الدسوقي، مرجع سبق ذكره، ص:25.

[3] – مرّت الدولة أو الإمبراطورية المصرية الفرعونية بأربع مراحل متباينة، حكمت كل مرحلة عدّة أسر، تتمثّل هذه المراحل عصر الدولة القديمة(3500-2631ق.م)، تليها فترة من الفوضى، تليها الدولة الوسطى(2375-1800ق.م)، تليها فترة أخرى من الفوضى والاضطراب، تليها الدولة الحديثة(1570-110ق.م)، ثمّ تلتها فترة انقسام، ثمّ عصر أسرة ساو(663-525 ق.م). إلاّ أنّنا لم تهتم بهذه المراحل قدر اهتمامنا بالثبات النسبي للحضارة. أنظر: وداد يوسف كمال حسين، مرجع سبق ذكره، ص:14.

[4] – مدحت القريشي، مرجع سبق ذكره، ص:39.

كانت مصر مقسّمة إلى أربعين إقطاعية أومحافظة أو مديرية يحكم كلّ منها أمير تحت إمرة فرعون[1]، في حين تعتبر القرية هي الوحدة الاقتصادية والاجتماعية الأساسية[2]. وسنّ فرعون قوانين تنظيمية لتنظيم الضرائب والتجارة؛ فقد فرض النظام الفرعوني، إن صحّ تسميته كذلك، الضرائب على الشعب وعاقب وردع المتهرّب منها، كما تمّ التعامل في ظلّه بالنقود والدراهم كما جاء في سورة يوسف عليه السلام، وعرفت هذه المرحلة أيضا تطوّر الائتمان الذي عوّض إلى حدّ ما المقايضة والدفع بالصكوك و التحويلات. كما ترعرعت الزراعة في هذا العهد وأنشئت مزارع المعابد وملاّك الأراضي والمرابين، حيث استعمل فيها العبيد الذين كانوا يمثّلون فلاّحي القرية[3]، زراعة ازدادت كمالا بعد ظهور واستعمال المحاريث وخاصة على ضفاف نهر النيل من جهة والتحكّم في منظومة الري من جهة أخرى. وبذلك يمكن القول إنّ الانتاج الزراعي هو الأساس في الاقتصاد الفرعوني.

كما عرفت أيضا هذه الحضارة ببعض الصناعات كالصناعة النسيجية، وصناعة التحنيط والطبّ الذي تميّز تميّزا اعترفت به بعض ملوك الدول الأخرى في ذاك الزمن وذلك في تخصّصات مختلفة: "العيون، الرأس، الأسنان، البطن والأمراض الداخلية"[4]، وكذا صناعة التعدين بالإضافة إلى صناعات البناء التي تعتبر الأهرام رمزا بالغا في رقيّها – أحد عجائب الدنيا التي بنيت أولاها بالتقريب سنة 2800ق.م–[5]، والنحت والتخطيط كما جاء في قصّة يوسف عليه السلام أيضا، وأيضا صناعة الزجاج الذي أصبح فرعا متميّزا في الإنتاج الحرفي[6]. كما كانت للمصريين معارف في علم الفلك حيث عرفوا تقسيم السنة إلى إثني عشر شهرا من ثلاثين يوما أضافوا إليها خمسة أيّام متمّمة[7].

أمّا عن التجارة، فقد كان نشاط التجارة الداخلية ثانويا وهامشيا، إذ كان محدّد النطاق الموضوعي والمكاني والزماني، فقد كان يخص بعض المنتجات الغذائية وبعض الحيوانات الحية

---

[1] – زينب صلاح الأشوح، مرجع سبق ذكره، ص :31.

[2] – عاصم الدسوقي، مرجع سبق ذكره، ص:22.

[3] – المرجع أعلاه.

[4] – موريس كوزيه ، مرجع سبق ذكره، ص:130.

[5] – وداد يوسف كمال حسين، مرجع سبق ذكره، ص:14.

[6] – زينب صلاح الأشوح، مرجع سبق ذكره، ص ص:38–40.

[7] – موريس كوزيه، مرجع سبق ذكره، ص:129.

وبعض المصنوعات الخفيفة، ويقام بصفة دورية في أسواق أسبوعية؛ وعلى هذا يمكن القول إنّ الاقتصاد الفرعوني يعتبر اقتصادا طبيعيا يعتمد على الاكتفاء الذاتي[1].

وبالنسبة للتجارة الخارجية فكان نشاطها يتبع قوّة أو ضعف القوّة السياسية والحربية، وكان ركازها أسطولا بحريا تجاريا يضمّ على الأقل أربعين سفينة، كانت تخص منتجات كمالية للطبقات الغنية الحاكمة من فضّة وبخور وزيت وأخشاب لبناء المعابد والقصور والسفن والعاج، كما كانت تصدّر الحلي والمنتجات الكتانية والأواني والتماثيل وتستورد من سوريا والبلدان المجاورة بعض الآلات الموسيقية و الماشية[2].

2- دولة الكوشي

يعود بدأ تاريخ نشوء هذه الدولة العبودية إلى القرنين الثالث عشر والثاني عشر ق.م، إلاّ أنّ ازدهارها كان في القرن الثامن ق.م عند استقلالها عن الدولة المصرية، لتخضعها بدورها منذ سنة 725 ق.م، واتّسعت حدودها بذلك حتّى شملت المناطق الممتدة من البحر الأبيض المتوسّط إلى حدود إثيوبيا وأوغندا الحاليتين، وشكّلت هذه الدولة قوّة لا يستهان بها في وقت ازدهارها.

ازدهرت الزراعة في دولة كوشي على ضفاف النيل أيضا دون المناطق الأخرى المعروفة بقساوة ظروفها الطبيعية، آلت إلى عجز إقامة نظم ري ضخمة كتلك التي أقامتها مصر القديمة، واهتمت بتربية المواشي أيضا.

انهارت هذه الدولة في القرن الثالث ق.م إثر حروبها مع مصر، دولة آشور وخاصّة دولة روما[3].

بعد الميلاد، كان هنالك مجتمع له من سلطة منظّمة، تمثّل في مملكة إثيوبيا التي تدين المسيحية في صورتها القبطية، يعتمد على الزراعة وكذا التجارة بين المحيط الهندي والبحر المتوسّط[4].

---

[1] – مدحت القريشي، مرجع سبق ذكره، ص:38.

[2] – زينب صلاح الأشوح، مرجع سبق ذكره، ص ص:33،43.

أنظر أيضا: موريس كوزيه، مرجع سبق ذكره، ص ص:33-132.

[3] – عاصم الدسوقي، مرجع سبق ذكره، ص ص:22،23.

[4] – ألبرت حوراني، مرجع سبق ذكره، ص:37.

3- فينيقيا[1]

ومن الحضارات القديمة أيضا نجد الحضارة الفينيقية التي ظهرت في غضون الألف الأوّل قبل الميلاد، وتمركزت على ساحل البحر الأبيض المتوسّط حيث انتشرت فكانت لها مستعمرات عدة خاصة في حوض البحر الأبيض المتوسط (صقلية ، مرسيليا، مالطة....)، وتذكر الدراسات أنّ الفينيقيين برعوا في فنّ الملاحة فكان لهم باع طويل في النشاط البحري والتجاري، فاستحقوا لقب سادة التجارة في البحر الأبيض المتوسّط. وكذلك برعوا في الاكتشافات الجغرافية فاكتشفوا طريق الرجاء الصالح قبل "فاسكو دجاما" بنحو ألفي عام، كما عرفوا باستخراج مادّة حمراء من القواقع البحرية لصباغة الأنسجة أيضا وجعلوا بذلك اللون الأحمر لون الطبقة الغنية[2].

هذا وكما أنّ الفنيقيين لم يهملوا الزراعة إذ أنّهم كانوا ينتجون من الحبوب القسم الأكبر من حاجات السكان الغذائية وكانوا ينتجون أكثر من حاجاتهم من الخمر والزيت، وعرفوا أيضا بتربية الماشية واستغلالها في حاجاتهم النسيجية الصوفية خاصة، هذا واهتمّ الفينيقيون بجمع المعادن النفيسة من الذهب والفضة أيضا بل وباستخراجها أيضا، وفي الحرف اكتشفوا أو طوّروا أفضل التقنيات لصناعة أدوات الرف والجواهر والزجاجيات والمفروشات المنزلية.

وفي التجارة كان الفينيقيون تجّارا بارعون، حيث كانوا يقومون، عن طريق المدن الواقعة على شمال البحر الأبيض المتوسّط، بدور الوساطة، فكانت لها علاقات تجارية مع آسيا الصغرى حيث كانوا يستوردون منها الفضّة والرصاص، ومن قبرص النحاس، وكانوا يصدّرون الفوائض من منتجاتهم من الخمور والزيوت وغيرها، ولعبوا دور السماسرة في المواد الخام فموّنت فينيقيا الشرق بالمعادن النادرة من بينها القصدير؛ وكانت هذه التجارة تقام برّا وكذا بحرا، حيث كانت تتفوّق في تقنيات الملاحة. وكان للدولة الفينيقية علاقات تجارية مع كريت واليونان، وكان الفينيقيون ينافسون الاسكندرية في عهد الرومان[3]، الإمبراطورية والحضارة التي سنتطرّق إليها لاحقا.

---

[1] – امتدّت الإمبراطورية الفينيقية عبر سواحل البحر الأبيض المتوسّط الشرقية والجنوبية وحتّى الشمالية، ولقد شملت فلسطين وسوريا، وهذا ما طرح مشكلة تصنيف هذه الإمبراطورية في أحد القارتين، والواقع أنّ هذا لا يطرح مشكلا منهجيا في بحثنا، لأنّ العبرة في دراستنا في الهيكلة وليس في أصل الهيكلة.

[2] – زينب صلاح الأشوح، مرجع سبق ذكره، ص ص:27–30.

[3] – موريس كوزيه، مرجع سبق ذكره، ص ص:258–259.

المبحث الثالث: حضارات أوربا

عرفت أوربا امبراطوريتين عظيمتين تمثّلتا في الإمبراطورية اليونانية والإمبراطورية الرومانية.

1-اليونان

على عكس أنظمة الرق الأولى، تميّزت الدولة اليونانية إن صحّ تسميتها كذلك بهيكلتها المتميزة نسبيا مقارنة بالنظم الأولى، أي الدول الأولى الآسيوية والإفريقية. إذ كانت اليونان مهيكلة في شكل مدن- دول، أي مدن تعتبر كل مدينة في حدّ ذاتها دولة. كانت المدينة- دولة تمثّل مدينة محاطة بالأسوار قد تصل مساحتها إلى8400 كيلومترا مربّعا- مساحة أكبر دولة-مدينة يونانية أسبرطة-[1]، وتضمّ أيضا هذه المدينة-دولة تحت سيادتها السكان الذين يحيطون بها، وفي حالة الحروب يحتمي الجميع بحصون المدينة من وراء أسوارها، وفي الأعياد أيضا يقيمون فيها حفلاتهم، ويجرون انتخاباتهم فيها أيضا.

عرفت اليونان نوعين من هذه المدن من حيث التنظيم السياسي، إذ كانت السلطة في أولاهما لملاّك العبيد وتعتبر "أثينا" نموذجا لهذا النوع، في حين أنّ سلطة النوع الثاني كانت بين أيدي الطبقة الأرستقراطية، وعلى أساس اعتبار ملكية الأرض شرطا للتمتع بالحقوق المدنية الكاملة، وتقدّم لنا "أسبرطة" النموذج المثالي لهذا النوع من المدن[2].

من خلال قرون عدّة من التطوّرت والتحوّلات والاضطرابات والحروب، فضلا عن نضالات الشعب ضد الأرستقراطيين مالكي العبيد؛ تبلور التشكّل النهائي للمدينة -دولة اليونانية في القرنين السادس والخامس قبل الميلاد في أثينا، حيث استغنت عن التقسيم العشائري لصالح التقسيم الإقليمي، فأُسّست ثلاثون مقاطعة، كل ثلاث مقاطعات كوّنت "فيلا"، كانت تنقسم بدورها إلى "ديمات" وحدات إدارية إقليمية أوّلية؛ يحكم الكلَّ نظام ديمقراطي منتخب حسب آليات محدّدة.

وُحّدت اليونان – من دون أسبرطة- في غضون القرن الثالث قبل الميلاد بقيادة "الاسكندر المقدوني" الذي وسّع دولته توسيعا لم يسبق له مثيل من قبل، جاعلا من بابل عاصمة لدولته الكبيرة بعدما استولى على آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين وبلاد الفينيقيين ومصر وبلاد مابين النهرين وبلاد الفرس- بعد معارك وحروب طاحنة- وقِسم من آسيا الوسطى وقِسم من الهند. وبموته انقسمت الدولة إلى عدد من الدول الكبيرة والصغيرة.

---

[1] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص ص:107-141.

[2] – عاصم الدسوقي، مرجع سبق ذكره، ص:25.

شهدت الإمبراطورية تحرّكا فلسفيا وفكريا وعلميا معتبرا، ففي ظلّها شملت الفلسفة في بداية الأمر جميع ميادين الحياة من علم الفلك إلى الطب. وفي الوقت نفسه كانت لأولئك الفلاسفة نظرة مادية للطبيعة، وأخذت العلوم المختلفة تتفرع وتنفصل نهائيا عن الفلسفة، وحققت بذلك اكتشافات علمية معتبرة؛ ففي ظل هذه الإمبراطورية وإلى جانب الفلسفة السقراطية والأفلاطونية وفلسفة "أرسطو" ظهرت جملة من الفرضيات العلمية في مجال علم الجغرافيا والفلك، وخصوصا الفرضيات المتضمّنة تصورات كروية للأرض والأجرام السماوية أيضا. وأنشئ التقويم الشمسي وحدّدت فيه السنة بـ 365يوم و19/5 من اليوم. وتمّ حساب محيط الكرة الأرضية بـ39700 كيلومتر؛ ووضعت نظرية النظام الشمسي المركزي القائلة بأنّ الأجرام السماوية تدور كلّها حول الشمس. وفي الفيزياء أيضا، تمّ التكلم عن الذرة كأصغر جزء مكوّن للمادة كما وضعت قوانين "أرخميدس"، وتمّ الاهتمام بالرياضيات إذ وضعت قوانين إقليدس الهندسية[1].

2-روما القديمة

يوجد هناك تشابه في تكون دول العبودية الأوربية: اليونان وروما، فلقد كان الرومان يعيشون في عهد القياصرة في شكل300 "عشيرة"، تُشكّل العشرة منها "كورية"، وتشكّل الكوريات "قبائل"، قبائل كوّنت في اتحادها الشعب الروماني، وكان يتزعم هذا الاتحاد القبائلي القيصر الذي ينتخب في جمعيات شعبية تسمّى "كوميسات"، ويمثّل مع مجلس الكبار أو مجلس الشيوخ السلطة العليا.

وبنضال الشعوب التي لا تنتمي إلى هذا الاتحاد والتي أخضعت بالقوة، تحوّلت التقسيمات العشائرية إلى تقسيمات إقليمية ساعدت طبقة الأغنياء في إدماج المناطق التي أخضعت بالقوة. وكانت هذه الاضطرابات وراء مرور روما بمراحل عديدة من حيث التنظيم الإداري، أو بالأحرى من حيث الشكل القانوني لدولة روما، فقد انتقلت من عهد "القياصرة" إلى عهد "الجمهورية"، ثمّ إلى عهد "الإمبراطورية" في النصف الثاني من القرن الأوّل نتيجة الصراع الطبقي بين العبيد وأسياد العبيد[2].

منذ أواخر النصف الأول من القرن الثالث ق.م، بدأت صراعات روما مع الدول القريبة، وبدأت مع أكبر دولة عبودية في شمال إفريقيا" قرطاجة"، انتهت بتدمير قرطاجة في سنة146 ق.م، وإقامة سيطرة روما على القسم الغربي من البحر الأبيض المتوسّط، وتمّ فتح شبه جزيرة البلقان،

[1] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص ص: 107-141.

[2] – وصل هذا الصراع في بعض الأحيان إلى حروب أهلية لعلّ أهما تلك التي كانت تحت قيادة المحارب الأسطوري سبارتاكوس في السبعينات قبل الميلاد.

وبسط النفوذ على شرق البحر الأبيض المتوسّط وعلى آسيا الصغرى، وعلى إسبانيا وعلى أراضي بلجيكا .....وتحوّلت هذه المناطق إلى ولايات رومانية مموِّلة عشرات الآلاف من العبيد الذين تزايد وزن عملهم النسبي في دولة روما العبودية. وأصبحت روما بذلك في قمّة توسّعها وازدهارها في القرن الثاني تقريبا[1].

لقد بلغ انتشار العبيد في القرن الثاني قبل الميلاد نقطة التحوّل في تطوّر نمط الانتاج الاجتماعي العبودي، إذ أدّى إلى إزاحة العمل الحر وظهور أسواق عديدة للعبيد؛ ولمّا كانت إيطاليا بلدا زراعيا فإنّ العملية الجديدة أخذت تتجلّى في الزراعة بقوّة، وأدّى استخدام عمل العبيد على نطاق واسع في الزراعة إلى تكوين الاستثمارات الزراعية الكبيرة التي تخصّص محاصيلها للبيع. وكان أصحاب الاستثمارات الكبيرة يحرقون ويخرّبون استثمارات الفلاحين الصغيرة والمتوسطة لتحويلهم إلى أجراء، وكان هذا التحوّل سببا مهمّا في انهيار النظام العبودي في الإمبراطورية أمام تضاؤل إنتاجية العبيد المتعمّدة، ساعده تحوّل بعض الفلاحين الصغار إلى حرفيين في المدن، وأخذ العبيد يمتهنون الحرف أيضا[2].

سادت التجارة الخارجية على التجارة الداخلية في روما، حيث كانت تستورد من "الأقاليم" العديدة، أي المناطق المستعبدة والبلدان التابعة لروما، المنتوجات الزراعية وكذلك مواد الترف، وتصدر المصنوعات المعدنية والخمور وزيت الزيتون.

إن استيراد البضائع كان يفوق التصدير، غير أنّ النقص في التصدير كان يعوّض بالنهب المباشر للأراضي المفتوحة، وعلى الأخص بتدفّق المبالغ النقدية الكبرى، وقد أنشأت دولة روما باستيلائها على مناجم الفضة مصادر دائمة لصك العملة[3].

أدى نمو التجارة والتداول النقدي إلى تطوّر الرأسمال النقدي، وظهور الشركات المالية المقرضة بالفائدة الربوية، وإلى انتشار مكاتب الصرافة. وأخذ المتعاملون في المال يتميزون وكوّنوا طبقة جديدة في المجتمع الروماني تسمّى الفرسان.

---

[1] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص:156.

[2] – عاصم الدسوقي، مرجع سبق ذكره، ص ص:28–30.

[3] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص:156.

عرفت روما أزمات اجتماعية وسياسية أدّت إلى انقسام امبراطورية روما إلى امبراطورية غربية وشرقية سنة 395، عُرفت الإمبراطورية الشرقية بالإمبراطورية البيزنطية[1] التي دامت حتّى القرن الخامس عشر[2].

فيما تكررت غارات القبائل المجاورة على أراضي امبراطورية روما الغربية المتأخّرة التي أصبحت مدمّرة في نهاية القرن الثاني؛ فقد شنّتّ اتحادات القبائل الجرمانية، وكذلك اتحادات قبائل الغوطيين والداليين والسارماتيين والسلافيين حروبا جعلت من امبراطورية روما الغربية تتقلّص باستمرار، ففي أواسط القرن الخامس لم يبق من رقعة امبراطورية روما سوى إيطاليا وجزء من بلاد الغال، حتّى أنّ عاصمة روما انتقلت سنة 410 إلى شمال إيطاليا مدينة "رافينا"، ثمّ السقوط النهائي لامبراطورية روما الغربية سنة476[3]، الأمر الذي سجل في الوقت نفسه انهيار النظام العبودي ككل.

هذا وظهرت المسيحية في أواسط القرن الأول الميلادي في الولايات الشرقية من امبراطورية روما، ووصلت إلى اليونان في منتصف القرن الثاني. وكان لانتشار عقيدتها التي تربط الدنيا بالآخرة الأثر البالغ في الوسط الاجتماعي، وبالخصوص في الأوساط المزدرية ماديا التي زاد انجذابها بسبب عدم اعتراف وعاظ المسيحية بالفروق السلالية والاجتماعية؛ فسادت البساطة في العلاقات الاجتماعية والعدالة، قبل اعتناق أصحاب النفوذ الأغنياء المسيحية، فاستعملوا ثراءهم للحصول على مكانة تليق بهم في الوسط الديني.

المبحث الرابع: حضارات ومجتمعات العالم الآخر، العالم المنعزل:أمريكا

لقد عاشت في أمريكا مجتمعات عدّة بلغت مراحل مختلفة ومتباينة من التطوّر، ليس في المجال التقني فحسب وإنّما التمدّني والحضاري أيضا، وهذا بسبب العزلة التي كانت تعيشها هذه الدول إزاء باقي العالم من جهة، وأيضا بسبب العزلة التي كانت تعيشها هذه المجتمعات إزاء بعضها البعض من جهة أخرى، بسبب عدم تطوّر وسائل النقل التقنية وعدم استعمال وسائل النقل الحيوانية أيضا[4].

---

[1] – نسبة إلى الاسم السابق للقسطنطينية، عاصمة روما الغربية، التي كانت تسمّى بيزنطة.

[2] – المرجع أعلاه.

[3] – عاصم الدسوقي، مرجع سبق ذكره، ص :30.

[4] – الملاحظ أنّ هذه المجتمعات التي سوف نتطرّق إليها أقلّ تطوّرا نسبيا، وهذا حسب رأينا ناتج بالدرجة الأولى عن عزلتهم عن باقي العالم والتي فوّتت عليهم الاستفادة بفعل عامل الاحتكاك من تطوّرات تقنية، وأيضا أخلاقية نتيجة عدم وصول أخبار

1-المجتمعات البدائية

نجد "الألغونكيين"في أسفل مستويات سلّم التطوّر، شعوب لم تكن تتعاطى سوى الصيد والقنص، وهي مجتمعات بدائية، استعملت الأدوات البدائية، وحدتهم الاجتماعية الأساسية هي الزمرة المؤلّفة من عدّة عائلات تنتقل مجتمعة من مكان لآخر تحت قيادة رئيس الزمرة.

كما نجد شعوب "التوبي غواراني" التي سكنت في فينيزويلا على الشاطئ الشرقي من أمريكا، بين مصب "الأمزون" ومصب "ريودوه لابلاتا". كان مجتمعا يعيش بالإضافة إلى القنص والصيد على الزراعة بالدرجة الأولى، إذ عرفوا الزراعة المتنقّلة فوفّرت لهم تغذيتهم الأساسية، إذ زرعوا المنهيوت والذرة الصفراء والفاصولياء والفول السوداني والفلفل والتبغ وقصب السكّر كما زرعوا الأشجار المثمرة.

لم تتحكّم هذه الشعوب في تقنيات النقل عدا الزوارق التي صنعوها من قشور الأشجار، فلم تكن لهم حيوانات للركوب ولا للجر ولا حتّى للتغذية أيضا، كما أنّهم جهلوا المعادن غير الذهب.

أمّا مجتمع "الإيروكيون" الذي استقرّ في أمريكا الشمالية وكندا، فقد برع في زراعة الذرة الصفراء والفاصوليا والجلبان والبطيخ الأصفر في حقول واسعة تبلغ مساحاتها ثلاث أو أربع كيلومترات مربّعة، إذ كان ينتج في السنة من الذرّة ما يكفي لثلاث أو أربع سنوات، فائضا يباع، ويشترى بأثمانه الزوارق من "الألغونكيين" والأصداف الصغيرة المستخدمة نقودا من طرف قبائل الشواطئ. وكان يعرف راحة الأرض ويستخدمها، إذ يعتمد دورية الإنتاج ويستعمل الأراضي حوالي 12 سنة حتى تعجز عن الإنتاج[1].

2- مجتمع المايا

نشأت بعد الميلاد قبائل المايا في شبه جزيرة "يوكاتان" أين كانت مهيكلة على شكل كتلة من المدن-دول، استمرّت في العيش منعزلة عن بعضها البعض، غير تاركة مجالا لتكوّن دولة إقليمية بسبب عدم التحكّم في المجال المكاني.

الرسالات السماوية إليهم أو على الأقل بعض الرسالات التي أرسلت وهم في أمريكا، إذ أنّ الدراسات تقول أنّ أصل هذه الشعوب يعود إلى سلالة المغول والهنود الآسياويين.

والحال الموصوف هنا في واقع الأمر، هو حال هذه المجتمعات حين اكتُشفت أمريكا في القرن الخامس عشر.

[1] – موريس كوزيه، مرجع سبق ذكره، ص ص:440-455.

إنّ كل دولة للمايا كانت تتألّف من مدينة في مساحة قابلة للإصلاح الزراعي محيطة بها، نجد في مركز المدينة الساحات العامة، حولها المعابد والأهرام والقصور ، تليها منازل الأغنياء، وتأتي أخيرا بيوت ومنازل مشتّتة في الضاحية، تتخلّل المدينة طرق مرصوفة بالحجارة، ملبّسة بطين كلسي، في حين لم تكن هناك شوارع فيها؛ وصف يجعل هذه المدن من الطراز الإغريقي.

كانت مدن المايا مدنا متنقّلة تقريبا كل خمس سنوات بحثا عن أراض أكثر ملاءمة للزراعة، وكانت هذه المدن تأوي من 50000 إلى 200000 نسمة، في حين بلغ عدد سكان مجتمع المايا 15 مليون نسمة[1]. يرأس كل دولة حاكم يحوز على السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية والدينية، يقربه الكهنة والقادة العسكريون؛ كما كان امتلاك العبيد قد بلغ مرحلة متطوّرة. وكان التجّار يشكّلون طبقة ذات أهمّية في المجتمع، يحيون تجارة داخل المجتمع ومع المجتمعات المجاورة مستعملين حبوب الكاكاو وسيلة للمبادلة[2].

وكانت الزراعة أساس الحياة الاقتصادية في مجتمع المايا؛ وكانوا يستصلحون الأراضي بعد قطع أشجار الغابات الكثيفة، ويزرعونها ذرة، فواكه، فول، قطن وكاكاو. فلقد كان سكان مجتمع المايا مزارعين ماهرين، استطاعوا استنبات مختلف أنواع الذرة الصفراء[3].

احتوى هذا المجتمع أيضا على حرفيين اختصاصيين ماهرين في الحياكة والصياغة وصنع الأسلحة والنحت في الحجر، والنقش في العظم والخشب والحجر، وعلى مهرة في صنع الحلي من الريش...ونظرا للنقص الحاد في المعادن، استخدموا الزجاج البركاني لصنع الآنية وأدوات العمل وكذلك لصنع الأسلحة، وهو زجاج طبيعي يتميّز بصلابة كبيرة[4].

كما عرف هذا المجتمع ميلاد أجنّة علوم الرياضيات وعلم الفلك والتاريخ؛ وأوجدت قبائل المايا النظام العشريني للحساب واخترعت علامة تدلّ على الصفر. وكانت السنة في تقويم المايا تحسب بمنتهى الدقّة حتّى الدقائق[5]. واخترع شعب المايا الكتابة الهيروغليفية وطبّقها تطبيقا واسعا،

---

[1] – المرجع السابق، ص:456.

[2] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص:100.

[3] – يغلب على الظن أنّ المايا هم من جعلوا هذه النبتة زراعية بطريقة الـ"الملبا" ثمّ انتقلت إلى باقي شعوب أمريكا، وزرعوا ثلاث أنواع من الذرّة الصفراء منها من تنضج خلال شهرين ونصف، وآخر بعد اربع أشهر، وثالث بعد ستّة أشهر؛ وكانوا ينتجون الكفاف السنوي خلال ثمانية وأربعين يوما، والباقي يخصّص للكهنة والمحاربين المعفيين من الأعمال اليدوية.....أنظر: موريس كوزيه، مرجع سبق ذكره، ص:457.

[4] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص:156.

[5] – أنظر: موريس كوزيه، مرجع سبق ذكره، ص ص:456،454.

وكان يشيّد في كلّ هاتون– فترة زمنية معيّنة في تقويم المايا تعادل في أغلب الظن عشريتين – عمودا من حجر تحفر عليه كتابات تدلّ على أهم الأحداث التي جرت في غضون الهاتون المنصرم – وكانت عند المايا كتب معمولة من ملفّات طويلة من ورق خاص مطوية طيّات متعاكسة. ولقد هلكت آلاف من هذه الكتب في الحريق الذي نظّمه الراهب الإسباني "دي لاندا"[1].

3– دولة الأستيكيين

أسّست قبيلة "التينوشكين" أو "الأستيكين" دولتها في شمال "يوكاتان" على هضاب المكسيك، وتحصّن التينوشكيون في الجزر المنيعة في بحيرة "تيكسوسو" الجبلية، وفرضوا بالقوّة على القبائل التي تربطهم بها رابطة اتحادا مكوّنين نواة دولة.

في الوقت الذي ظهر فيه الإسبانيون، كانت تتم عملية تحوّل الاتّحاد القبلي إلى دولة عبودية استبدادية؛ وقد انتقل الأستيكيون إلى وادي المكسيك في وقت متأخّر نسبيا، ولذلك استوعبوا منجزات الحضارة الغنية عند شعوب أخرى في المكسيك هي شعوب "الأولميك"، و"التولتيك"، و"الميشتيك" وتمكّنوا في فترة وجيزة من إنجاز حضارتهم الرفيعة.

كان على رأس الدولة حاكم بين يديه كل السلطة، ويعتمد على جهاز دولة واسع الفروع، وعلى الجيش والكهنة. وكان "الأستيكيون" يخوضون الحروب المستمرة مستولين بذلك على عدد كبير من الأسرى، منهم من يقدّم قربانا للألهة ومنهم من يُجبر على أكثر الأعمال إنهاكا لصالح الدولة، يسدُّ بمنتجاته حاجات الجيش، ويُسدِ خدمة للحاكم والكهنة والأرستقراطيين.

تعتبر الزراعة الأساس الذي تقوم عليه حضارة "الأستيكيين" على الرغم من افتقارهم للمساحات الزراعية الشاسعة، فلقد أنشؤوا في البحيرة جزرا اصطناعية استغلّوها في البساتين والمزارع، عُرفوا بانتاج الكاكاو والمطاط والبندورة والذرة الصفراء. في حين أنّهم لم يُعرفوا كثيرا بتربية الحيوانات الأليفة. كما بلغت الحرفة عندهم مستوى رفيعا، فقد كان الصياغ وصانعو الأسلحة والبناءون والمعدنون–مناجم النحاس– وصانعو الفخار ماهرين للغاية في عملهم.

وكانت عند "الأستيكيين" تجارة متطوّرة بما في ذلك التجارة الخارجية، وكانت تقوم بدور النقد محاور من ريش الطيور محدودة المقاييس ومملوءة بدقيق الذهب.

[1] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص ص:98–100.

إنّ فن "الأستيكيين"، لاسيما فن المعمار والنحت والآثار الأدبية المكتوبة بالخط التصويري وإبداعات الرسم، قد انقرضت بصورة تامة تقريبا نتيجة للتدمير البربري الذي أنزلته كتائب "كورتيز" بعاصمة الأزتيكيين "تينوتشتيلان"[1]؛ ولكن القليل الذي بقي يشهد على المستوى الرفيع الذي بلغته هذه الحضارة، كما أنشؤوا كتاباتهم التصويرية وكانوا يستخدمون لكتابة الكلمات المنفردة العلامات الهيروغليفية[2].

4-دولة تاونتينسويو أو الإنكا

إنّ أوسع دولة عبودية في أمريكا كانت "تاونتينسويو"، أو "الإنكا" أو "الإنكيين"، ولقد كانت هذه الدولة تشمل تقريبا جميع أراضي البيرو والإكوادور المعاصرتين، وعلى قسم كبير من بوليفيا والأرجنتين والتشيلي، كانت تحتل مركز السيادة قبيلة "الأنكيين" الذين اعتبروا أنفسهم من سلالة الشمس والقمر، كان يرأسهم حاكم مطلق يحمل لقب "سابّا إنكا" الذي معناه "إنكا الحاكم الوحيد". وكانو يخضعون باقي القبائل بالقوّة ويستعبدونهم.

وعند دخول الإسبان كانت الإمبراطورية مقسّمة إلى أربع "حكومات"، وتضم كل حكومة مقاطعات قسّمت بدورها إلى "إيلوات".

كانت المشاعية هي الخلية الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع، فالمشاعيون والعبيد مستغلّون مقابل ترف ورخاء الإنكا والكهنة والارستقراطيين من القبائل الأصلية التي انتقلت إلى جانب

---

[1] – وصف لنا "كورتيز"مدينة ميكسيكو:"إن مدينة ميكسيكو هذه مبنية في مستنقع المياه المالحة بحيث تكون المسافة بين أي من أطرافها وقلب المدينة ثمانية كيلومترات، لها أربع مداخل تؤدّي إليها سدود صنعية يبلغ عرضها طول رمحين من رماح الفرسان. مساحتها تعادل مساحة إشبيلية وقرطبة معا، شوارعها مستقيمة وعريضة جدّا، وقد قسّم بعضها بحيث يكون نصفها طريقا والنصف الآخر قناة تعبرها الزوارق ذهابا وإيابا، وقد حفرت بين مسافة وأخرى خنادق تصل أقنية الشوارع المختلفة بعضها ببعض. وأنشئت فوق هذه الخنادق الواسعة جدّا أحيانا جسور مبنية بعوارض خشبية محكمة الجمع متقنة الصنع، ويتّسع بعض هذه الجسور لعشرة فرسان يسيرون جنبا إلى جنب، وقد وسّعت أرض المدينة الضيّقة بالحدائق العائمة المشهورة المكوّنة من إطار من حصير وضعت بداخله، فوق طوف من الأعشاب والخيزران، طبقة ترابية لزراعة النباتات، وقامت في الشوارع الضيّقة الكثيرة ساحات عامّة تظلّها الأشجار، تقام فيها الأسواق. استوحي تصميم المدينة العام من الشمس والجهات الأربع، اجتاز المدينة شارعان كبيران يؤلّفان زاوية مستقيمة عند تقاطعهما في وسط المدينة. وامتدّت في هذا المكان ساحة عامة واسعة تضم المعبد الكبير والأبنية البلدية، وكانت البيوت قليلة الارتفاع مبنية من حجر أحيانا ومن قصب غالبا، لم تشتمل البيوت إلاّ على قاعدة واحدة مع طبقة تحت السقف؛ وكانت المعابد كثيرة جدّا وقد استخدمت في الوقت نفسه كحصون للدفاع، وكانت أهراما ذات سطوح مع خنادق وسدود.

أنظر: موريس كوزيه، مرجع سبق ذكره، ص ص:463،462.

[2] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص ص:100-102.

الأنكيين، وكان هناك صراع طبقي قد يكون مكوّنا لأول العبيد، 6000 هندي عقابا على انتفاضتهم على الإنكا.

لقد بلغت هذه الحضارة ازدهارا نسبيا خاصّة في مستواها المادي؛ فكانت الزراعة المروية أساس حضارة الأنكيين، فقد بنيت الأقنية العديدة، وبفضل أيدي الكادحين الماهرين تحوّلت المنحدرات الجبلية إلى شرفات واسعة كانت تروى بطريقة اصطناعية. وثمّة معلومات تدل على أنّ سكان "تتاوانتينسويو" كانوا يسقون المراعي كذلك. وقد استنبت الأنكيون عشرات الأنواع من النباتات: الذرة البيضاء، والذرة الصفراء، ومختلف أنواع البطاطا، والفلفل، والنباتات العلاجية، وكانت الحقول تسمّد بسماد من ذرق الطيور المتراكم على الجزر.

وخلافا عن المناطق الأخرى في أمريكا، كانت تربية المواشي في دولة الأنكيين متطوّرة بصورة واسعة نسبيا، فكانت تربى اللاما وغيرها من أنواع الحيوانات القريبة منها، ودجنت كذلك بعض أنواع الطيور.

وبما أن "الأنكيين" كانوا يملكون عددا كبيرا من اللاما أو الجمال الأمريكية التي كانت تحمل حتّى 40 كيلوغراما وتقطع مابين 15 و20 كيلومتر يوميا[1]، فإنّهم استخدموها في نقل الأحمال، فشقّوا لذلك شبكة طرقات، طريقين من الشمال إلى الجنوب يحادي أحدهما الشاطئ يتراوح عرضه من أربعة إلى خمسة أمتار، تحيط به جدران وأشجار مثمرة وقنوات ماء، وتمر الثانية في الجبال المرتفعة وهي أضيق من الأولى إذ هي غالبا ما لا تتجاوز المتر الواحد عرضا، ولكنّها جهّزت بالسلالم في أوعر المنحدرات، ورصّفت أحيانا بحجارة مسطّحة؛ وشقّت طرق أخرى تصل المدن بالشواطئ والمدن ببعضها البعض، كما أقيمت على هذه الطرق مراكز تخزين المواد الغذائية لتموين المسافرين[2].

وأنشئت فوق الأنهار والأودية جسور كبرى معلّقة، قوامها خمسة حبال ضخمة متوازية قطر الواحد منها 40 سنتمتر، وحبال أخرى معترضة، تعلوها كلّها أغصان الأشجار.

ولقد ساهمت هذه الطرق في إرساء علاقات تجارية بين مختلق مناطق الإمبراطورية المتوزعة بين الشواطئ وسفوح الجبال من جهة، وبين مناطق حارة ومناطق معتدلة وأخرى باردة من جهة أخرى.

---

[1] – موريس كوزيه، مرجع سبق ذكره، ص: 470.

[2] – وكان أيضا على الطرق مراكز عدّائين تتيح نقل الخبر على مسافة 240 كيلومتر في غضون ثلاثة أيّام في الوقت الذي كان يقضي يستغرق البريد الاسباني 13 يوما على الأحصنة في سنة 1650. أنظر المرجع السابق، ص: 471.

ورغم أنّ "الأنكيين" شأنهم شأن الشعوب الأمريكية الأخرى لم يكونوا على علم بالعجلة، رغم أنّهم كانوا يعرفون التصوير الهندسي للدائرة؛ إلاّ أنّهم بلغوا درجة كبيرة من الإتقان في مهنهم، لاسيما في الحياكة والبناء وفي صناعة الفخار والمعادن.

فلقد كانت مباني الأنكيين تتميّز بمناعة غير عادية، إذ استطاعوا صهر الذهب والرصاص والقصدير والنحاس، وتفيد المعطيات غير المباشرة أنّهم كانوا قد تمكّنوا من تكييف حديد النيازك واقتربوا من استخدام الفِلِزّات الحديدية. وكانت تتخلّل أراضي الدولة الهائلة بأسرها الطرق الواسعة التي يتراوح عرضها من خمس إلى ستّ أمتار. وكانت القصور والمعابد المبنية من طرف المشاعيين والعبيد مزيّنة بالذهب والأحجار الكريمة.

كما عرف "الأنكيون" الجسور التي غالبا ما كانت معلّقة، والتي كانت تعبر الأنهار والهوات العديدة، وكان النقل المائي من أهمّ وسائل النقل. وكان الهنود يقطعون الأنهار والبحيرات على ما صنعته أيديهم بصورة فنّية من قوارب شراعية وقوارب تجذيف وعوامات خاصة لهذا الغرض. وهناك ما يدعو للتفكير بأنّ الملاحين الأنكيين كانوا قد بلغوا أمريكا الوسطى والمكسيك. رحلات كانت لها في الغالب أهداف تجارية، غير أنّ التجارة الخارجية منها والداخلية، كانت ضعيفة التطوّر، وكانت تغلب عليها المقايضة، وظهر في الوقت نفسه المعادل النقدي بشكل أصداف بحرية من نوع خاص.

وكان عند "الأنكيين" كما عند "مايا" الخط الهيروفيلي، والذي كان مقتصرا عند الملك وأعوانه وعند الكهنة أيضا. ومن أجل نقل البلاغات وإجراء العمليات الحسابية استخدمت مايسمّى بخط العقد–كيبو–. كذلك تطوّر الإبداع الأدبي الشفهي وفن الرقص والموسيقى والنحت وانتشرت التمثيليات المسرحية انتشارا واسعا. أمّا فيما يخصّ التقويم؛ فالسنة عند "الأنكيين" تعدّ 365 يوما وتنقسم إلى اثني عشر شهرا، ويبدأ الاستقبال الشمسي في ديسمبر، وكان الشهر ينقسم إلى أربعة أسابيع[1].

[1] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص ص: 103–106.

خلاصة: قراءة في النسق العالمي للعصر القديم

يمكن أن نستخلص الملاحظات الآتية حول هذه المرحلة من مراحل تطوّر النسق العالمي:

- كان اتحاد القبائل هي المرحلة التمهيدية لظهور هذه الهياكل المتمثّلة في المجتمعات، أو الحضارات أو الدول، ويمكن اعتبار هذه الاتحادات الأشكال الأولى لهذه الدول، ولقد اجتازت هذه المرحلة كل الدول المعروفة تقريبا؛ ورغم اعتبار هذه الدول كلّها دولا عبودية إلاّ أنّ أشكالها لم تكن متماثلة، اختلاف ناتج عن اختلاف الظروف التاريخية، والاقتصادية والجغرافية أيضا.
- إنّ التطرق لفكرة الاتحاد يعني بالضرورة وجود ضدّه أو نقيضه، الأمر الذي يجرّنا إلى التكلّم عن الحروب، والظاهر أنّ هذه الحروب كانت في الغالب بين القبائل، أو بين الدول الكبرى والقبائل بغرض التوسع والإخضاع ولم تكن بدرجة كبيرة بين هذه الدول العبودية الكبرى في بادئ الأمر، وذلك لعدم التحكّم الكامل في المجال المكاني، إذ قلّما كانت هذه الدول تحادي بعضها البعض؛ إلاّ أنّه تكوّنت دولا في نهاية المطاف تحكّمت في المجال المكاني، وتنافست على المجال المكاني فتحاربت بينها، ربّما تمثّل لنا فارس والروم خير مثال.
- استتب الأمر لهذا التنظيم أوّلا في كلّ من الهند والصين والعراق ومصر، فيما بين القرنين الرابع والثاني قبل الميلاد، ثمّ انتقلت منها، مع بقية مؤثّرات الحضارات الأخرى، إلى أوروبا والغرب عموما. وتملّك هذا التنظيم زمام الأمر، في اليونان فيما بين القرنين الخامس والرابع قبل الميلاد، ثمّ بلغ ذروته في روما فيما بين القرنين الثاني قبل الميلاد والثاني بعد الميلاد[1]. وفي أراضي أمريكا الوسطى والجنوبية تكوّنت دول قبل مجيء الإسبان بقرن ونصف أو قرنين تقريبا، عدا المدن–دول عند شعب مايا التي ظهرت على ما يبدو قبل ذلك بكثير[2].
- لم نتطرّق لكلّ الدول التي كانت، وإنّما حاولنا التطرّق لأكبرها وأشهرها في ظلّ المعلومات المتاحة لدينا، والقول بهيكلة النسق العالمي في هذا الشكل من التنظيم– حضارات أو امبراطوريات– لا ينفي وجود عناصر أخرى في النسق كالقبائل مثلا، وبالتالي لا يمكن الجزم بوحدوية وتجانس هيكلة النسق العالمي في هذه الفترة[3]. ولكن بالرغم من ذلك يمكن أن نلخّص هيكلة المجال العالمي في الشكل الموالي:

---

[1] –إسماعيل محمد هاشم، **محاضرات في التطوّر الاقتصادي**، دار النهضة العربية، بيروت، 1978، ص:24.

[2]– جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سيق ذكره، ص ص:73،72.

[3] – والواقع أنّ هذه ميزة من ميزات النسق العالمي الثابتة كما سنتأكّد من ذلك عبر المراحل اللاحقة .

الشكل رقم6:هيكلة المجال العالمي في العصر القديم

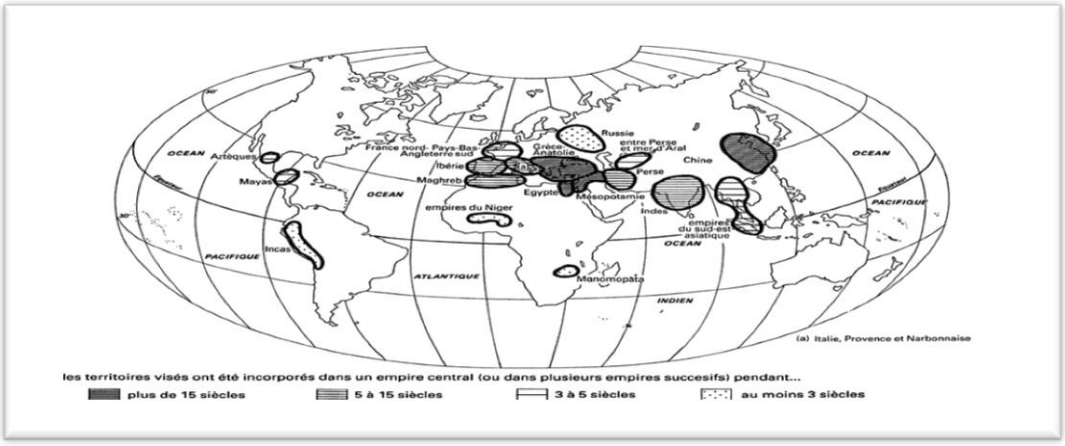

المصدر : Robert Fossaert, Le monde au 21e siècle, T1, (1991),p:30. in: "Les classiques des sciences sociales";[en ligne], http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html

- إيديولوجيا، تعتبر الصبغة الدينية السمة الرئيسية لهذه الهيكلة، فرغم اختلاف الأديان وأشكال الطقوس ومحتوى الأساطير، إلاّ أنّها في مجملها تسعى إلى تأليه الملك لذاته أو لقرابته من الإله، كطريقة لإخضاع الشعب وتخويفه من جزاء عدم الانقياد الدنيوي والأخروي، وهذا الاعتقاد بالجزاء الأخروي دلالة على أثر الرسالات السماوية التي تكلّم عنها القرآن الكريم؛ فرغم نزول أنبياء الله في هذه المرحلة كإبراهيم وسليمان وموسى وعيسى عليهم السلام من زمن لآخر إلاّ أنّ تأثيرهم في هذه الدول كان ضعيفا، بل أنّ أكابر خصومهم كانوا المماليك أنفسهم كما دلّ على ذلك قصص القرآن الكريم، وبذلك يمكن القول بأنّ الديانات السماوية لم تكن ميزة هذه المرحلة، وإن ظهرت فيها.
- يعتبر وجود العبيد ميزة أساسية من مميّزات هذه المرحلة، وكانت الحروب المصدر الأساسي لزيادة العبيد، كما ازدهرت التجارة فيهم، وظهر فيما بعد عملية استعباد المشاعية المعدمين لقاء ما عليهم من ديون؛ ورغم اعتبار العبيد في أغلب الأحيان القوة العاملة في هذه الدول، إلاّ أنّ مجال نشاطهم اختلف وتطوّر حسب الدول من نشاط منزلي كما في الصين وخاصة في الهند وهو ما يسمى بالعبيد البيتي، إلى استغلالهم في النشاط الزراعي و الفلاحي[1] كما في اليونان وروما، وقد تكلّف بعمليات البناء والتشييد كما في أهرامات مصر. ومايجب ذكره هنا هو أنّ إنتاجية العبيد كانت متدنية لدرجة أنّ أسياد العبيد بدأوا يتخلّصون من استعمال عمل العبيد بالتخلي عن إشرافهم على الإنتاج والاكتفاء بتأجير الأراضي لهم ولصغار

[1] – ليونتييف، موجز الاقتصاد السياسي، سليم توما (ترجمة)، دار التقدم، موسكو، 1975، ص:30.

الفلاحين، في حين ظلّ بعض الحرفيين والفلاحين الصغار يفقدون حرّيتهم ويلتحقون بصفّ العبيد نتيجة عدم قدرتهم على تسديد ديونهم.

- إنّ ما يميّز دول هذه المرحلة أيضا الصراع الطبقي الذي كان، والثورات التي كانت تشنّها الطبقة الكادحة من عبيد وأحرار غير كاملي الحرية من فلاحين وحرفيين صغار، وقد نجد هذه الثورات تقريبا في كل الدول العبودية بدءا من الصين، واليونان، وروما وحتّى في دول أمريكا.

ولهذه الطبقية قراءة في تقسيم العمل، فبداية وفي مرحلة لم يكن النشاط الاقتصادي مزدهرا، كان العمل مقسما بين عبيد عاملين وملاك عبيد، شكّل فائضا تمثّل في تنفيذ الأعمال الكبرى للقاعدة الهيكلية – أنظمة الري مثلا– ومنجزات معمارية غالبا ذات أهداف دينية– أهرامات بلاد مابين النهرين، الأهرامات المصرية، معابد المايا...وحتّى القصور التي قد تعتبر مساكن الإله أو ابن الإله–؛ ثمّ وفي مرحلة متأخّرة من هذه المرحلة للنسق العالمي، إذ بفعل الثورات التي كان شنّها العبيد والطبقات الكادحة تحوّل مالكو العبيد إلى مالكي العقارات مأجّرين إيّاها للطبقة العاملة، وهذا ما يمكن اعتباره ثاني تقسيم للعمل.

- أدّى نمو العلاقات الاقتصادية وبالذات التجارية إلى استبدال المعادل العام للبضائع والذي هو البضاعة الأكثر قبولا حسب المناطق كبعض أنواع الماشية، الفراء، الجلود، العاج؛ ببعض المعادن كالحديد و النحاس ثمّ الذهب والفضّة، فظهرت بذلك النقود التي أخذت في بادئ الأمر شكل سبائك قبل أن تصكّ، هذا في ظلّ علاقات تجارية واقتصادية ضعيفة بل هامشية.
- في ظلّ هذه المرحلة أيضا ظهرت المدن التي تكون عادة محصّنة والتي أضحت مجتمعا للحرفيين والتجار فضلا عن السكّان، ففيها يكون السكن وتتمّ الصفقات التجارية وفيها يتمّ أيضا أداء الطقوس التعبّدية[1]؛ وتحوّلت في بعض الاحيان إلى مدينة– دولة كما حدث في روما.

وعلى ذكر المدن لابأس أن نذكّر بمستوى العمران الذي توصلت إليه بعض المدن في هذه المرحلة، والذي بلغ درجة من الإتقان والتفاني تعكسه لنا الأهرامات بدرجة أكبر.

[1] – ففي نهاية الألف الثاني ق.م نشأت مدينة مكة المكرّمة، بجوار ينبوع علاجي على حدّ تعبير المؤرّخون –الذي هو بئر زمزم – والذي كان يؤمّه الناس للسجود أمام الحجر الأسود. ولمّا كان ابن نبي الله أبراهيم اسماعيل عليهما السلام هو من فجّر الينبوع حين كانت صحراء قاحلة، فابراهيم عليه السلام كان أوّل من سكن في هذه االصحراء، وهو من بنى الكعبة الشريفة، وبدعائه أضحت مدينة يجوب النّاس إليها من كل حدب وسوط.

- أمّا في الجانب التقني، بدأ استخدام المعادن بصورة أوسع بعد استيعاب صهر المعادن في إفريقيا وآسيا والهند؛ وتعلّم سبك المعدن المخلوط (النحاس مع القصدير مثلا)؛ وباستخدام أدوات العمل النحاسية والبرونزية وفيما بعد الحديدية تمّ البدء في تكييف الحجر والخشب والعظم والقرن وبصنع أدوات العمل في الزرع والحرث وكذا أدوات الفخار والحياكة[1]. وأبدعوا أيضا في إنجازات البناء والسدود والري.
- في ظلّ هذا النسق العالمي نشأت العلاقات التجارية في بادئ الأمر بين المدن الواقعة على شواطئ البحار وضفاف الأنهار، وكان يوجد منذ القدم طرق تجارية تربط بين القارات آسيا، إفريقيا وحتى أوروبا، فكان "طريق العطور" يمر إلى الشمال على امتداد البحر الأحمر، إذ كانت القوافل المنطلقة من جنوب شبه الجزيرة العربية ومن المدن الواقعة شرق البحر الأبيض المتوسّط تحمل من وإلى كل من إفريقية والهند التوابل، والبخور والذهب والعبيد.

ومن جنوب شبه جزيرة العرب إلى ما بين النهرين طريق تجاري آخر، وعن طريق مضيق باب المندب الذي يفصل شبه الجزيرة العربية عن إفريقيا كانت هنالك تجارة بين إفريقيا الشرقية والشمال.

وكان هناك طريق آخر سمّي بـ"طريق الحرير الكبير" الذي كان يربط الصين مع إيران وبلدان البحر الأبيض المتوسط مرورا بآسيا الوسطى، والذي كانت من خلاله تصل من الصين مختلف البضائع والمعادن والمنتجات الجلدية وخاصة الحرير ويصل إليها في الغالب الزجاج والحلى، وكان هذا الطريق يوصل البضائع الشرقية حتّى إلى شرق أوروبا وامبراطورية روما[2]، وكذا طريق ينطلق من بغداد إلى سوريا، ثمّ إلى الدول الأوربية ليصل إلى غاية لندن[3].

والملاحظ هنا أنّ العلاقات التجارية القارية– مع التأكيد دائما على ضعفها وهامشيتها– لم تمس القارة الأمريكية المنعزلة نسبيا، والتي قد لم تكن سكنت إلاّ في مرحلة متأخّرة من هذه الحقبة الزمنية لدولة الرق.

- في الجانب العلمي يمكن أن نقول إنّه تمّ التحكّم في هذه المرحلة في الحساب والرياضيات، وكانت هنالك معارف قيّمة في التقويم والفلك، وكانت هناك حروف هجاء إذ كان الفينيقيون أوّل من وضع هذه الحروف، وتمّ التحكّم النسبي في الجغرافيا وحُسب محيط الكرة الأرضية،

---

[1] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص ص:47،48.

[2] – المرجع السابق، ص ص: 81–82.

[3] – فتح الله ولعلو، **الاقتصاد السياسي، مدخل للدراسات الاقتصادية**، ط2، دار الحداثة، بيروت، 1982، ص:47.

هذا فضلا عن الفلسفة التي ازدهرت بشكل أوضح في الحضارة اليونانية. هذا وفي عصر اليونان بدأت تنفرد مختلف العلوم عن الفلسفة الأمر الذي كان عاملا في تطوّرها.

هذا ويمكن القول إنّه في هذه المرحلة، ظلّ انتشار المجتمعات وهيئاتهم التي تنظّم بها، مرهونا إلى حدّ ما بالطبيعة الجغرافية للأرض، إذ أنّ هذه المجتمعات تبحث وتتمركز في الأراضي الخصبة أكثر، بسبب ضعف التطوّر التقني الذي وصلت إليه هذه المجتمعات.

ويبقى من أهم خصائص هذه المرحلة هو عدم التحكّم في المجال المكاني، الأمر الذي ساهم في حفاظ كلّ مجتمع على خصوصياته الاجتماعية وكذلك على خصوصيات نشاطه الاقتصادي.

الفصـــــل الثـــــــــانـي

النـــــــســـــــق العـــــــالمـــــي للعـــــــصـــــــر الوسيـــــــــط

يمكننا تحديد بداية هذه المرحلة من القرن الخامس تقريبا، بسقوط روما سنة 476، إلاّ أنّه ثمّة اختلاف في تاريخ انتهائها[1]، إذ هناك من يعتبر اكتشاف القارة الأمريكية سنة1492 هي نهاية هذه المرحلة، في حين هناك من يرى أنّ الحدث الأبرز هو سقوط القسطنطينية سنة 1453 رمز الإمبراطورية الرومانية الشرقية التي سقطت هي الأخرى سنة1492 في يد الأتراك، وهناك من يفضّل التركيز على أنّ بداية النهضة الأوروبية هو سمة نهاية هذه المرحلة؛ والواقع أنّ هذا الاختلاف لا يؤثّر على الدراسة، إذ يمكن القول أنّ هذه الأحداث مترابطة فيما بينها، وجميعها له الأثر في قراءة تغيرات النسق العالمي، وخاصة أنّها متقاربة التواريخ.

وظهرت في هذه المرحلة عوالم جديدة متعدّدة، يمكن اعتبارها أهمّ الفاعلين في النسق العالمي، تتمثّل في العالم الأوربي، والعالم العربي–الإسلامي، والعالم التتري.

المبحث الأول: العالم الأوروبي الإقطاعي

شهدت أوروبا أحداثا متسارعة بدأت بانهيار الإمبراطورية الرومانية رمز الحضارة الأوربية ورمز النظام العبودي، ليحلّ محلّه النظام الإقطاعي. نحاول تلخيص هذه التطوّرات عبر النقاط التالية.

1–انهيار الإمبراطورية الرومانية

لم يكن لانهيار الإمبراطورية الرومانية في القرن الخامس ميلادي على يد قبائل البربر: الجرمان والسلاف والفن، مجرّد انتقال للسلطة من دولة لأخرى، ولا مجرّد تغيّر شكل هذه الدولة من إمبراطورية إلى مملكات[2]، وإنّما كان له تبعات اقتصادية واجتماعية مسّت النظام الاقتصادي والاجتماعي السائد في أوروبا خاصة، وربّما أثّر حتى على النظام الاقتصادي والاجتماعي العالمي أيضا.

---

[1] – حمدي أحمد العناني، **تكوين الهياكل الاقتصادية**، مكتبة عين شمس، القاهرة، 1980، ص: 09.

[2] – انقسمت أوربا إلى جزئين، جزء شرقي ذي المسيحية الأرثوذكسية ممثّل في الإمبراطورية البيزنطية الكبيرة نسبيا، عاصمتها القسطنطينية، حكمت جنوب إيطاليا وصقلّية واليونان وساحل إفريقيا الشمالي، وجعلت لها إمارات صليبية في الشام وفلسطين وتركيا، وإلى جانبها مملكة أرمينيا ومملكة الكرج؛ وجزء غربي ذي المسيحية الكاثوليكية والكلفانية واللوثرية والذي اتخذ شكل مملكات، وإمبراطوريات وولايات متحدة أهمّها: الإمبراطورية الفرنسية، الإمبراطورية النمساوية، اتحاد الراين، مملكة إيطاليا، هذا ونجد أوروبا الشرقية: مملكة الروس، بولندا، كرواتيا، المجر. أنظر: ألبرت حوراني، مرجع سبق ذكره، ص:33.

فعلى عكس الإمبراطورية الرومانية التي كانت تعتبر منارا للحضارة الأوروبية في شتى المجالات التنظيمية الإدارية والمدنية، وحتّى الثقافية بالمعنى العام بالنظر إلى ما شيّدته من عمران ومدن...، كانت المملكة الجرمانية بدوية فهي لم تشيّد مدنا، بل إنّها لم تحسن الحفاظ على مدن روما– حتّى مدينة روما العريقة لم تسلم من الدمار أكثر من مرّة–[1] ولا على نشاطها الاقتصادي ولا على علاقاتها التجارية أيضا[2]. إذ كانت قبائل المماليك تشبع حاجاتها بالنهب والسلب والإغارة وفرض الإتاوات؛ وبذلك تدهورت الأوضاع العامة وواجهت الشعوب الأوروبية نوعين من المشاكل:

- الحاجة إلى الأمن والحماية من ويلات الحروب وعمليات السلب والنهب، الأمر الذي بفقدانه يتعذّر مزاولة أي نشاط اقتصادي زراعي أو حرفي، وهذا ما أدّى إلى تدهور الزراعة.
- ثمّ كيفية الحصول على حاجاتهم من السلع بعد قطع سبل التجارة مع العالم الخارجي الذي كان يزوّد أوروبا بحاجياتها[3].

وكحلّ لهاتين المشكلتين اللّتين تعتبران في حقيقة الأمر مشكلة واحدة تتمثّل في ضعف المملكة المتجسّد في ضعف شخص الملك ذاته، الذي عجز عن إقامة سلطة مركزية قادرة على استتباب الأمن، فنصّب حكّاما على أقاليم وسمح لهم بحيازة الأحصنة والأسلحة، على أن تكون في خدمته عند الحاجة إليها في الحروب[4]، وهكذا أصبح هذا الحاكم القادر على تحقيق الأمن للفلاحين إقطاعيا يستولي على أراضيهم ويجعلهم رقيق الأرض لصالحه.

2-تشتت السلطة السياسية وظهور الإقطاعية

نجد من بين أهم السمات الرئيسة للنظام الإقطاعي وبالتالي العالم الأوروبي –وكما سبقت الإشارة إليه– ضعف الحاكم، الأمر الذي أدّى إلى تشتت السلطة السياسية كما عبّر عن ذلك "برودل" قائلا: [فكأنّ أوروبا البائسة هذه لا تستطيع أن تحتمل وزن الدول الكبيرة، فما إن تتشكّل دولة كبيرة حتّى تتراجع أو تنهار، إمبراطورية "شارلمان" التي قامت بسرعة انهارت بعيد موت الإمبراطور الكبير، فالإمبراطورية الجرمانية لم تكن أكثر من بيت واسع متهدّم][5].

---

[1] – حمدي أحمد العناني، مرجع سبق ذكره، ص: 09.

[2] – Bernard Schnapper, Hubert Ricardot, **histoire des faits économiques**, 3ème éd, Dalloz, paris, 1971, pp:103-109.

[3] – حمدي أحمد العناني، مرجع سبق ذكره، ص:09.

[4] - Université de l'Amitié des peuples patrice Lumumba, **Aperçu D'histoire et d'économie**, édition du progrès, Moscou, 1960, pp :173.

[5] – جاك أدا، **عولمة الاقتصاد، من التشكّل إلى المشكلات**، ماطنيوس(ترجمة)، دار طلاس، دمشق، 1998، ص:33.

وهكذا كانت أوروبا الغربية مجرّد إمارات أو أقاليم متعدّدة، تشكّل كل إمارة أو إقليم وحدة سياسية واقتصادية شبه مستقلّة من الصعب إخضاعها لسلطة مركزية، يملكها سيد من مرتبة عليا كالملك تسمّى الإقطاعية، وهي الوحدة الهيكلية الأساسية في النظام الإقطاعي.

فالإقطاعية هي الأراضي الممنوحة لسيد الإقطاعية من طرف الملك مقابل الخدمات العسكرية التي يقدّمها له، ينوب سيد الإقطاعية عن الملك في كلّ شيء في بداية الأمر قبل أن يستقلّ بأمره تقريبا بصفة تامة فيصبح بذلك دولة أو شبه دولة؛ وتجذّرت علاقات الإقطاعية بصفة أوضح وأتم عندما أصبحت ملكية الأراضي الممنوحة لسيد الإقطاعية وراثية.

كانت أراضي الإقطاعية تقسّم إلى قطع أرضية، يحتفظ الحاكم الإقطاعي ببعضها ويلتزم الفلاحون الأرقاء بزراعة هذا القسم بدون مقابل بالإضافة إلى خدمات القصر الإلزامية؛ ويوزّع القسم الآخر من الأرض على الفلاحين الأرقاء الذين يقومون بزراعتها لصالحهم مع التزامهم بتقديم جزء من المحصول إلى السيد الحاكم[1].

وظلّت الإقطاعية نواة النظام الإقطاعي، وانتشرت في أوروبا بتسميات مختلفة[2].

3-<u>المسيحية والكنيسة</u>

ظهرت المسيحية في أواخر المرحلة السابقة من مراحل تطوّر النسق العالمي. اعتمدتها الإمبراطورية الرومانية دينا رسميا. وبعد انهيار الإمبراطورية الرومانية وانقسام المسيحية نهائيا إلى غربية وشرقية، غدت الكنيسة الغربية الكاثوليكية الأساس الإيديولوجي للنظام الإقطاعي في أوروبا الغربية ودعامة أساسية له، وكانت تركّز على إخضاع العبيد والفلاحين من خلال تأميلهم في الحياة الآخرة جزاء على الشقاء الدنيوي. لتصبح بذلك نظاما رسميا يصبو ليصبح عالميا من خلال خصوصية دين الإله.

وبمرور الوقت لم تكتف الكنيسة باعتبارها جزءا مكمّلا للعلاقات الاجتماعية الاقتصادية بين السيد والمزارعين من خلال تنظيم علاقات الناس وتوفير الشرائع المؤدية إلى الخلاص الروحي[3]، وإنّما تعدّته لمزاولة النشاط الاقتصادي، إذ أصبحت من كبار الملاك بامتلاكها بين 25% و30% من جميع الأراضي داخل المجتمع الأوروبي، تقوم بتأجيرها أو زراعتها باستخدام عدد كبير من

---

[1] – أنيس حسن يحيى، **تاريخ الفكر الاقتصادي قبل آدم سميث**، المجمع الثقافي، أبوظبي، 2003، ص ص:67-68.

[2] – ففي شرق أوربا عرفت بلفظ votchina وفي انجلترا بلفظ monorial وفي فرنسا وباقي أوروبا باسم seignory، انظر: حمدي أحمد العناني، مرجع سبق ذكره، ص:14.

[3] – المرجع السابق، ص:20.

العمال[1]، كما كانت تملك العديد من قطعان الخيل والأبقار والماعز والخنازير والأغنام[2]، بالإضافة إلى أنّها كانت تمارس التجارة والتمويل أيضا؛ فواقع الكنيسة أنّها كانت أحد كبار مالكي العبيد، تدير شؤون المقيمين على الأرض وتمارس جميع الحقوق الإقطاعية التي يمارسها كل سيد إقطاعي داخل إقطاعيته، فضلا عن أنّها كانت تمارس بعض السلطات السياسية إذ أنّها فرضت ضرائب على المقيمين في داخل حدود أراضيها، بالإضافة إلى أنّها أوجدت محاكم خاصة مستقلّة تماما عن الحكام، فضلا عن أنّ الكنيسة كانت أفضل وأكفأ المؤسسات التعليمية.

وهكذا أصبحت الكنيسة تمثّل المركز الأوّل في الحياة السياسية والاقتصادية والإيديولوجية للنظام الإقطاعي، ريادة بلغت ذروتها في القرن الرابع عشر عندما أعلنت الكنيسة أنّ كل القوى والسلطات يمتلكها البابا ويزاولها نيابة عن الرب في الأرض، وأنّ صلاحيات وسلطات النبلاء الإقطاعيين مستمدّة من الرب عن طريق التفويض.

وتلاشى دور الكنيسة في القرن السادس عشر، بعد ما انتقدت انتقادا لاذعا عيّبت من خلاله امتلاكها الثروة المادية الكبيرة والنفوذ الاقتصادي والسياسي الواسع، وأنّها صارت هيئة دنيوية لا دينية[3].

إنّ هذا الدور السلبي الذي لعبته الكنيسة وصفه الاقتصاديون بالتزمت الديني الذي فُسِّر به الركود الاقتصادي الذي نحاول وصفه في النقطة الموالية.

4-<u>اقتصادية الإقطاعيات</u>

تميّز الاقتصاد الإقطاعي بعدد من الخصائص نحاول التطرّق إليها في النقطتين التاليتين:

- تعتبر الأرض مركز اهتمام الإقطاعية كوحدة اقتصادية[4]أو بالأحرى كوحدة إنتاجية، فلقد غلب النشاط الزراعي على غيره من الأنشطة الاقتصادية، باعتبار أنّ الزراعة هي المصدر الأساسي للثروة، وهي عصب الحياة داخل كل إقطاعية، إلاّ أنّه وعلى الرغم من المكانة المرموقة التي شغلتها الزراعة في أوروبا القرون الوسطى، فإنّه لم يكن هناك أي تطوّر تقني أو فنّي مسّ هذا النشاط، إذ أنّه استقرّ مستواه عند المستوى الذي كان

---

[1] – المرجع السابق، ص:33.

[2] – Université de l'Amitié des peuples patrice Lumumba, op cit, p :245.

[3] – حمدي أحمد العناني، مرجع سبق ذكره، ص:33.

[4] – أحمد فريد مصطفى، سهير محمد السيد حسن، **تطوّر الفكر و الوقائع الاقتصادية**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000، ص:23.

عليه في مرحلة العبودية، باستثناء العلاقة الجديدة بين سيّد الأرض والعامل أو القن الذي أضحى له نوع من الحرية المحفّزة في أداء النشاط الاقتصادي بصفة أحسن، بعدما كان يتعمّد عدم الإنتاج في أواخر عصر العبودية. كما كانت الصناعة بدورها متخلّفة للغاية، وكذلك تدهورت التجارة بسب إهمال الطرق وانعدام الأمن[1]. إنّ محدودية مبادلات الاقتصاد الإقطاعي والتي أخذت في الغالب طابعا عينيا جعلت الحاجة إلى النقود مسألة نادرة، فتراجع دور النقود في المبادلات، وتميّز الاقتصاد بأنّه اقتصاد مغلق[2].

- في ظلّ خاصية الركود أو الانكماش التي تميّز به الاقتصاد الإقطاعي، لم تكن هنالك أسواق محلية ناضجة أو مترعرعة، بل على العكس من ذلك لم يكن يرتاد هذه الأسواق المحلية سوى سكّان الجوار ولم تتوفّر لها اتجاهات التوسّع. وكانت التجارة المحلّية، النشاط الثانوي للريفيين، تقتصر على بيع وشراء التجزئة وليس هناك ما يدعو إلى افتراض إمكانية ظهور طبقة تجار من هذه القاعدة الريفية[3].

5- ظهور الطوائف والمدن

في بداية القرن الحادي عشر ومع بدء اتساع المجتمع الإقطاعي وتنوّع حاجاته، ظهرت فئة من المجتمع لتخصص جزءا من عملها للمجال الحرفي، كالحدادة والغزل والنجارة وخياطة الملابس. ومع مرور الوقت أخذت تخصص وقتا أكبر لهذا النشاط، وهكذا إلى أن تخلت نهائيا عن الفلاحة والزراعة وتخصّصت في النشاط الحرفي، وبدأ هؤلاء الأفراد بمغادرة القرى والأرياف والإقطاعيات من أجل إيجاد أماكن توفّر لهم شروطا أحسن لمزاولة نشاطهم: بعيدين عن رجال الإقطاع، وأماكن آمنة وقريبة من مصادر المواد الخام ومن مصادر التوريد. وقد توفّرت هذه الشروط التي يبحث عنها الحرفيون بجانب القلاع والحصون ومراكز المقاطعات الإدارية والمنازل الكبيرة المحصنة في الغالب، فاستقرّوا بالقرب منها، كما استقرّوا أيضا على ضفاف الأنهار وعلى مفارق الطرقات وملتقيات الطرق البرية والبحرية.

ومع مرور الزمن استقر التجار في هذه التجمّعات بجانب الحرفيين، وإثر قيام العلاقات والتعاملات الاقتصادية بينهم ازداد حجم هذا التجمع مكوّنا مدنا جديدة – كما ازدهرت أيضا بعض

---

[1] – Henri SÉE, **Les origines du capitalisme moderne (Esquisse historique)** (1926) ,in: "Les classiques des sciences sociales", [en ligne], :http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html,p:15.
Voir aussi: Bernard Schnapper, Hubert Ricardot, op cit:136.

[2] – أنيس حسن يحيى، مرجع سبق ذكره، ص ص: 70–71؛ أنظر أيضا: جاك أدا، مرجع سبق ذكره، ص:33.

[3] – المرجع السابق، ص:29.

المدن القديمة– فالمدينة كانت مجموعة من السكان في مساحة ضيقة نسبيا تخلّت تقريبا كليا عن النشاط الفلاحي لصالح النشاط الحرفي أو التجاري.

ازدهرت هذه المدن وترعرع نشاطها الحرفي والتجاري وازدهر استعمال النقود فيها. فبدأت طبقة جديدة خارج النظام الإقطاعي في الظهور والنمو تتكوّن من الحرفيين والتجار عُرفت بالطبقة الوسطى، طبقة عملت واستطاعت أن تحقّق للمدينة استقلالها عن إقطاعيي الريف. فأصبحت بذلك وحدة سياسية مستقلة بمحاكمها وماليتها وقواتها المسلحة أيضا. هذا وتكوّنت في ظلّ هذه المدن الحرفية أيضا طوائف حرفية كانت بمثابة نقابات الوقت الحالي، تضمّ الحرفيين من عمال أجراء وأصحاب حرف يعملون لحسابهم الخاص، من أجل تنظيم هذه الحرف وحماية الحرفيين من خلال: العمل على الحفاظ على مستوى الصناعة والعمل على ارتقائها، وكذلك العمل على المحافظة على المستوى المعيشي للحرفيين من خلال تقليل المنافسة بينهم عن طريق تنظيم السوق بتحديد حجم الإنتاج والأسعار[1].

6- دولة المدينة أو المدينة–دولة والتجارة البعيدة

أخذت دول المدينة مكانة خاصة في التاريخ الفكري جعل منها لبّ اهتمام الفلاسفة القدامى أمثال "أرسطو" و"أفلاطون"؛ كما أن لتاريخها الاقتصادي أيضا دورا هاما في بناء الاقتصاد العالمي الحالي، على الأقل عن طريق اقتصاد أوروبا، حيث لعبت دولة المدينة دورا فاصلا في تكوين الاقتصاد الأوروبي[2].

ففي حدود القرن الحادي عشر زاد حجم المدن الأوروبية –مدن كثيرة في أوروبا، تكوّنت في بادئ الأمر في إيطاليا وفرنسا ثمّ في ألمانيا وهولندا وفي روسيا أيضا–، وزاد نشاطها الاقتصادي وتكرّس استقلالها السياسي، إذ أصبحت دولة بحدّ ذاتها سمّاها المؤرخون والاقتصاديون مدينة–دولة.

إنّ خصوصية هذا الهيكل الاقتصادي والسياسي الجديد، المتمثّل في المدينة التي استطاعت أن تتحرّر من أيّ تدخّل حكومي وكذلك من أيّ اهتمام سياسي، هو إعطاء أهمية فريدة أو بالأحرى متفرّدة للنشاط الاقتصادي، ليتطوّر ولأوّل مرّة على نحو مستقل، محقّقا نموا في الثروات بمعدّلات مذهلة[3]. وأُخرجت أوروبا ابتداء من القرن الحادي عشر من الاستهلاك الزراعي المباشر "الاستهلاك الذاتي" إلى الاستهلاك الزراعي غير المباشر الذي تولّد عن بيع فوائض الإنتاج الزراعي، فيما اجتذبت المدينة واحتكرت لوحدها صنع وبيع المنتجات الصناعية. كما أتاحت هذه المدن لأوروبا

---

[1] – حمدي أحمد العناني، مرجع سبق ذكره، ص ص:20–25.

[2] – John Hicks, **une théorie de l'histoire économique**, édition du seuil, paris, 1973, p:51.

[3] – جاك أدى، مرجع سبق ذكره، ص:35.

التعرف على الاقتصاد النقدي الذي كان قائما في الشرق، فتعلّمته وقامت بنشره في أوروبا، ويمكن اعتبار النقود باختصار جوهر الثورة التي سمّيت بالثورة التجارية[1].

بدت أوّل هذه المدن في إيطاليا، ففي القرن التاسع تقريبا كانت المدن الإيطالية مثل البندقية وجنوة وميلانو وبيزا أيضا المدن–دول الأولى كما سبق التنويه، وحدثت أيضا تطوّرات مماثلة أو على الأدق مشابهة على الرغم من أنّها أقل سرعة وأقل صنعة على المستوى المالي في كل من بحر الشمال وبحر البلطيق كلندن في إنجلترا وفي الأراضي المنخفضة والإسكندنافية وألمانيا، فتكوّنت مدن–دول تجارية حيوية توزّعت على بقاع أوربا.

ومن بين هذه المدن كانت مدينة شمبانيا الفرنسية التي اشتهرت بمعارضها الإقليمية الموسمية الدورية، والتي اعتبرت معارضها الأكثر شهرة في المعارض الإقليمية في القرن الثاني عشر[2]، حيث كانت تقام ستة أسواق سنويا بوتيرة ثابتة كلّ شهرين، كانت ملتقى أوروبا قاطبة يلتقي فيها أصحاب الشمال مع أصحاب الجنوب، من إيطاليا إلى شمال أوروبا، ومن ألمانيا إلى شبه الجزيرة الإسبانية، ليتبادلوا فيها المنتجات الصوفية والأجواخ من الشمال بالخمور الفرنسية والأقمشة والتوابل التي يأتي بها الإيطاليون من الشرق[3]؛ وكانت لهذه الأسواق شهرة صار يضرب بها المثل عمّن لا يعرفها أنّه لا يعرف شيئا على الإطلاق[4].

وممّا ساعد هذا المعرض على الازدهار والتجارة بصفة أعم، ظهور التقنيات المالية التي سهّلت انسياب البضائع من مكان إلى آخر، فبمبادرة من الإيطاليين ظهرت السفتجات منذ حوالي القرن الثاني عشر لتلافي نقل الأموال، وتحوّلت أوراق الدفع إلى وسائل اعتماد وحتّى وسائل للمضاربة، كما أصبحت مُهل الدفع وأسعار العملات موضوعات لصفقات تبادل خاصة، وأصبح بذلك القسم الأكبر من تجارة المعارض يتمّ مع تسهيلات الدفع، فالقسم الأعظم من الالتزامات الموقّعة في أوروبا كان يجري تسديده في أحد هذه المعارض، حتّى تلك التي يتعاقد عليها الأمراء والملوك وكبار الشخصيات. ولأنّ كل الأسواق المالية كانت على علاقة بمعارض شمبانيا فقد تمّ في الإمارة إنشاء نظام لإطفاء الديون عن طريق المقاصة، وبذلك أضحت هذه المعارض غرفة مقاصة لكل أوروبا[5].

---

[1] – فرنان برودل، مرجع سبق ذكره، ص:111.

[2] –جامعة باتريس لومومبا، مرجع سبق ذكره، ص ص:214–223.

[3] – جاك أدى، مرجع سبق ذكره، ص:37.

[4] – فرنان برودل، مرجع سبق ذكره، ص:131.

[5] – جاك أدى، مرجع سبق ذكره، ص:37.

يقول "برودل" في محاولته لتحديد مركز العالم الأوروبي: "تكوّنت إذن في الوقت نفسه تقريبا وببطء منطقتان اقتصاديتان، إحداهما في الأراضي المنخفضة والأخرى في إيطاليا، وبين هاتين المنطقتين اتصلت أسباب أسواق شمبانيا واستمرّت طوال قرن من الزمن، لم تكن الغلبة في المرحلة الأولى من نشوء الاقتصاد–عالم الأوروبي لا للشمال ولا للجنوب، بل لم تكن بينهما علاقات منافسة، إنّما تكوّن المركز الاقتصادي لهذا العالم طوال سنين في موقع وسط بين القطبين"[1]، في قلب أوروبا يقصد شمبانيا.

وفي نهاية القرن الثالث عشر وبداية القرن الرابع عشر، وبفتح خط ملاحي مستمر يصل البحر المتوسّط ببحر الشمال، عن طريق مضيق جبل طارق الذي سيطرت عليه جنوة الإيطالية سنة1277، وبشق طريق يعبر جبال الألب من جهته الشرقية بعد بناء جسر فوق نهر "الرويس" فاتحين ممر "سان جوتان" في طريق البرزخ الألماني، لم يعد الطريق الغربي المار على شمبانيا كثير السلوك، فبدأ نجم شمبانيا بالأفول تاركا المجال للبندقية الإيطالية.

كانت البندقية المدينة–دولة الأولى التي بدأت منذ القرن الحادي عشر بإقامة شبكة تجارية وفّرت لها خلال عقود ازدهارها وتفوّقها الاقتصادي في أوروبا، حيث كانت مستقلّة ولكن أيضا موالية لبيزنطة التي قدّمت لها المساعدة البحرية.

وكان للبندقية علاقات مع الإمبراطورية البيزنطية التي تحدّها من الشرق والعالم الإسلامي، حيث كانت تشتري من الغرب الحديد والخشب والعبيد لتبيعها في الشرق مقابل التوابل والعاج والحرير. كما كانت تسوّق الملح من بحيراتها الساحلية وكذلك منتجات صناعتها الزجاجية الخاصة. وفرضت البندقية حمايتها على مرافئ كثيرة في بحر الأدرياتيك دون أن تحاول بناء إمبراطورية برية، قد تحوّلها عن التجارة. فمستعمرات البندقية لم تكن سوى بؤر تجارية تستطيع أن تبيع فيها منتجاتها دون أي رسوم.

وتحصّلت البندقية على مثل هذه الامتيازات في البحر الأبيض المتوسّط بتقديم مساعدات للأمراء الذين يواجهون صعوبات في ظل ضعف الإمبراطورية البيزنطية وحروبها مع الدولة الإسلامية، فكرّست سيطرتها التجارية على الأقل على البحر الأبيض المتوسّط.

ومن جهة الشرق، ساعد ظهور الإمبراطورية المنغولية في القرن الثالث عشر، والتي وحّدت على نحو مؤقّت الأراضي الواسعة الممتدّة من بلاد الصين إلى السواحل الروسية على البحر الأسود وحتى الأراضي الهنغارية، ساعد التجار الإيطاليين في تجاوز الوساطة الإسلامية في الوصول إلى

[1] – فرنان برودل، مرجع سبق ذكره، ص:130.

ثروات العالم الشرقي، فاتسعت الطرق التجارية مع الهند والصين بعد حصول تجار البندقية على إذن من إمبراطور روسيا الجنوبية بإنشاء منطقة تجارية في موانئ شبه جزيرة القرم، وأنشأت البندقية إدارة لذلك سمّيت إدارة القرم لتسهيل التعاملات التجارية في روسيا الجنوبية، وتمثّل موضوع هذه التعاملات في المنتجات الروسية من جلد ولحم وسمك، وفي حرير الصين، وفي توابل الهند.

هذا وتحصّل تجار البندقية أيضا على امتياز في موانئ إيران المنغولية ليسهّلوا تجارتهم من وإلى أوروبا[1].

فعلى آثار هذه المدينة–دولة التي بسطت تجارتها في جلّ العالم المعروف، شمالا وشرقا وجنوبا من خلال البحر بدرجة أولى ولكن أيضا من خلال البرّ، اقتفت عدّة مدن من شبه الجزيرة الإيطالية ومدن أخرى من الشمال كالأراضي المنخفضة ومدن ألمانيا التي استطاعت أن تقف ضد السيطرة العسكرية الإسكندنافية، حيث استطاعت أن تحتفظ باستقلالها السياسي ومدّت نفوذها بقوّة السلاح وبالتجارة إلى جنوب بحر البلطيق، ووقفت في وجه تهديدات ملك الدانمرك بتشكيل حلف تجاري لتنظيم الحماية العسكرية للقوافل التجارية، وتوغلت تجارتها شرقا[2]؛ ولكن طوال هذه الفترات لم تصل أي مدينة إلى ما كانت عليه البندقية، فكانت بحق مركز العالم الأوروبي[3].

المبحث الثاني: العالم العربي–الإسلامي

في جزء آخر غير بعيد في المجال الأرضي، تواجد العالم العربي، ومن بعده العالم الإسلامي الذي غيّر بالفعل هيكلة المجال العالمي، وكذلك غيّر مكانته في هذا المجال بعد ما تغيّر هو بطريقة جذرية على مستويات عدّة، تغيّر قد يكون الدين السماوي العامل الوحيد الكفيل بإجرائه.

---

[1] – عباس إقبال، ترجمة عبد الوهاب علّوب، **تاريخ المغول منذ حملة جينكيز خان حتّى قيام الدولة التمورية**، المجمع الثقافي، أبوظبي، 2000، ص:551.

كانت إيران وبالضبط عاصمتها تبريز همزة وصل بين الشرق" الصين" والغرب، والواقع أنّ التجار الأوربيين كانوا إلى حدّ ما تحت رحمة التجار المسلمين، وكانت أسعار التوابل والقهوة ترتفع في بعض الأحيان إلى ثلاث أضعاف من سعرها في أوروبا بعد سداد الرسوم الجمركية الإسلامية وبذلك كانت تجارة الشرق احتكارا إسلاميا، الأمر الذي جعل الأوربيين يبحثون مرارا وتكرارا عن طرق تجاوز الوساطة الإسلامية.

[2] – جاك أدى، مرجع سبق ذكره، ص:36.

[3] – فرنان برودل، مرجع سبق ذكره، ص ص:148،147.

1- عرب الجاهلية

كان المجال العربي المتمثّل أساسا في شبه الجزيرة العربية مجتمعا قبليا، فالقبيلة كانت هي الوحدة الاجتماعية الأساسية التي لا تعترف بأي سلطة خارجية كدليل على استقلاليتها.

فالقبيلة هي جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد مشترك، تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهم رابطة التعصب للأهل والعشيرة، ويمثّل هذا الترابط مصدر قوّة هذه القبيلة، وهكذا تهبّ قبيلة برمّتها من أجل نصرة أحد أفرادها بغضّ النظر أظالما كان صاحبها أو مظلوما.

تتألّف كل قبيلة من عشائر وبطون وأفخاذ، وتتوقّف قوّة القبيلة ومكانتها بين القبائل على عدد أفرادها ومواردها، وكانت قبائل البدو تعيش في الخيام، "أهل الوبر"، أمّا المتحضّرون "المستقرّون" فإنّهم يسكنون بيوتا مبنية من الطين واللّبِن وهم "أهل المدر"، وكان يرأس القبيلة سيّد القبيلة أو شيخها، يشرف على حركتها ويختار مضاربها ويقودها في الحروب والغزوات، وكان أهل الجاهلية لا يسوّدون إلاّ من اجتمعت فيه ستّ خصال: الكرم، والنجدة، والحلم، والصبر، والتواضع، والبيان.

وينقسم المجتمع القبلي في الجاهلية إلى ثلاث طبقات:[1]

- جمهور أبناء القبيلة الصرحاء، خلصاء النسب إلى القبيلة.
- طبقة الموالي الذين اندمجوا في القبيلة عن طريق الحلف أو الجوار.
- طبقة العبيد والرقيق الذين استعبدوا من السبي والنخاسة وعبودية الدين، وكانوا يستخدمون في أعمال الري والزراعة وتربية المواشي وفي الصنائع والحرف اليدوية، كما استخدموا أيضا في الحروب لصالح أسيادهم[2].

---

[1] – ناصر سلامة نواصرة، **التاريخ الاقتصادي للدولة الإسلامية "العهد النبوي"**، عماد الدين للنشر والتوزيع، عمان، 2009، ص:29.

[2] – والواقع أنّه رغم تقارب هذا التقسيم الاجتماعي عند العرب، إلاّ أنّه ليس متماثلا، ففي اليمن، أكثرِ العرب تطوّرا اقتصاديا في تلك الفترة، نجد فئة رجال الدين في قمّة الهرم، يليهم فئة السادة والأشراف ووجهاء القوم، ثمّ المحاربين، ثمّ التجار ذوي الوزن الاقتصادي، ثمّ الفئات الدنيا من الخدم والأجراء، ثمّ العبيد في أسفل الهرم الاجتماعي وهم كثر في اليمن. إنّ امتلاك رجال الدين، الكهنة، حق تأجير أراضي المعبد في اليمن ، وكذلك امتلاك الرسول والأمراء والخلفاء من بعده حق التصرف في الأرض من وهب وتأجير ومنح حق استغلال جعل من يقول إنّ العرب أيضا عرفوا الإقطاعية أو النظام الإقطاعي، الأمر الذي لا نستسيغه باعتبار أنّ الإقطاعية أوسع من أنّ تختصر في امتلاك رجال الدين أو السلطة السياسية حق التصرّف في الأرض. أنظر: نجمان ياسين، **تطوّر الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين**، بيت الموصل، الموصل، 1988، ص ص:59- 65، ص ص:42-45؛ جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص ص:231-245.

جعل الموقع الجغرافي من شبه الجزيرة العربية حلقة وصل بين الشرق والغرب وحتّى الشمال، ولعلّ المياه المحيطة بها من الجهات الثلاث: الخليج العربي شرقا وبحر العرب والمحيط الهندي جنوبا والبحر الأحمر غربا زاد من تميّز المنطقة وترعرع النشاط التجاري، فضلا عن أنّ الجزيرة العربية تتوسّط أعرق الحضارات، فإلى شمالها الشرقي بلاد فارس، وإلى شمالها الغربي بلاد الروم ومصر، وإلى غربها الجنوبي بلاد الحبشة وراء البحر، وفي شرقها الهند والصين وراء البحر أيضا.

وبهذا كانت شبه الجزيرة العربية الممثّلة للعالم العربي آنذاك ملتقى البضائع القادمة من شرق آسيا(الهند والصين) وكذلك القادمة من أوروبا وإفريقيا، وهذا ما جعل هذه الأسواق ذات أهمّية معتبرة.

والواقع أنّه لم تكن التجارة لتزدهر فقط بفعل هذه العوامل الجغرافية المتميّزة لولا الاهتمام المتميّز الذي أعطاه العرب، وبالأخص أهل الحجاز وقريش لهذا النشاط، إذ اعتبروه أشرف المهن وأعلاها قدرا، فأولوها جلّ اهتمامهم، وأنشأوا لها الأسواق، ووفّروا لها الأمن والسلام، ونظّموا قوافلها، وهيّأوا لها ما يلزم لحمايتها وما تحتاج قوافلها من زاد وخدمات، وشجّعوها بعقد الإيلافات[1] والعهود لتنشيطها وتوسيع آفاقها، ونظّموها في مواسم؛ إذ كان هاشم بن مناف من قريش، باعتبارهم آخر من احتكر التجارة من العرب قبل ظهور الإسلام ابتداء من القرن السادس للميلاد، أوّل من سنّ رحلتي الشتاء والصيف المذكورة في سورة قريش من القرآن الكريم[2]؛ بل إنّ قريشا سمّيت بقريش من التقرّش، وهو التكسّب والتجارة، إذ أنّ القرش هو الكسب والجمع[3].

أمّا عن القوافل، فلقد كانت تشقّ شبه الجزيرة العربية قوافل في مختلف الاتجاهات وتأخذ طرقا عدّة نذكر أهمّها:[4]

- الطريق الأوّل؛ كان طريقا موازيا للبحر الأحمر ويمتدّ من أقصى جنوب شبه الجزيرة العربية، مارّا بمكّة إلى شمال جزيرة العرب وحتىّ شواطئ سوريا حيث يبدأ

---

[1] – أخذ أولاد عبد مناف من قريش وهم: هاشم والمطّلب وعبد شمس ونوفل، –وعبدا عند بعض المؤرّخين– الأمان لقومهم من ملوك الأقاليم المجاورة: ملوك الشام والروم وغسّان، والنجاشي الأكبر ملك الحبشة، ومن أكاسرة الفرس، حتّى يدخلوا بتجارتهم في هذه الأقاليم، كما أخذ الإيلاف من قبائل العرب كلّها. أنظر: نجمان ياسين، مرجع سبق ذكره، ص:70.

[2] – ولعلّ هذا كان استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام كما جاء في **القرآن الكريم** "وإذ قال إبراهيم ربّ اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر...." سورة البقرة، الآية 162، وكما جاء أيضا في سورة "إبراهيم" الآية37، وسورة "القصص" الآية57، فرُزقت مكة وأهلها ويُسّرت لهم أسباب الرزق إلى يومنا هذا.

[3] – سعيد الأفغاني، مرجع سبق ذكره، ص:43.

[4] – المرجع السابق:ص:9.

من قتبان ثمّ يمرّ بسبأ ثمّ مكّة المكرّمة ثمّ شمالا إلى ديدان (العلا) ثمّ إلى مدين ومنها إلى أيلة (العقبة حاليا) ثمّ إلى البتراء عاصمة الأنباط ثمّ يتفرّع الطريق إلى فرعين: أحدهما إلى تدمر والثاني إلى وادي الرافدين.

- ينطلق الطريق الثاني من القسم الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة(اليمن)، متّخذا اتّجاها إلى جرهاء، وهي مدينة من المرجح أنّ موقعها على مقربة من ميناء العقير(شمال شرق الهفوف)، ومن هناك إلى وادي الرافدين.
- ويخترق الطريق الثالث شبه الجزيرة العربية عرضا، بدءا من مكّة وانتهاء إلى وادي الرافدين، مرورا بحائل في وسط المسافة تقريبا، ثمّ تتفرّع إلى فرعين، أحدهما يصل إلى مصب الفرات والآخر يصل إلى بابل.
- أما الطريق الرابع فيتفرّع من شمال يثرب في اتجاه شمالي شرقي تدمر، بالإضافة إلى تيماء ودومة الجندل وأماكن أخرى، لينتهي عند وادي الرافدين حيث بابل.

جعلت هذه الطرق الأربعة من الجزيرة العربية جسرا يربط بلاد الشام وحوض البحر الأبيض المتوسط باليمن والحبشة وشرقي إفريقيا وكذا البلاد المطلّة على المحيط الهندي، ولقد ساعد في هذا الربط وجود عدد من الثغور البحرية أهمّها: الشعيبة ومي مرفأ مكّة القديم، وينبع وهي ميناء يثرب، والجرعاء على الخليج العربي، وعدن في اليمن؛ موانئ ساهمت في ازدهار التجارة البحرية.

تكرّس هذا الاهتمام بالتجارة في الاجتهاد في تنظيم أسواق محلّية موسمية كسوق عكاظ، ومجنّة، وذي المجاز، وسوق بني قينقاع، وسوق بدر، وسوق دوبة الجندل، وأسواق البحرين واليمامة والوحدات، وسوق الرابية بحضرموت وسوق حباشة في تهامة اليمن. وكانت أعظم هذه الأسواق في مكّة، ولعلّ أهمّها سوق عكاظ، حيث كانت تقام صبيحة هلال ذي القعدة إلى أن يمضي عشرون يوما، ثمّ تقام سوق مجنّة عشرة أيّام إلى هلال ذي الحجّة، ثمّ تقام سوق المجاز ثمانية أيّام ثمّ يتوجّه أهل هذه الأسواق إلى الحج[1].

هذا وجدير بالذكر أنّه فرضت في هذه الأسواق ضرائب المكس من طرف السادة أو الملوك، وكذا ضرائب على الأرباح، إذ وصلت نسبتها إلى غاية عشرة بالمائة في اليمن، وضرائب حمائية أيضا يأخذونها ممّن لا يربط العرب بهم أيّ حلف، فيطبّقون عليهم ضريبة العشور.

أمّا عن موضوع التجارة فهناك عدد من السلع والمواد منها: الأقمشة الثمينة، والآنية الفضّية والنحاسية، والطيب، والبخور، والصموغ العطرة، والأخشاب الزكية، وجلود الفهود، والذهب

[1] – أنظر للتفصيل والتعمّق، سعيد الأفغاني، مرجع سبق ذكره، ص ص:86–173.

والمجوهرات، والمنسوجات الحريرية، والمعادن، والأسلحة، والتوابل، والقمح، وزيت الزيتون، والتمر، والعنب[1].

لم تكن التجارة النشاط الاقتصاديَّ الوحيد عند العرب، فرغم المناخ الصحراوي، وبغضّ النظر عن مكة التي قال عنها إبراهيم عليه السلام واد غير ذي زرع كما جاء في القرآن الكريم، كان للنشاط الزراعي باع في مناطق أخرى باستحداث نظم تخزين مائية لتخزين الأمطار الموسمية، وحفر الآبار في الوديان والواحات، واستغلال المياه الجوفية القريبة من سطح الأرض، وبناء السدود كسدّ مأرب؛ كما استعمل الفلاحون والزرّاع المحاريث والفؤوس والمناجل واستخدموا الحيوانات في الحرث وانتشال الماء من الآبار.

ففي الطائف أين نجد خصوبة التربة ووفرة المياه ولطف الجو صيفا كانت رائدة في مجال الزراعة، ما جعل منها القرية الثانية بعد مكة، حيث قال الله تعالى "وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم"[2]، إذ اتخذ أثرياء مكة مزارع خاصة لهم في الطائف، وكان للصحابي عمر بن العاص بستان بلغ عدد شجره مليون كرمة مرفوعة على مليون خشبة، دليل عن ترعرع النشاط الزراعي في الطائف.

ولقد اشتهرت الطائف بزراعة الحنطة والنخيل والرمان والخوخ والتين والبطيخ والسفرجل والأعناب كما سبق الذكر، وكانت تحقق فائضا عن استهلاكها.

كما نجد يثرب حيث الأراضي البركانية الخصبة ومياه الأودية والآبار والعيون، والتي اشتهرت بزراعة النخيل والشعير والقمح والعنب والبطيخ أيضا؛ وكان كبار ملاك الأراضي في يثرب يستثمرون أراضيهم بطريقة المؤاجرة، أو المغارسة، أو المزارعة بالربع أو الثلث أو نصف الناتج أو أقلّ من ذلك أو أكثر.

وكذلك وصفت اليمامة باعتبارها من أخصب البلاد أرضا ومن أكثرها مياها وزرعا ونخلا وخيرا، اشتهرت بالحبوب والنخيل.

وفي اليمن، كانت الزراعة متقدّمة أكثر من غيرها لدرجة أنّ اليمن سمّيت بالخضراء، وكانت زراعتها تعتمد على مياه الأمطار والري الاصطناعي، حيث أقيمت السدود والأحواض أهمها سدّ مأرب الذي انهار في القرن السادس ميلادي وأثّر سلبا على الزراعة اليمنية، فأضحى المزارع اليمني يميل لزراعة المحاصيل المقاومة للجفاف كالقمح والسمسم والكروم والقطن والنخيل[3].

---

[1] – ناصر سلامة نواصرة، مرجع سبق ذكره، ص ص:24–25.

[2] – القرآن الكريم، سورة الزخرف، الآية:31.

[3] – نجمان ياسين، مرجع سبق ذكره، ص ص:68–81؛ ناصر سلامة نواصرة، مرجع سبق ذكره، ص ص:44–46.

نجد بالإضافة إلى النشاط الزراعي النشاطَ الرعوي، إذ تشكّل البادية معظم مساحة شبه الجزيرة العربية، يعمل البدو على تربية الماشية والرعي حيث تعتبر الأنعام مصدر عيشهم، ولاسيما الإبل أوّلا، ثمّ الغنم والخيل ثانيا. تستعمل الإبل للنقل والحيك والأكل، واتخذها العرب مقياسا للثروة والمال، وبها تحدّد أثمان السلع والأشياء، وتقدّر بها حتّى الديّات والفدية والمهور.

وعرفت شبه الجزيرة أيضا حرفا عدّة كالغزل والنسيج لتلبية حاجات الثياب والأقمشة والخيام والبسط، وكانت دباغة الجلود من أشهر الحرف في شبه الجزيرة العربية، وكانوا يصنعون الجفان والقرب والنعال ومواد أخرى تستعمل في البيوت، كما عرف العرب صناعة الفخار والأواني الفخارية، إذ صنعوا الجرار والقلال والقدور والجفان والأباريق والأكواب لتخزين المواد الغذائية، واشتهرت مكة واليمن بهذه الحرف أكثر من غيرها. وكانت العرب أيضا تصنع الخمور من العنب والحبوب والعسل، وعرفت تجفيف التمر والعنب والأسماك الصغيرة كشكل من الحرف الغذائية إن صحّ تسميتها كذلك[1].

عند التكلم عن العالم العربي الجاهلي لا بدّ من التطرّق إلى بعض السلوكيات أو التعاملات الاجتماعية الذميمة التي أنكرها الدين الحنيف وحرّمها، كالوأد وقهر المرأة. واقتصاديا لا بدّ من أن نتكلّم عن التعامل بالربا الذي كان مضاعفا، كانت له آثار اجتماعية واقتصادية وخيمة، ما جعل الربُّ سبحانه يحرِّمها ويأذن بحرب على من لم يتركها.

2- عرب الجاهلية والعالم الخارجي

أثّر الوجود السياسي للقوى الأجنبية على الحياة العربية، وجعل خط التطوّر في مرافقها الاقتصادية ينحسر أو يتوقّف على الأقل لفترة معيّنة، إذ تعرّضت المجتمعات العربية لأزمة حادّة في القرن السادس للميلاد بعد ما تكالبت عليها الدولتان القويّتان، الرومانية البيزنطية في الغرب؛ والساسانية الفارسية في الشرق، فاستولى الساسانيون على كيان المناذرة في العراق، وألغى المناذرة على كيان الساسانيين في الشام، وكان لكلّ طرف عملاؤه من بعض قبائل العرب دون غياب تام للحميّة العربية، التي كانت تستوقد بين الفينة والأخرى، فكانت تدور مناوشات بين العرب والفرس، إلى أن جاءت وقعة ذي قار بين القبائل العربية والفرس وكان فيها أوّل انتصار للعرب على الفرس،

[1] – المرجعين السابقين على الترتيب، ص ص:46–51، ص ص:23–51؛ أنظر أيضا: سعيد الأفغاني، مرجع سبق ذكره، ص:14، ص ص:21–22.

وقال فيها الرسول الكريم–ﷺ– "اليوم انتصف العرب من العجم وبي نصروا" مشيرا إلى ظلم الفرس للعرب[1].

3- العرب المسلمون أو بالأحرى العالم الإسلامي

3-1 الدولة الإسلامية الأولى

ينطلق بناء هذا العالم العربي الجديد من مكة المباركة وعن نبي الله ورسوله محمد–ﷺ–، الذي نُبّئ بإقرأ، وأُرسل بالمدثّر في بدايت القرن السابع بدين الإسلام للناس كافة، كما جاء في القرآن الكريم "وما أرسلناك إلاّ كافة للناس بشيرا ونذيرا"[2] وكما جاء على لسانه الشريف–ﷺ–:"...وأرسلت إلى الخلق كافة... "[3]. ولقد بدأ عليه الصلاة والسلام في نشر دين الله الحنيف في سرية، إذ أخذ يدعو إليه أصحابه المقرّبين وأهل بيته، ثمّ سُمح له –ﷺ– بالجهر مع الصبر على أذى قومه الرافضين لهذا الدين الجديد، وبعد ثلاثة عشر سنة من الدعوة جهرا، شق على المسلمين أذى قريش فهاجر الرسول–ﷺ– مع أصحابه المهاجرين إلى المدينة المنوّرة.

ما إن وصل رسول الله محمّد عليه السلام إلى المدينة المنوّرة حتّى بدأ يعدّ لإعلان قيام الدولة الإسلامية ككيان سياسي بين الكيانات السياسية في العالم، وكسلطة لمن يستظلّون بظلّها ويعيشون بكنفها، فشرع ببناء المسجد باعتباره المقر الرسمي للدولة، منه تصدر القوانين، وفيه تناقش الأمور، ومنه تذاع البلاغات، وفيه يفصل في الخصومات؛ فأصبحت يثرب معقل الإسلام وأضحت تعرف بمدينة رسول الله –ﷺ–.

شرع رسول الله في بناء دولته على ثلاثة مبادئ:

- الأخوة في الله، وهي الرابطة التي تربط المسلمين بعضهم ببعض، والتي تعطي حق الولاية– النصح وفك العسرة والنصرة–، فآخى بين المهاجرين الذين هاجروا معه والأنصار من المدينة الذين نصروه واستقبلوه، وبحكم الأخوّة في الدين ولد المجتمع المسلم أو الأمّة المسلمة أمّة من دون الأمم[4].

---

[1] – نجمان ياسين، مرجع سبق ذكره، ص: 34؛ أنظر أيضا: ألبرت حوراني، مرجع سبق ذكره، ص:38.

[2] – القرآن الكريم، سورة سبأ، الآية:28.

[3] – قال رسول الله –ﷺ– "فضلت على الأنبياء بست : أعطيت جوامع الكلم ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب: المساجد، باب المساجد، حديث رقم 1195.

[4] – كتب رسول الله ﷺ كتاب صرّح من خلاله تصريحا صريحا عن نشأة الأمّة المسلمة جاء نصّه: " هذا كتاب من محمّد النبي بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب، ومن تبعهم فلحق بهم، وجاهد معهم. إنّهم أمّة واحدة دون النّاس، ....."

- الوقوف إلى جانب الضعيف حتّى لا تكون ثغرة ضعف في البنيان الاجتماعي المسلم، وبدأ بكسر روابط العبودية في المجتمع، وأوصى بالرفق بالمرأة والرقيق.
- التعاون مع الدولة الإسلامية على تطبيق الأحكام الشرعية التي تعمل على اقتلاع الشر ونشر الخير في المجتمع، وفق إرشادات إلهية[1].

وبما أنّ رسالة الرسول كانت للناس كافّة، اهتمّ بعد بسط سيادة الدولة الإسلامية على الجزيرة العربية، بالتعامل مع الدول المجاورة، فارس والروم، أعظم دولتين في تلك الفترة، وخيَّرهما بين الإسلام، أو السلم، أو الحرب.

اكتمل البناء التشريعي للدولة المسلمة والمجتمع المسلم طيلة حياة الرسولﷺ، ختمها بخطبة الوداع التي ألقاها أمام أكثر من مائة ألف مسلم، وأثبت فيها نهاية التشريع؛ وبعد حوالي 23 سنة من الدعوة توفي رسول الله محمد-ﷺ-، وحدود دولة الإسلام تشمل الجزيرة العربية كلّها، وتولّى أبو بكر الصديق الخلافة من بعده ليكون أولّ الخلفاء الراشدين.

3-2 الخلافة الراشدة11-40هـ/632-660م

الخلفاء الراشدون هم الأئمة الأربعة، أبو بكر وعمر وعثمان وعلي -رضي الله عنهم أجمعين- وهم الذين خلفوا رسول الله -ﷺ- في قيادة الأمة، ومدة خلافتهم من انتقاله -ﷺ- إلى الرفيق الأعلى في 12 ربيع الأول سنة 11هـ إلى مقتل علي بن أبي طالب في 17 رمضان سنة 40 هـ، تسع وعشرون سنة وستة أشهر وخمسة أيام. وإذا أضيفت لها خلافة الحسن بن علي من مقتل أبيه حتّى تنازله لمعاوية بن أبي سفيان تكون ثلاثين سنة بالتمام، وقد اختصوا بوصف الراشدين لصفات تميزوا بها في سلوكهم الذاتي وفي إدارتهم لشؤون الأمة ورعايتهم لدينها وعقيدتها وحفاظهم على النهج الذي جاء به رسول الله -ﷺ- من الدعوة، والجهاد، وإقامة العدل، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر[2].

3-2-1 خلافة أبي بكر11هـ-13هـ/632م-635م

بعد وفاة الرسول-ﷺ- تولّى أبو بكر الخلافة وكان أوّل عمل قام به هو أنّه سيّر جيشا قد كان جهّزه رسول الله -ﷺ- قبل موته لفتح الشام. وتعرّضت الدولة الإسلامية في عهده إلى بعض

أنظر: محمد حسين العيدروس، **الدولة الإسلامية الأولى(السيرة النبوية الشريفة لرسول الله محمدﷺ)**، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2001، ص:152.

[1] - المرجع السابق، ص:263؛ جمال الدين الشيّال، **دراسات في التاريخ**، مكتبة الثقافة الدينية، الإسكندرية، 2000، ص:11.

[2] - علي بن نايف الشحود، **مَعَالِمُ عَصْرِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِيْنَ** ، دار المعمور، بهانج، 2009، ص:4.

محاولات الانشقاق، إذ ارتد بعض من أسلم في عهد الرسول –ﷺ– بعد موته، وأظهر بعض الأقوام عصيانهم بامتناعهم عن أداء الفرائض المالية المتمثلة في الزكاة، فشنّ عليهم رضي الله عنه الحرب حتى أخضعهم لدين الله بعد حروب ضارية؛ كما عزّز حراسة حدود الدولة الإسلامية وواصل فتوحاته، إذ أرسل الجيوش تقاتل أكبر مملكتين فارس، والروم في الشام أين وصلت جيوش المسلمين إلى اليرموك.

كما لا بدّ من ذكر اجتهاد أبي بكر في جمع القرآن لحفظ هذا الدين[1].

3-2-2 خلافة عمر بن الخطاب13هـ-23 هـ/634م-644م

تولّى عمر بن الخطّاب الخلافة والمسلمون يقاتلون في اليرموك، وتحت خلافته واصلت فتوحات الشام إذ فتحت حمص، حماة، قنسرين، اللاذقية، حلب وفتحت دمشق وفرّ "هرقل" ملك الروم إلى القسطنطينية وهو يقول: "عليك يا سوريا السلام ونعم البلد". ثمّ انتصر المسلمون في أجنادين وأخضعوا عسقلان ونابلس ويافا والرملة وغزّة وبيروت، ثمّ اتجهوا إلى بيت المقدس في فلسطين وحاصروها أربعة أشهر ليتسلّم الخليفة عمر مفاتيح بيت المقدس سنة 16 هـ/637م لينتهي النفوذ الروماني البيزنطي في بلاد الشام[2].

بعد استكمال فتح الشام أراد المسلمون تأمينها بفتح مصر أين اجتمعت فلول جنود الروم، وكان لهم الفتح سنة20هـ/641م، ومن مصر انطلقوا إلى برقة في ليبيا غربا وجنوبا إلى بلاد النوبة[3].

كما تابع المسلمون فتوحاتهم من جهة الفرس، فكان لذلك عدّة مواقع ومعارك وحروب، كموقعة الجسر13هـ/634م، ومعركة البويب15هـ/637م، ومعركة القادسية15هـ/637م التي قتل فيها رستم قائد الفرس، ومعركة جلولاء16هـ/637م التي من خلالها تمّ فتح الكوفة، ومعركة المدائن أين توغّل المسلمون في بلاد العراق ووصلوا إلى عاصمة الفرس "طيسفون"، وحاصروها مدّة شهرين سنة16هـ/637م واستولى عليها المسلمون وأطلق عليها اسم "المدائن"، ومعركة نهاوند21هـ/642م التي سمّيت بفتح الفتوح أين قضي على فارس[4].

كما أرسل الخليفة الجيوش لفتح أرمينية وتواصل الفتح حتىّ جبال القوقاز.

---

[1] – بدر عبد الحميد هميسه، **تلخيص التاريخ الإسلامي**، 2008/11/15،ص ص:7-8. أنظر: www.abby.com

[2] – محمد عبد الله عودة، حكمة فرحات، إبراهيم ابن الخطيب، **مختصر التاريخ الإسلامي**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1989، ص:20.

[3] – بدر عبد الحميد هميسه، مرجع سبق ذكره، ص:9.

[4] – محمد عبد الله عودة وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص:19.

ولقد عرفت هذه المرحلة أيضا وضع أسس النظم الإدارية للدولة الإسلامية التي كان لها الأثر الكبير في استقرار الدولة وحسن تسييرها، فلم يكن يُسمح لغير المسلمين بالبقاء في شبه الجزيرة العربية لضمان استقرار الدولة؛ و أسّس في هذه المرحلة الديوان الذي سجّل فيه مجتمعه، إذ بدأ بتسجيل المهاجرين من بني هاشم بدءا بعم الرسول-ﷺ- ثمّ الأقرب فالأقرب، ثمّ انتهوا إلى الأنصار إذ بدأ برهط سعد بن معاذ ثمّ الأقرب فالأقرب. كما أنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الجند وما يخص كلا منهم من العطاء، وديوان الخراج لتدوين ما يرد إلى بيت المال وما يفرض لكل مسلم من العطاء.

كما قسم البلاد حين اتسعت إلى ولايات عدّة: ولاية الأهواز والبحرين، ولاية سجستان ومكران وكرمان، ولاية طبرستان، خراسان، وجعل بلاد فارس ثلاث ولايات العراق، والكوفة والبصرة، وقسّم بلاد الشام إلى ولايتين: حمص ودمشق، وجعل فلسطين ولاية قائمة بذاتها، أمّا إفريقيا فقسّمت إلى ولايات مصر العليا ومصر السفلى، وغرب مصر وصحراء ليبيا؛ وجعل على كلّ ولاية واليا يؤمّ بالناس ويقود الجند ويشرف على جمع المال.

ولقد أنشأ عمر بن الخطاب بيت المال لحفظ مال الدولة وطوّر نظامه، وتعدّدت موارده من زكوات وخراج وجزية وعشور؛ وأقرّ النظم المالية الساسانية في العراق والنظم المالية البيزنطية في الشام ومصر، وأبقى على العملات المتداولة في الدول المفتوحة، وذلك باعتبار أنّ العرب كانوا يتعاملون بها في تجاراتهم، ولذلك اكتفى بتمييزها ببعض العبارات الإسلامية فقط.

كما قام عمر ببناء وتشييد المدن، فبنى البصرة والكوفة والفسطاط. وأقر عمر نظام العسس في الليل في المدن لحفظ الأمن، كما فصل القضاء عن السلطة السياسية[1].

3-2-3 باقي الخلافة الراشدة 23-40هـ/643-660م

انتقلت الخلافة بعد عمر لعثمان بن عفّان رضي الله عنه23-35هـ/643-635م، واجتهد في توطيد وحماية حدود الدولة الإسلامية، فقد امتدت حدود الدولة الشرقية إلى أفغانستان وإيران، وغربا إلى تونس وفتحت قبرص؛ إلاّ أنّ عهده رضي الله عنه كان مشهودا له بالتوتّر وعدم الاستقرار إلى أن قتل رضي الله عنه، فخلفه علي بن أبي طالب رضي الله عنه35-40هـ/655-660م، وشهدت عهدته هو الآخر توتّرا وعدم استقرار، ليُقتل هو أيضا وتنتهي بذلك الخلافة الراشدة.

[1] – محمد عبد الله عودة وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ص:23-25.

تنتهي الخلافة الراشدة وينتهي معها مبدأ الشورى في انتقال الحكم ويتحوّل إلى حكم وراثي، ويصير "معاوية بن أبي سفيان" رضي الله عنه أوّل ملك إسلامي، وصارت دمشق عاصمة المملكة الأموية.

3-3 الدولة الأموية40-122هـ/660-750م

حاولت الدولة الأموية توسيع رقعتها بمواصلة الفتوحات، حاولت من خلالها إخضاع القسطنطينية عاصمة البيزنطيين، فكانت لها مع الروم حروب متواصلة، وفي إفريقيا فتحت طرابلس وجنوبا إلى السودان بقيادة "عقبة بن نافع"، وشيّدت مدينة القيروان سنة50هـ/670م، ثمّ واصل "عقبة" الفتوحات حتّى وصل إلى المحيط الأطلسي غربا، وبعد مدّ وجزر فتحت المغرب نهائيا وطرد منها الروم، وغُلبت البربر تحت قيادة الكاهنة سنة 83هـ/802م، وبحسن إسلام البربر فتحت الأندلس بقيادة "طارق ابن زياد"، وواصل فتوحاته حتّى اشبيلية وبرشلونة وطليطلة، وواصلوا التقدّم شرقا في أوروبا حتّى جبال البرانس.

وفي الشمال وصلت الفتوحات حتّى جزر رزم وبخارى وسمرقند وشمال السند كشمير وإلى بعض الصين أيضا سنة 96هـ/714م؛ إذ أنّه لم تصل الفتوحات الإسلامية إلى ما وصلت إليه في العهد الأموي[1].

وبغضّ النظر عن التذبذبات التي عاشتها الدولة الأموية التي حكمها أربعة عشر خليفة طوال الواحد وتسعين سنة، إلاّ أنه يمكن القول إنّ هذه الدولة كانت تمثّل عالما إسلاميا موحّدا ومزدهرا، بلغ درجة من الرقي يمكن تلخيص معالمه في:

- بحكم التوريث الإداري الذي ورّثه عمر بن الخطاب من جهة، وبحكم المحاكاة بالعالم الغربي من جهة ثانية، وبحكم اجتهاد الخلفاء أيضا، بلغت الدولة الأموية درجة من التنظيم الإداري، فلقد استحدثت الدولة مهام ومناصب وبروتوكولات لم تكن في الخلافة الراشدة كالوزراء، والحجّاب، وتنوّع وتعدّد الكتّاب بينما كان في عهد النبوّة والخلافة الراشدة كاتبا واحدا.
- ومن حيث التنظيم الإداري كانت هنالك عدّت دواوين، منها ديوان الخراج والرسائل والمستغلاّت والإيرادات المتنوّعة، ديوان الخاتم، وأصبح البريد الذي عرفه عمر بن الخطّاب من قبل ديوانا مستقلا تخصّص له الموارد، وكانت هنالك شرطة قائمة على حفظ النظام، وكانت هنالك الحسبة التي هي بمثابة هيئات الأمر بالمعروف

[1] – بدر عبد الحميد هميسه، مرجع سبق ذكره، ص:14.

والنهي على المنكر؛ وكذلك ديوان المظالم في عهد الملك بن مروان. ونظرا لتوسّع البلاد قسّمت الدولة إلى خمس ولايات ولّي على رأس كل ولاية والٍ، وعيِّن عمال يسهرون على شؤونها، وتتمثّل هذه الولايات في:[1]

- الحجاز واليمن وأواسط بلاد العرب.
- مصر بقسميها السفلي والعلوي.
- العراق ويشمل: عراق العرب(بابل وآشور)، عراق العجم(فارس)، عمان والبحرين، سجستان وكرمان وكابل أفغانستان، خرسان، بلاد ما وراء النهر، السند وبعض أقسام البنجاب.
- بلاد الجزيرة(شمال سوريا)، وأرمينيا وأذربيجان، وبعض أجزاء آسيا الصغرى.
- إفريقيا، وتشمل بلاد المغرب العربي والأندلس وصقلية والبليار وعاصمتها القيروان.

وفي الجانب المالي حافظت الدولة الأموية تقريبا على النظام المالي العمري من بيت مال المسلمين من أجل إنفاقها في النفع العام.

أمّا في الجانب النقدي فلقد ظهرت النقود الإسلامية في عهد الدولة الأموية على مرحلتين، في المرحلة الأولى تمّ استعمال الدنانير البيزنطية إذ بتر أعلى الصليب وأحيط بعبارة التوحيد في الوجه الأوّل، وفي الوجه الثاني أبقي على صورة هرقل؛ وفي المرحلة الثانية أبعد عبد الملك بن مروان التأثيرات البيزنطية نهائيا بأن نقش صورته بدل صورة هرقل، وفي الوجه الثاني نقشت العبارة الثانية على حافة الدينار "بسم الله ضرب هذا الدينار سنة ست وسبعين"؛ وظهر أوّل دينار إسلامي خالصا في سبع وسبعين.

تتجسّد لنا معالم الحضارة والتفوّق في العمران الذي شيِّدَ أو جدِّدَ في العصر الأموي، ويتعلّق الأمر بالمدن كمدينة القيروان، وبالقصور، وبالمساجد أيضا كالمسجد الأموي، والمسجد الأقصى وقبة الصخرة المشرّفة، وجامع القيروان وجامع الزيتونة والمسجد الجامع بالإسكندرية المعروف بمسجد الألف عمود، وكذا توسيع المسجد النبوي وعدد آخر من المساجد[2].

---

[1] – محمد عبد الله عودة وآخرون، مرجع سبق ذكره،ص:57؛ أنظر أيضا: جورجي زيدان، **تاريخ التمدّن الإسلامي**، ج1، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، [د.ت]، ص ص:107–108.

[2] – محمد عبد الله عودة وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ص:68–70.

كما حظيت مختلف العلوم باهتمام بالغ من طرف الدولة الأموية، فبالإضافة إلى العلوم الشرعية وعلوم الأدب، اهتم الأمويون بالطب وكوّنوا معاهد لتخريج الأطباء، وترجموا كتب اليونانيين في الطب، واهتمّوا بالتاريخ أيضا والكيمياء[1].

ويمكن تمثيل المجال المكاني للدولة الإسلامية أو العالم الإسلامي في هذه الخارطة المبينة في الشكل التالي:

شكل رقم7: توسّع العالم الإسلامي من الدولة الإسلامية الأولى حتى الدولة الأموية

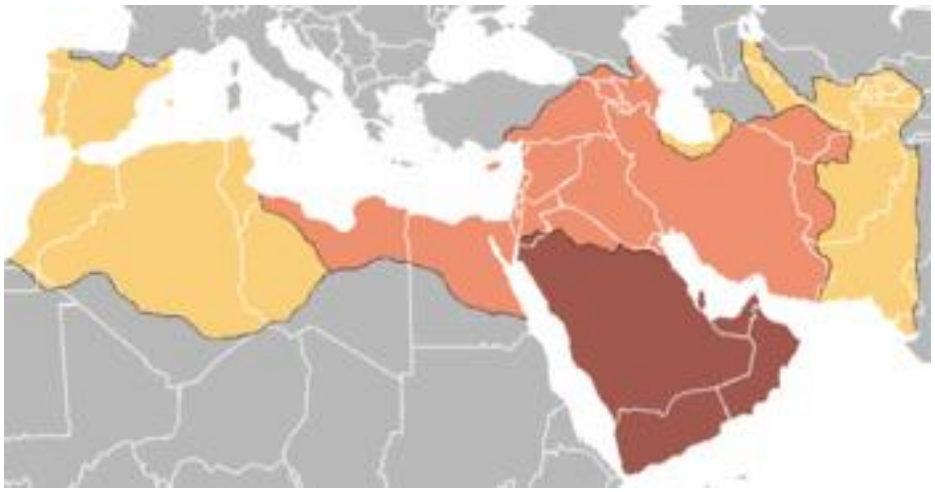

توسع الدولة الإسلامية في عهد محمدﷺ ، 612-632 توسع الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الراشدين، 635-680 توسع الدولة الإسلامية في عهد الخلفاء الأمويين, 661-750

المصدر: ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة، [على الخط]، http://ar.wikipedia.org/wiki/خلافة_إسلامية، 2013./4/22

3-4 الدولة العباسية 112-606هـ/750-1256م

على إثر ضعف الخلافة الأموية، جاءت الدولة العباسية على يد أبي العبّاس السفّاح122هـ/750م، الذي انطلقت دولته من خرسان، متجها إلى بغداد التي اتخذها عاصمة له، ثمّ إلى دمشق والشام لإسقاطها وبذلك إسقاط الدولة الأموية[2]؛ ودامت هذه الدولة قرابة الخمسة قرون حتّى 606هـ/1258م.

[1] – المرجع السابق، ص ص: 74-76.

[2] – تجدر الإشارة إلى فرار بعض أمراء الدولة الأموية إلى المغرب الأقصى والأندلس، حيث أقاموا دولة مستقلّة فيها.

مرّت الدولة العباسية بمراحل أو عصور جدّ متباينة الخصائص لخّصها المؤرخون في خمس مراحل: [1]

3-4-1 العصر الذهبي133-222هـ/761-850م

تميّز هذا العصر بقوّة الخلفاء، ومنه بقوّة الدولة التي تجسّدت أيضا في ازدهار وترعرع الحضارة الإسلامية، والاستقرار الداخلي والقدرة على حماية الحدود، ولعلّ أهمّ ما ميّز هذا العصر سيطرة الفرس على الدولة كونها انطلقت من خرسان.

3-4-2 العصر التركي222هـ-334هـ/850-945م

تميّز ببدء ضعف الخلفاء بعد تغلغل الأتراك في الحكم، واستقطبوا بذلك الأتراك الذين نزح منهم قرابة المليون إلى بغداد. وقد عُرف هؤلاء الأتراك بالاستبداد، جعل الدولة تدخل في فوضى عارمة أدّى إلى تشتّتها، فقامت دول عدّة كالدولة الحمدانية في الموصل، والصفارية في سجستان، والطولونية في مصر وبعدها الدولة الأخدشية، والأدارسة في شمال إفريقية، ولم يبق في مرحلة من المراحل بيد الخليفة إلاّ بغداد في حين اشتدّت غزوات الروم على سوريا.

3-4-3 العصر البويهي334-447هـ/945-1055م

كان البويهيون من الشيعة، ونازعوا الأتراك على السلطة، في حين احتفظ خلفاء هذه المرحلة بالاسم فقط. وبتغلّب الشيعيين في ظل الفوضى وعدم الاستقرار، أصبح العالم الإسلامي يحكمه ثلاثة خلفاء: العباسي في بغداد، والفاطمي في القاهرة- شمال إفريقيا مصر وسوريا-، وكانتا خلافتين شيعيتين؛ والأموي في الأندلس؛ كما استقلّت الدولة الغزونية في أفغانستان وغربي الهند.

3-4-4 العصر السلجوقي447-547هـ/1055-1152م

أعاد السلاجقة، وهم من أصل تركي، توحيد الدولة الإسلامية، فامتدّت حدودها من الصين شرقا إلى المتوسّط غربا، ومن بحر العرب جنوبا إلى بحر قزوين شمالا. وأصبحت السنّة مذهبا رسميا للدولة، ففتحت المدارس والزاوايا وسخّرت المساجد لنشره؛ كما استرجعت بعض الثغور من البيزنطيين.

[1] - محمد عبد الله عودة وآخرون، مرجع سبق ذكره، ص ص: 90-112.

3-4-5 عصر انتعاش سلطة الخلفاء العباسيين547-656هـ/1152-1258م

إثر موت السلطان مسعود سنة552هـ/1152م وضعف السلاجقة، انقسمت الدولة من جديد إلى دول من سلاجقة وأتابكة، وكان من أقوى الدول دولة شاه خوارزم في الشرق وعماد الدين الزنكي في الموصل وحلب، وابنه نور الدين الذي وحّد بلاد الشام ومصر وألغى الخلافة الفاطمية.

كانت هذه المراحل الأساسية التي مرّت بها الخلافة العباسية، تخلّلتها اضطرابات كثيرة أثّرت على تطوّر الاقتصاد والحضارة بصفة عامة؛ وعلى الفتوحات الإسلامية أيضا إذ لم يتم فتح إلاّ بعض الجزر كجزيرة كريت وصقلية وكذا جنوب إيطاليا وبصفة مؤقّتة.

ضعفت الخلافة العباسية في القرن السابع هجري ضعفا شديدا لدرجة أنّها لم تعد تسيطر في حقيقة الأمر إلاّ على العراق محافظة على بغداد عاصمة لها، وحول العراق عشرات من الإمارات المستقلّة استقلالا كلّيا عن الخلافة، وإن كانت لا تعلن نفسها كخلافات منافسة للخلافة العباسية، وهكذا أضحت الخلافة العباسية صورية ورمزا أراد المسلمون أن يحافظوا عليه رغم ضعفه وهوانه. ويمكن ذكر هيكلة العالم الإسلامي بالإضافة إلى العراق كما يلي:[1]

- مصر والشام والحجاز واليمن: كانت هذه الأقاليم في أوائل القرن السابع هجري في أيدي الأيوبيين أحفاد صلاح الدين الأيوبي، الذين تنازعوا على الحكم وقسّموا الدولة الموحّدة التي كانت تمتد من غرب العراق إلى ليبيا إلى مملكات صغيرة متناحرة، فاستقلّت الشام عن مصر، واستقلت كل من الحجاز واليمن عن مصر والشام، وقسّمت الشام إلى إمارات متعدّدة متحاربة، فانفصلت حمص عن حلب ودمشق، وكذلك انفصلت فلسطين والأردن، ثمّ جاءت سلطنة المماليك المصرية التي عايشت التتار وغلبتهم في واقعة عين جالوت وحرّرت بلاد الإسلام منهم واستمرت حوالي قرنين ونصف من الزمن.
- بلاد المغرب والأندلس: كانت تحت إمرة "دولة الموحدين"، وقد كانت دولة قوية تمتدّ مساحتها من ليبيا إلى المغرب ومن الأندلس شمالا إلى وسط إفريقيا جنوبا.
- خوارزم: تضم معظم البلاد الإسلامية في قارة آسيا، تمتد حدودها من غرب الصين شرقا إلى أجزاء كبيرة من إيران غربا، وكانت على خلاف وصراع دائمين مع الخلافة العباسية ومع غيرها من الدول الإسلامية، وكانت في بعض فتراتها متشيّعة.

---

[1] – راغب السرجاني، **قصّة التتار من البداية إلى عين جالوت**، مؤسسة أقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة ، 2006، ص ص:11-13.

- الهند: كانت تحت سلطان الغوريين في ذلك الوقت، وقد نشبت بينها وبين خوارزم حروب كثيرة ومتكرّرة.
- فارس: وهي إيران حاليا، كانت أجزاء منها تحت سلطان الخوارزميين، وكانت الأجزاء الغربية منها والملاصقة للخلافة العباسية تحت سيطرة الطائفة الإسماعيلية، طائفة شيعية أخلطت الفلسفة بالدين فحرّفت هذا الأخير، كان "الملك والسلطان" من أهم مطالبهم.
- الأناضول "تركيا": تحكم هذه المنطقة سلاجقة الروم، وأصولهم كما سبق الذكر من تركيا، وكان لهم تاريخ عظيم في الخلافة العباسية كما سبق وأن أشرنا، إلا أن الأحفاد الذين حكموا هذه المنطقة المحاذية للإمبراطورية البيزنطية كانوا على درجة من الضعف، حال ميّز الدويلات الإسلامية جميعها.

ويمكن أن نقرأ اتّساع مجال العالم الإسلامي في عهد الدولة العبّاسية وكذا هيكلته خلال القرن السابع هجري، الحادي عشر ميلادي، في الشكل التالي.

شكل رقم8 : الدويلات والإمارات الإسلامية في أوائل القرن الحادي عشر

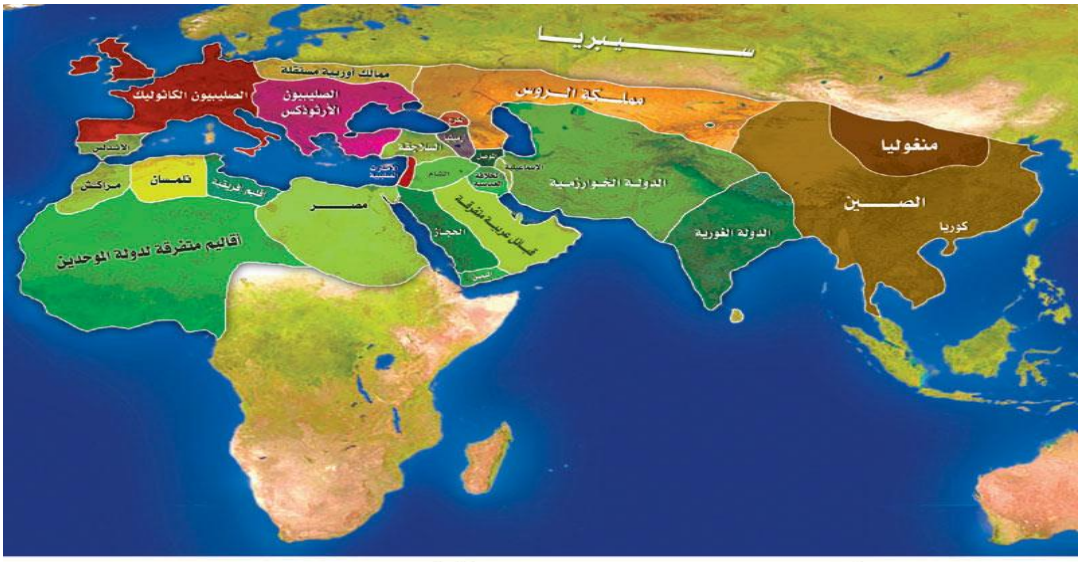

خريطة(٢): الدويلات و الإمارات الإسلامية في أوائل القرن السابع الهجري

المصدر: راغب السرجاني، مرجع سبق ذكره، ص:402.

وظلّت تقريبا هذه المساحةُ المساحةَ التي شغلها العالم الإسلامي في عصر الخلافة العبّاسية، الذي اتّسع نطاقه في ظلّها حتّى صار أوسع ما بلغه، بغضّ النظر عن خروج بعض

الدول أو الولايات عن سيطرة العباسيين، كالأندلس لمّا تولّاها بنو أميّة، واستقلال بعض الدول أيضا، فأمراء الدول كلّهم كانوا يخطبون للخليفة العبّاسي إلاّ في الأندلس[1].

من رؤية اقتصادية، يمكن تطبيق نظرية المركز في قراءة العالم الإسلامي، وذلك باعتباره مكوّنا من ثلاث مساحات شاسعة، لكلّ منها مركز قوّتها، إذ نجد أوّل هذه المناطق إيران وجنوب العراق التي ظلّ مركز قوّتها متمثّلا في بغداد التي تقع في قلب المنطقة الزراعية الغنية والشبكة التجارية الواسعة، وهذا بحكم النفوذ والمكانة المتراكمين على مدى قرون من الحكم العبّاسي، فيما تمثّلت المنطقة الثانية في مصر وسوريا وغرب الجزيرة العربية، وتمثّل مركزها في القاهرة التي بناها الفاطميون وسط ريف كثيف خصب منتج في قلب النظام التجاري الذي ربط العالم الهندي بعالم البحر الأبيض المتوسّط، أمّا المنطقة الثالثة فتتمثّل في المغرب والأندلس، منطقة لم يكن فيها مركز قوّة مسيطر بل عدّة مراكز تقع ضمن مناطق من الزراعة الكثيفة في نقاط تتحكّم في التجارة بين إفريقيا وعالم البحر المتوسّط[2].

وعلى هذا وبالنظر إلى طبيعة هذه المراكز، يمكن القول إنّ المدن لم تكن هيكلة خاصة بالعالم الأوربي، وإنّما نجدها أيضا في العالم الإسلامي. إذ امتدّت من طرف العالم الإسلامي إلى طرفه الآخر سلسلة من المدن الكبيرة، كقرطبة واشبيلية وغرناطة في الأندلس، وفاس ومرّاكش في المغرب، والقيروان وبعدها تونس في تونس، والفسطاس وبعدها القاهرة في مصر، ودمشق وحلب في سوريا، ومكّة والمدينة في غرب الجزيرة العربية، وبغداد والموصل والبصرة في العراق، على غرار مدن إيران وتركستان شمال الهند، فبعض هذه الدول كان موجودا قبل الفتح الإسلامي، والبعض الآخر وُجد بعده.

وبحلول القرن الحادي عشر، كانت المدن الكبرى في البلاد الإسلامية هي أضخم المدن في العالم، سواء من حيث مساحاتها، أو عدد وحجم بناياتها، أو حتّى من خلال التقديرات التقريبية لعدد سكّانها.

فلقد بلغ عدد سكّان القاهرة وبغداد في القرن الثالث عشر ربع مليون نسمة، في حين بلغ عدد سكّان قرطبة وبغداد وحلب ودمشق وتونس في القرن الخامس عشر قرابة المائة ألف نسمة، نفس عدد سكّان أكبر مدن أوربا في تلك الفترة: فلورنسا والبندقية وميلانو وباريس، بينما كانت مدن انجلترا وهولندا وألمانيا وأواسط أوربا أصغر من ذلك.

---

[1]– جورجي زيدان، مرجع سبق ذكره، ص:108.

[2] – ألبرت حوراني، مرجع سبق ذكره، ص ص:126–127.

كما لم تكن هذه المدن مجرّد تجمّع سكني وامتداد عمراني، وإنّما كانت محرّكا اقتصاديا، إذ تمركز فيها كبار التجّار العاملين في جلب المؤن والمواد الخام من الأرياف، وكذلك تمركز فيها تجاّر تجارة المدى البعيد في السلع الثمينة، وكانت هذه السلع تتمثّل في المنسوجات والزجاج والخزف من الصين، وكذلك التوابل التي تستجلب من جنوب وجنوب شرق آسيا إلى موانئ الخليج، سيراف والبصرة، وبعدها حتّى شمال البحر الأحمر إلى موانئ مصر، ومن ثمّ إلى القاهرة أين توزّع لكل عالم البحر المتوسّط بالطرق البرية وبالنقل البحري.

وكان الذهب يأتي من الحبشة عبر النيل وعبر القوافل أيضا إلى القاهرة، ومن مناطق نهر النيجر عبر الصحاري إلى المغرب، وكان العبيد يستجلبون من السودان والحبشة.

كما كانت هذه المدن أيضا مركزا للصناعة تنتج السلع الغذائية للسوق المحلّية، والمنسوجات والأشغال المعدنية والفخّار والمصنوعات الجلدية، والأطعمة المصنّعة والسلع ذات الجودة كالمنسوجات الراقية؛ منتجات كانت تنتج للسوق المحلّي الإسلامي وللسوق الخارجي، إلاّ أنّ الإنتاج للأسواق الخارجية تراجع بفعل انبعاث الحياة الاقتصادية في أوربا[1].

المبحث الثالث: شرق آسيا وعالم المغول والتتار

كانت آسيا قبل القرن السادس هجري، الثاني عشر ميلادي تأوي عددا من الدول المستقرّة التي أنشأت حضارات عريقة وتركت لها بصمة على وجه التاريخ والحضارة الإنسانية، وإلى جنبها أمم بدوية بربرية رحالة تسعى وراء الكلأ غير مستقرّة، ولا يمكننا القول عنها إنّها متحضّرة أو متمدّنة؛ وسنحاول التطرّق إلى هذه الأمم والدول.

1-الأمم والدول الحضارية[2]

1-1 الصينيون:

ويتمركزون بصفة أساسية في شرق الصين، وينقسمون بين أسرتين حاكمتين:

- **أسرة كين:**

كانوا يرأسون طوائف من الجنس الأصفر، ويسيطرون على ممالك "الخطا" أي الصين الشمالية، بالإضافة إلى أملاكهم الأصلية في منشوريا ومنغوليا. وقد اتخذوا من مدينة

[1] – المرجع السابق، ص ص:155-157؛ أنظر أيضا: جورجي زيدان، مرجع سبق ذكره، ص ص:110- 114.

[2] – رجب محمود ابراهيم بخيت، **تاريخ المغول وسقوط بغداد**، مكتبة الإيمان، القاهرة ، 2010، ص ص:7-11.

"بكين" عاصمة لدولتهم، ثمّ انتقلوا بعد ذلك إلى مدينة "كاي فونج"، وجعلوا منها عاصمة بدل بكين، وكان المغول يطلقون على حكّام هذه الأسرة لقب" التون خان".

- **أسرة"سونج"**

وكانوا يسيطرون على أقاليم الصين الجنوبية، وقد اتخذوا من مدينة "هانجتشوا" عاصمة لهم.

1-2 الامبراطورية الروسية:

اعتبرت "مسكوفيا" المرتبطة بالصين والهند وآسيا الوسطى وسيبيريا، عالما اقتصاديا بحدّ ذاته، على الأقل حتّى القرن الثامن عشر، حيث غزت في غضون قرن المكان الذي يعرف باسم سيبيريا، وتقدّمت شرقا حتّى اصطدمت بالعالم الصيني جنوبا، أمّا شرقا فلقد لامست حدودها المحيط الهادي. ولقد تكوّنت هذه الدولة في القرن التاسع، وزادت مساحتها بشكل واضح في القرن الحادي عشر، حيث تواجد بها ما يقارب التسعين مدينة. كان لها اقتصاد جيّد من الصناعة والزراعة. تبنّت المسيحية. وأقامت علاقات مع ملوك أوربا الغربية، إلا أنّ الغزو التتري أوقف تطوّرها الاقتصادي والسياسي[1].

1-3 الأتراك الأويغوريون:

كانوا يسكنون المنطقة الواقعة شمال شرقي تركستان الحالية، والأويغوريون" كلمة تركية تعني الارتباط والتعاون، وتقول الروايات إنّ "أغور" أبو الأتراك كان يؤمن بالله وبدين الوحدانية، فالتف حوله مناصروه وأطلق عليهم اسم "أويغور". واستمر حكم هذه السلالة مائة سنة. والمعروف عن الأويغوريين أنّهم كانوا أكثر الأقوام التركية تمدّنا، وكانت ديانتهم مانوية[2] وبوذية ومسيحية.

1-4 الأتراك القراخطائيون:

كوّنوا دولة كبيرة قبل الغزو المغولي بين مملكة الخوارزميين في الغرب ومساكن المغول في الشرق. ويرجع أصل القراخطائيين إلى قبائل الخطا النازحين من شمال الصين، وهم خليط من المغول والتانجوت. وقد حدث في بداية القرن الرابع هجري/العاشر ميلادي،

---

[1] – فرنان برودل، مرجع سبق ذكره، ص19–20؛ جامعة باتريس لومومبا، مرجع سبق ذكره، ص ص:192–193.

[2] – المانوية ديانة ماني، نبي الفرس في تلك الفترة حسب زعمهم، وكانت الديانة السائدة في تركستان الشرقية–تركيا الشرقية–، عرفوا عند المسلمين بالزنادقة.

أن ظهر من بينهم زعيم قوي أخضع هذه القبائل لسلطته، ونصّب نفسه إمبراطورا عليهم في الفترة ما بين 304-315هـ/916-967م، ولقّب نفسه "تاي تسو"، واستطاع خَلَفُهُ أن يُخضع شمال بلاد الصين، واستمر حكم هذه الأسرة إلى سنة 519هـ/1125م أي قرابة قرنين من الزمن.

1-5 الخوارزميون:

من أصل تركي، يدينون بالإسلام، ذَوو ثقافة عربية وفارسية، أقاموا دولة تشمل كل منطقة ما وراء النهر وإيران تقريبا.

1-6 بقية بلدان شرق آسيا الإسلامية:

تقع هذه الدول غرب بلاد خوارزم أو الدولة الخوارزمية، وهي مقسّمة بين طائفة الإسماعيلية في قلعة الموت، وكانت ثقافتهم فارسية، وبين الخلفاء العباسيين في بغداد، وكانت ثقافتهم عربية، وبين سلاطين الأيوبيين، وهم من أصل كردي وذوو ثقافة عربية، وكان مقرّهم في سوريا ومصر، وبين سلاجقة الروم وهم من أصل تركي ومغرمون جدّا بالثقافة الفارسية وكان مقرّهم آسيا الصغرى[1].

2- قبائل المغول والتتار... والغزو التتري للعالم

كان إلى جانب الحضارات والأمم المتحضرة، في أقصى شمال الصين، على حدود سيبيريا المغولية، وفي إقليم واسع مقفر، قليل المياه والزراعة كثير السهوب، قبائل كثيرة العدد، كثيرة الحركة والتنقل، لم تعرف مواطنهم حضارات سابقة، تعيش عيش البدو والرحالة، يعتمدون على الصيد، يغلب على طباعهم الشراسة والوحشية والهمجية، بينهم حروب دائمة طاحنة ، تتمثّل في قبائل المغول والتتار.

استطاع قائد عسكري اسمه "تيموجين" أن يخضع قبائل المغول والتتار ويُصهرهم في دولته دولة التتار سنة 603هـ/ 1203م ولقّب نفسه "جنكيز خان"، كلمة تعني: قاهر العالم، أو ملك ملوك العالم، أو القوي، حسب الترجمات المختلفة للغة المغولية، وسرعان ما اتسعت مملكته حتى بلغت

[1] – والواقع أنّ هؤلاء الأقوام وهذه الدول، هي ذاتها التي تمّ التطرّق إليها حين التطرّق للعالم الإسلامي، الأمر الذي يستنتج منه أنّ قراءة أو ربط عالم ما بقارة ما لم يعد أمرا ممكنا، وهذا ما يدلّ أيضا على التحكّم الأكبر للمجتمعات في المجال المكاني، وبخاصة المجتمع أو العالم الإسلامي الذي مسّ ثلاث قارات: آسيا، وإفريقيا، وأوربا.
كما يلاحظ أيضا انتشار وتهيكل الأتراك في دويلات أو دول أو مماليك، وبالخصوص بعد إسلامهم، الأمر الذي يمهّد قبول فكرة تمثيلهم للعالم الإسلامي تحت راية الامبراطورية العثمانية فيما بعد.

حدودها من كوريا شرقا إلى حدود الدولة الخوارزمية غربا ومن سهول سيبيريا شمالا إلى بحر الصين جنوبا.

ولقد توسّعت دولة التتار بسرعة وشكل رهيبين، أمّا عن السرعة ففي غضون نصف قرن من الزمن أضحت مملكة التتار تشمل آسيا كاملة من غير الهند، ومن الغرب وصلت إلى الشام وحاصرت الإمبراطورية البيزنطية من الشمال إذ وصلت إلى ألمانيا والنمسا وإيطاليا في أوربا، فهي بذلك غزت نصف أوربا-أنظر الشكل رقم9-. وأمّا عن الشكل الرهيب، فلقد كانت حروبهم حروب تخريب وإفساد في الأرض، فكان من السهل جدّا أن ترى في تاريخهم أنّهم دخلوا مدينة ما فدمّروا كلّ المدينة وقتلوا سكّانها جميعا لا يفرّقون بين رجل وامرأة، ولا بين رضيع وشاب وشيخ، ولا بين ظالم ومظلوم، ولا بين مدني ومحارب...إبادة مطلقة لا تستثني شيئا[1].

شكل رقم9: توسع عالم التتار قبيل أكبر توسع له سنة639هـ/حوالي سنة1240م

خريطة (١١) : مملكة التتار سنة ٦٣٩هـ

المصدر: راغب السرجاني، مرجع سبق ذكره، ص:411.

[1] – راغب السرجاني، مرجع سبق ذكره، ص ص:15-17.

شوهدت هكذا إبادة في مراحل مختلفة من التاريخ، فلقد شوهدت في حروب الفرس وفي حروب الرومان، وفي الحروب الصليبية في الشام ومصر وفي الأندلس، وشوهدت في المستعمرات من طرف المستعمرين الأوربيين والأمريكيين في كل مكان وزمان حتّى في الزمن الذي نعيشه.

ويدين التتار ديانة خليط من مختلف الديانات، فلقد جمع "جنكيز خان" بعض شرائع الإسلام، وبعضا من المسيحية، وبعضا من البوذية، وأضاف منها شرائع من عنده ودوّنها في كتابه الذي جعله كالدستور سمّاه "الياسه"[1].

رغم أنّ أكثر ما يعرف عن التتار والمملكة التترية أنهم قوم همج عديمو الحضارة، إلاّ أنّ غزوهم العالم وإخضاعه كان له من الآثار الحضارية والاقتصادية ما يمكن ذكره، وخاصة ربّما بعد إسلام بعض قاداتهم، إذ ساهم في امتزاج الحضارات الصينية، والفارسية، والإسلامية، امتزاج تجسّد في العمران والأساطير والرسومات والكتب[2] ومختلف العلوم والمعارف، بل وأنّه كما جاء في الكتب أنّ التتار، بعدما دمّروا وأحرقوا المدن التي كانوا يتركونها قفارا موحشة، كانوا يسمحون بإعادة بنائها من طرف أهلها، وكانوا يقومون هم بذلك أحيانا كما حصل في إيران وعراق العرب[3].

عمد "جنكيز خان" وأولاده الأربعة من بعده، إلى كسر الحواجز التجارية التي كانت عند الحدود السياسية للدول، وحرصوا على جذب رؤوس الأموال والبضائع النفيسة من البلاد المتحضّرة، ولذلك عملوا على إبقاء الطرق التجارية مفتوحة، بل كان من بين أهداف "جنكيز خان" من وراء حملته على خوارزم، فتحُ طريق تجاري بين منغوليا وآسيا الغربية، ولذلك جاء في قانونه بنود خاصة لصيانة طرق القوافل وحفظ الأمن فيها ورعاية التجار والقوافل، الأمر الذي أدى إلى زيادة حركية القوافل بين الصين وإيران وفتح طرق تجارية بين شطري آسيا، وفتح طريق بري بين الصين والهند وأوربا، لتصبح هناك ثلاث طرق تجارية رئيسة:

- طريق الصين، وهو جزء من طريق أكبر يعرف بطريق الحرير بسبب تجارة الحرير الصينية التي كانت تعبره، من الصين إلى شرق تركيا، ثمّ إلى سمرقند وبخارى، ثمّ يعبر

---

[1] – يقول المقريزي في **المواعظ والاعتبار**"...وذلك أنّ "جنكيز خان" القائم بدولة التتر في بلاد الشرق.....قرّر قواعد وعقوبات أثبتها في كتاب، سمّاه ياسه، ومن النّاس من يسمّيه يسق، والأصل في اسمه ياسه، ولمّا تمّ وضعه كتب ذلك في صفائح الفولاذ،.....وكان "جنكيز خان" لا يتديّن بشيء من أديان أهل الأرض.....ومن جملة ما شرعه "جنكيز خان"....أن من زنى قتل، ومن تعمّد الكذب قتل، ومن تجسّس على أحد قتل، ومن أطعم أسير قوم من غير إذن قتل، ومن ذبح ذبيحة كذبيحة المسلمين ذبح،.....وشرط أن لا يكون على أحد من ولد علي ابن أبي طالب رضي الله عنه مؤنة ولا كلفة،.....ومنعهم من أن تغسل الثياب حتّى تبلى، ومنه أن يقال لشيء أنّه نجس،.....وألزمهم بأن يعرضوا بناتهم الأبكار على السلطان ليختار منهن لنفسه ولأولاده عند رأس كلّ سنة.....أنظر: رجب محمود ابراهيم بخيت، مرجع سبق ذكره، ص ص46–47.

[2] – من بين ما لفت انتباهنا من امتزاج أو على الأقل انتقال الثقافات، أنّ كتب مثل "كليلة ودمنة" و"ألف ليلة وليلة" هي كتب فارسية قديمة أضحت اليوم تقرأ على أنّها كتب عربية، وكذلك تزيين المساجد والقصور في تلك الفترة التي أخذ من الفرس خاصة.

[3] – عباس إقبال، مرجع سبق ذكره، ص ص:545–548.

جزء منه عبر بحر قزوين إلى أحد موانئ الشام، والجزء الآخر يصل من خوارزم إلى ضفاف نهر الدن وموانئ بحر آزوف.

- طريق الهند والسند عن طريق خوارزم إلى سراي وهشترخام وموانئ تجار فينيسيا والبندقية ومنطقتهما التجارية.

- طريق الهند البحري إلى ميناء هرمز، وعبر طريق بري من هرمز على كرمان وجرجان وخوارزم حيث يصل بالطريق السابق.

هذا ولمّا استقرّ التتار في إيران وبالضبط في تبريز، جعلوا منها وعبرها طرق تجارة بعيدة تنقل من خلالها مختلف أنواع البضائع، إذ نجد ثلاث طرق تربط تبريز بالخليج العربي:

- طريق البصرة وبغداد، ويمر عبر معابر جبال كردستان ويصل إلى مراغة ومنها العاصمة.

- طريق ميناء سيراف – ميناء طاهري حاليا– إلى مدينة شيراز وأصفهان وكاشان وقم والري وقزوين.

- طريق هرمز وكرمان ويزد وكاشان حيث يتّصل بالطريق الثاني.

هذا بالإضافة إلى كون تبريز تقع على رأس طريق الحرير الأصلي، وكان يتصل بمدن إيرانية أخرى عديدة.

وكان لتبريز أيضا طريقان يربطانها بالعالم الأوربي المسيحي:

- طريق أرمينيا الكبير عن طريق خوي ومنازجرد وأرزنة الروم إلى طرابزون التي كانت إحدى المناطق التجارية الكبرى لتجار البندقية في ذلك الوقت.

- طريق أرمينيا الصغير عن طريق معابر جبال كردستان أو عن طريق أرزنة الروم وسيواس، أو عن طريق وان وديار بكر ليصل في النهاية إلى ساحل خليج أسكندرون وإلى ميناء لاجازو، وهو أحد أهم موانئ أرمينيا الصغرى وأحد الأسواق التجارية الكبرى، ومركز للتجارة الإيطالية والفرنسية والإسبانية.

إن استقرار المغول في إيران جعلها قطبا تجاريا مهما، واتخاذ تبريز عاصمة للإلخانات المغولية جعلتها أهم مركز تجاري في إيران، بل وتحوّلت إلى أكبر سوق تجاري بين المشرق والمغرب، فلقد كانت أغلب الطرق التجارية تنتهي إليها، وبمطالعة كتب رحلات المسلمين والتجار والمبعوثين الأوربيين نجد أن تبريز كانت في ذلك الوقت سوقا لتجارة التوابل من ماليزيا واللؤلؤ والياقوت من سيلان ومالابار، والزمرد من الهند، والبسط من بلاد ما وراء النهر، والفيروز من

نايسابور، والحرير والأقمشة من مرو وطوس وشوشتر والموصل ويزد وكرمان، وماء الورد والعطور من شيراز وأصفهان، وأنواع الأسلحة من كرجستان والشام. وكان صناع تبريز نفسها قد برعوا في نسج الأقمشة النفيسة والبسط الغالية والمنسوجات الحريرية، بالإضافة إلى منتجات يدوية أخرى؛ فلقد كانت لتبريز مكانة خاصة من الناحية التجارية والاقتصادية؛ وكانت تعد أكبر مدن العالم آنذاك؛ فكانت موضع دهشة الرحالة الأوربيين الذين ترددوا عليها: "إنّ تبريز من ناحية البضائع هي أهم مدن العالم، وهي بالنسبة لإيليخان إيران أهم من فرنسا كلّها"[1،2].

خلاصة: قراءة في النسق العالمي للعصر الوسيط

يمكننا أن نقرأ النسق العالمي للعصر الوسيط كما يلي:

1- هيكلة النسق العالمي

يمكن تقسيم النسق العالمي في هذه الفترة إلى أربعة عوالم:

ثلاثة عوالم فاعلة، تربطها علاقات فيما بينها لكونها تشغل مجالا مكانيا متقاربا، بل وتتنافس عليه، وتتمثّل في العالم المسيحي، العالم الإسلامي، وهما عالمان تقليديان، حضاريان وسماويان إن صحّ التعبير، وعالم التتار، عالم جديد، همجي فرض نفسه؛ وعالم رابع أو عوالم منعزلة متمركزة في أمريكا.

عالم إسلامي متحضّر متفوّق قوي متجانس سياسيا وإداريا متماسك في مرحلته الأولى وأقل تماسكا في مرحلة الخلافة العباسية.

عالم أوربي يعرف مملكات أقواها الدولة البيزنطية مخرّب اقتصاديا عدى النشاط التجاري الذي تمارسه دول المدينة، غير متجانس سياسيا وغير موحد.

عالم تتاري، همجي غير حضري ليس له مقوّمات حضارية ولا اقتصادية عوّضها بالقوة والقهر.

---

[1] – عباس إقبال، مرجع سبق ذكره، ص ص:548–553.

[2] – إنّ الناظر في أسماء هذه المدن، يرى أنّ غالبيتها مدن إيرانية، وهذا ما يظهر مكانة وحضارة الفرس، وأنّ هذه التجارة اتخذت اسم المغول التتار لأنّهم مستعمرون فقط لا لأنّهم المنتجون أو حتّى تجار، وكما أنّ التجارة الشرقية لإيران كان يتحكم فيها المسلمون، فيما كان يتحكّم الأوربيون في الجزء الغربي منها.

لقد تمّ استغلال المساحة استغلالا أحسن، وتترجم ذلك من خلال توسّع مجال العوالم ليصبح لأوّل مرّة عابرا للقارات، الأمر الذي لم يكن على هذه الشاكلة من قبل، فالعالم الإسلامي بعدما انطلق من المدينة المنوّرة اكتسح الجزيرة العربية، ثمّ امتد إلى إفريقيا وغرب آسيا ووصل حتّى إلى أوربا، ونرى ذلك أيضا في عالم التتار الذي لم يتوسّع عالم كتوسّعه.

يدلّ طابع انتشار هذه العوالم إلى السعي لجعلها عالمية، أو بالأحرى عولمتها، ويظهر ذلك من خلال تسمية امبراطور التتار" جنكيز خان" الذي بمعناه المترجم قاهر العالم أو ملك ملوك العالم، وكذلك من جهة أخرى باعتبار أنّ دين الإسلام جاء ليكون دين العالمين، ونفس الشيء يعتقده المسيحيون بالنسبة للدين المسيحي.

قابل هذا التوسع إمكانية انقسام العالم ، ونقصد بالانقسام الانقسام السياسي، وذلك لعدم اتساع المجال ربّما، ونرى ذلك بوضوح أكبر في العالم الإسلامي أين أصبحت الخلافة العباسية غير مرادفة للمركزية المطلقة، ونراه أكثر في العالم الأوربي الذي أضحى دويلات ومماليك وإمبراطوريات مختلفة؛ شكل لم نلمحه في إمبراطوريات المرحلة السابقة.

كما لابد أن لا نهمل التطوّر الهيكلي الذي حصل في العالم الأوربي والمتمثّل في ظهور المدينة–دولة، والتي تعتبر بمثابة أوّل هيكلة اقتصادية انفصلت واستقلت عن السياسة والدين، لتجعل الاقتصاد والتجارة مستقلين تمام الاستقلال، بل تسعى السياسة والدين لخدمته.

2- علاقات النسق

تعتبر الحروب الميزة الأساسية التي تلخّص لنا علاقات عوالم هذه المرحلة، حروب لخّصت بين العالمين الإسلامي والمسيحي في الفتوحات الإسلامية والحروب الصليبية، وحروب غزو العالم بأكمله من المغول أو التتار.

2-1 الفتوحات الإسلامية والحروب الصليبية وغزو التتار

منذ بداية هذه المرحلة والحروب تعدّ سمة هامة للنسق العالمي، إذ شوهدت حروب مستمرّة منذ القرن السادس بين الإمبراطوريتين الأساسيتين في تلك الفترة الرومانية البيزنطية والساسانية.

كما يمكن اعتبار الفتوحات الإسلامية أيضا جزءا هاما من العلاقات الحربية التي ميّزت هذه المرحلة والتي تمّ إفرادها بالتطرّق إليها سابقا لآثارها في رسم معالم العالم الإسلامي، والتي لم تخص فقط العالم المسيحي وإنّما كل العالم غير الإسلامي إذ تمّ عن طريق الفتوحات الإسلامية، ومن أجل نشر الدين الإسلامي إسقاط الامبراطوريتين العريقتين البيزنطية والساسانية.

فيما تعتبر الحروب الصليبية سمة من أكبر سمات العصر الوسيط ولعلّنا نكون أكثر دقّة لو قلنا أنّ الحروب الصليبية تعتبر ميزة أو ملخّص العلاقات المتواجدة في النسق العالمي للعصر الوسيط لطول زمنها النسبي– أكثر من مائتي سنة–، بدأت في أواخر القرن الخامس هجري/الحادي عشر ميلادي بسقوط الدولة الأموية في الأندلس، واستمرّت حتّى أواخر القرن السابع هجري/الثالث عشر ميلادي.

كان وراء هذه الحروب رجال الدين المسيحيين الذين دعوا إلى قيام حرب مقدّسة شاملة على المشرق العربي الإسلامي وخصوصا على الشام ودمشق، للسيطرة على المقدّسات المسيحية والأرض التي عاش فيها المسيح ابن مريم. قداسة قد تكون ممزوجة بانتقام سياسي للدولة البيزنطية التي خسرت مناطق جغرافية نتيجة الفتوحات الإسلامية، وبطموح التجار وبحارة الموانئ التجارية النشطة جنوب إيطاليا –جنوة ، والبندقية وبيزا–، التي تكلّمنا عنها باعتبارها مدن–دول تبوّأت ازدهار تجارتهم بفتح موانئ في فلسطين وسوريا.

اتخذت هذه الحروب حملات كانت أولاها في496هـ/1095م، وكانت آخرها في668هـ/1270م. وكانت من خلالها مدن شمال البحر الأبيض المتوسّط ومدن الشام في مدّ وجزر بين المسلمين والمسيحيين، وبوتيرة سريعة إلى حدّ ما، انتهت بتصفية الوجود الصليبي في الشام في حوالي سنة 700هـ/1300م، وفي شمال إفريقية بعد حوالي قرن ونصف[1].

ولابدّ من الذكر في هذا السياق الحروب الذي شنّها التتار والتي تسمّى بغزو التتار التي تشهد كتب التاريخ بهمجيتها.

لقد كان لهذه الحروب أن جعلت حدود العوالم الثلاث غير ثابتة في الزمن المتوسّط والطويل، وكان لاجتياح أي عالم لعالم آخر معنى سياسي و/أو شرعي تصحبه بعض الإيرادات التي تدلّ على الإخضاع للسيادة بالدرجة الأولى، وربّما اقتصادي من أجل الاستفادة من مكاسب التجارة، أو اغتصاب الثروات وبيعها أو من أجل تفادي وساطة تجارية كما كان الشأن بالنسبة للتجار الأوربيين الذين أرادوا أن يتفادوا الوساطة التجارية للمسلمين.

وقد نجد في ظل هذا النسق العالمي أيضا تآمر أو تعاون عالمين تعاونا استراتيجيا أو نسمّيه سياسيا، فعلى سبيل المثال ذهب وفد أوروبي إلى التتار لإقناعهم بغزو الخلافة العباسية وذلك من أجل إسقاط الوساطة التجارية، وإنجاح الحروب الصليبية.

---

[1] – مصطفى وهبة، **موجز تاريخ الحروب الصليبية**، مكتبة الإيمان، القاهرة، 1997، ص ص:7–63.

كما يمكن تسمية كل تفوّق مرحلي لعالم ما من العوالم الثلاثة الأساسية عولمات جزئية إذ أنّ غرض العوالم الأساسية الثلاث هو عولمة العالم، كان سبيلها السلاح والحروب.

2-2 الاقتصاد والتجارة

تعتبر المدن الفاعل الرئيسي في العلاقات الاقتصادية، أمّا فيما يخص النشاطات الاقتصادية، نلاحظ أن النشاطات الزراعية والحرفية تحظى بالأهمية الضرورية وكذلك تربية المواشي، وخاصة أنّ بعضا منها يعتبر وسائل نقل وحرب، كما أنّ للتجارة والنشاط التجاري مكانة خاصة، وخاصة منها الطويلة، رغم كونها لازالت هامشية.

وعلى هذا نجد في كل العوالم الفاعلة اهتماما بالأسواق التجارية وخاصة الموسمية كما رأينا عند عرب الجاهلية وأيضا عند المسلمين، ورأينا ذلك في العالم الأوربي أيضا، كما أنّ التجارة بين العوالم الفاعلة كانت تحظى بعناية خاصة سواء من طرف التجار أنفسهم ولكن أيضا من طرف حكام العوالم، إذ حاولوا تأمينها بإيلافات ومواثيق وعهود، الأمر الذي شجّع على إنشاء طرق تجارية تربط العوالم الفاعلة الثلاث يمتدّ من أقصى شمال العالم المعروف "الصين" إلى أقصى غرب العالم المعروف في أوربا مرورا بالعالم الإسلامي الذي قام ولوقت طويل بدور الوساطة.

كما لا يمكن تجاهل انتقال المعارف والتقنيات بين العوالم الفاعلة وبين حضاراتها، الصينية، والفارسية والإسلامية خاصة في المجالات المختلفة؛ وعلى رأس هذه الانتقالات المعرفية الديانات، وبالأخص الدين الإسلامي الحنيف، إذ ساهم التجّار في إيصاله إلى أبعد البقاع في شرق آسيا عن طريق حسن معاملتهم. أمر قد يقرأ على أساس مرحلة من البناء العولمي.

الفصـــــل الثـــــالث

النـــسق العالـمي للـــعصر الحديث، الاقتصاد–عالـم الأوربـــي المعولَـــم أو العولمـــــــــة الأوربـــــيـــة

لقد اعتمدنا في تقسيم فصلنا هذا، منهجية مغايرة عن تلك التي اعتمدناها في الفصلين التاليين، وذلك لاعتمادنا على فكرة أنّنا يمكن اعتبار تاريخ العصر الحديث الأوربي محور التاريخ الحديث بكامله، لأنّ أوربا لعبت الدور الأهم في حلقاته، بنهضتها الفكرية العلمية، وبثورتها الصناعية، وباكتشافها وتحكّمها في مجال العالم المحدود. إنّ ثقل أوربا في هذه المرحلة جعلنا نسمّي هذا الفصل بـ: العولمة الأوربية. ويمكن تحديد زمن هذه المرحلة من الاكتشافات الجغرافية إلى الحرب العالمية الأولى.

المبحث الأوّل: بيئة الاقتصاد-عالم الأوربى

رغم أهمّية وثقل العالم الأوربي في هذه المرحلة، إلاّ أنّه لم يكن عالما فريدا في المجال العالمي.

1- العوالم الثانوية

بغضّ النظر عن الاقتصاد-عالم الأوربي المتواجد في الغرب وأقصى الغرب في العالم الجديد الذي أعطيناه أكبر جزء من الوصف والتحليل في هذا الفصل، تواجد أيضا العالم الإسلامي الذي كان إلى زمن ما مناهضا ومنافسا له. لم نتطرق لعوالم أخرى التي كانت إلى حدّ ما بعيدة عن ساحة التطوّرات الجارية، أو أنّه كان لها دور ثانوي، جعلها مستغَلَّة من عوالم أخرى، ويتعلّق الأمر هنا بالعالم الهندي، وكذلك العالم الصيني، اللذين بلغا درجة من التقنية في الحرفة وزراعة التوابل تفرّدا بها، كانت موضوع التجارة البعيدة التي هيمن عليها المسلمون تقريبا حتّى نهاية هذا العصر.

كما استطاعت إمبراطورية روسية أن تتحصّل على استقلالها عن المملكة التترية في أواخر العصر الوسيط، ثم توسّعت وكبر حجمها لدرجة إمكانية اعتبارها أكبر الإمبراطوريات في العالم، إلاّ أنها كانت إمبراطورية منعزلة، ربّما بفعل الحواجز الجغرافية المتمثّلة في المنطقة السيبيرية، وظلّت منعزلة تقريبا حتّى نهاية العصر الحديث وقيام الدولة الروسية.

وكذلك حضارات أمريكا المنعزلة، مثل حضارة الأزتيك و حضارة الإنكا وغيرهما، التي كانت في هذه المرحلة أي العصر الحديث في مستوى العصر القديم، قد فصّلنا فيها في الفصل الأوّل.

2- العالم الإسلامي والدولة العثمانية

يعود العثمانيون في أصولهم في الغالب إلى أصول تركية، نزحت من وسط آسيا إلى غربها في هجرات فرّت عن طريقها من غزو المغول بقيادة "جنكيز خان" خلال القرن السابع هجري/الثالث

عشر ميلادي، واستعانت الخلافة العباسية كما رأينا بعناصر من هذه المجتمعات، وظلّ دورهم ينمو في المسرح السياسي حتّى أصبح لهم وزن في الخلافة في بعض أطوراها، وازداد هجرة العنصر التركي إلى غرب آسيا في القرن الثامن هجري/الرابع عشر ميلادي، وتمركزوا في الأناضول، وأقاموا بها دولا عديدة قبل قيام الدولة العثمانية.

لقد عاصرت الدولة العثمانية التي أنشأها "عثمان بن ارطغل" دولا تركية عدّة في الأناضول، إلاّ أنّه استطاع أن يرسي دعائم دولة أصبحت فيما بعد الوحيدة التي تمثّل العالم الإسلامي قاطبة.

ساعد في توسّع هذه الدولة عاملين أساسيين:[1]

- الضعف الذي ألمّ بالإمبراطورية البيزنطية، بدأ صداه في الخلاف على العرش، ممّا أدّى بأحد الفصائل المتنازعة إلى الاستعانة بالعثمانيين الذين استغلّوا هذه الأوضاع لصالحهم.
- وفي المقابل ساهم الاستقرار الذي عرفته هذه الدولة، ونموّها أيضا في بداية عهدها، في تدفّق المجاهدين إليها ممّا استزاد في تقوية الجيش. وبمواصلة الدولة العثمانية فتوحاتها، فتحت القسطنطينية سنة 1453، وامتدت في أنحاء أوربا الشرقية حتّى وصلت إلى أسوار فيينا؛ كما استولت[2] على معظم الدول العربية أيضا.

لقد كوّنت الدولة العثمانية منذ القرن الثامن عشر، وهي في أوجّ قوّتها واتساعها، اقتصادا–عالما مناهضا للاقتصاد–عالم الأوربي، ذو مجال غير منقطع، امتدّ من البصرة حتّى تلمسان، يشمل ما يزيد عن الثلاثين مملكة، تعرّض له البرتغاليون بشراسة لتضعيف هيمنته على البحر الأبيض المتوسّط، وتعرّض له في الهند أيضا.

تعرّض الاقتصاد–عالم الإسلامي إلى ضربة موجعة باكتشاف طريق الهند من الغرب أو عن طريق رأس الرجاء الصالح، الأمر الذي ألغى مع مرور الوقت الهيمنة التجارية الإسلامية على تجارة التوابل. ولكن ما إن لبثت حتّى ظهرت تجارة أخرى ذات أهمّية ألا وهي تجارة الحرير، ثمّ بعد ذلك تجارة البن والعقاقير والقطن والمنسوجات القطنية الملوّنة وغير الملوّنة، تنافس عليها العثمانيون والأوربيون.

---

[1]– زكريا سليمان بيومي، **قراءة إسلامية في تاريخ الدولة العثمانية**، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، كفر الشيخ، 2009، ص:39.

[2] – يطرح استعمال هذا المصطلح مسألة أو إشكالية استعمار الدولة العثمانية للدول العربية الإسلامية ومنها الجزائر، أو كون هذه الدول كانت تحت حمايتها فقط وحافظت على استقلالها، ونظن أنّ الجواب على هذا السؤال يمكن من خلال الإجابة على سؤال آخر: هل التوسّع العثماني كان فتحا إسلاميا أم لا؟ والواقع –وللأسف الشديد– يقول أن التوسع العثماني لم يكن كلّه فتحا إسلاميا إنّما أيضا توسعا سياسيا ولو على حساب دول ومماليك إسلامية أخرى، حقيقة لابدّ من ذكرها رغم أنّها ساهمت في الحفاظ على الهوية الإسلامية إلى حدّ ما.

لقد ورثت الدولة العثمانية هيكلا اقتصاديا ومدنا تجارية عريقة واتحادات حرفية عديدة من العالم الإسلامي الذي سبقها، كالقاهرة وحلب وتبريز التي تقع على مشارف فارس. وينطبق القول نفسه على مدن عدّة في آسيا وإفريقيا والبلقان، وهي مدن كانت تضاهي في حيويتها الاقتصادية وفي تنظيمها أيضا المدن الأوربية العريقة؛ وكان مركز الاقتصاد–عالم العثماني ينتقل بين هذه المدن العريقة ليرجع في نهاية الأمر إلى اسطنبول في القرن الثامن عشر.

بالإضافة إلى الحروب، السمة الأساسية التي ميّزت العلاقات التي تجمع بين الاقتصاد–عالم العثماني الإسلامي والاقتصاد–عالم الأوربي، لا يمكن أن نتجاهل العلاقات التجارية التي كانت تربط العالمين، فلقد كانت واردات الاقتصاد–عالم العثماني متعدّدة تمثّلت في بداية الأمر في: منسوجات مختلفة، مرايا، ألواح، زجاج، ورق، قصدير، سكّر، خشب برازيلي، نبيذ إنجليزي، توابل، بن هندي. ثمّ وبفعل النهضة الأوربية اتسعت القائمة لتشمل منتجات أخرى كـ: أصواف وحرائر فرنسية وإنجليزية وهولندية، صلب ورصاص، فراء وأقمشة هندية. في حين كان الاقتصاد–عالم العثماني يصدّر جلود الماعز والجاموس، وشعر الماعز ووبر الجمال، وهي في العادة مواد أولية باستثناء أقمشة الشملة الرقيقة والحرير والقطيفة والأقمشة الملوّنة؛ وبذلك فإن السفن الأوربية كانت تنقل إلى القسطنطينية أكثر ما كانت تنقل إلى موانئ المشرق الأخرى، تجارة كانت تعكس عجزا عثمانيا وفائضا أوربيا.

تميّز الاقتصاد–عالم العثماني – بالإضافة إلى أسطولها البحري الحربي– بأسطول بحري تجاري فضلا عن وجود قوافل الجمال التجارية، ميزة ورثها هي الأخرى عن العالم الإسلامي عن العالم العربي الجاهلي، ولقد كانت تتخلّل مجال الاقتصاد–عالم العثماني قوافل كثيرة تنطلق وترجع في مواعيد مضبوطة أكثر انضباطا من المواصلات البحرية، وكانت تتّسم بفعالية لا جدال فيها ولذلك اعتبرت سرّا من أسرار استقلال الاقتصاد العثماني[1].

لم يشهد الاقتصاد العثماني ثورة صناعية أو اقتصادية كما شهدها الاقتصاد–عالم الأوربي، رغم بعض المحاولات للنهضة بالصناعة، ولذلك أطلق على الدولة العثمانية اسم الرجل المريض[2]، فلقد أصبح اقتصادها يضعف أمام الاقتصاد–عالم الأوربي الرأسمالي المتنامي، ضعف تعدّى الجانب الاقتصادي المحض إلى الجانب السياسي والعسكري.

---

[1] – فرنان برودل، مرجع سبق ذكره، ص ص:579–584.

[2] - اسم أطلقه قيصر روسيا "نيكولاي الأول" على الدولة العثمانية سنة 1853 بسبب ضعفها، ودعا بريطانيا أن تشترك معه في اقتسام أملاك الدولة، ثم شاع هذا الاسم بعد ذلك، واستعملته الدول الأوربية الأخرى.

المبحث الثاني: من الجمود الفكري إلى النهضة

امتازت هذه المرحلة التاريخية لأوربا بإعطاء عناية واهتمام للعلوم والآداب، إذ دُرست كتب الحضارات السابقة اليونانية والرومانية القديمة وأيضا كتب الحضارة الإسلامية حديثة العهد. وامتاز هذا الاهتمام بأنّ العلماء والدارسين لم يقوموا فقط بمجرّد نقل بقايا هذه الحضارات، وإنّما عدّلوا وأضافوا وأضفوا شخصياتهم وإسهاماتهم وأبدعوا فأحدثوا نهضة جديدة، ولهذه الأسباب سمّيت هذه المرحلة بمرحلة "الإحياء" "Renaissance" تمييزا لها عن الفترة السابقة المتميّزة بالجمود، جاءت هي الأخرى بعد فترة حيّة أخرى تمثّلت في الحضارة الرومانية العريقة.

والواقع أنّه توافرت لهذه النهضة مجموعة من العوامل ساعدت على قيامها يمكن تلخيصها في:[1]

- الصلات الثقافية بين أوربا الغربية والعالم الإسلامي الذي كان متمركزا في الشرق الأدنى "الخلافة العباسية"؛ في شبه جزيرة أيبيريا وفي صقلية أيضا[2]. ففي العصور الوسطى، في الفترة التي كانت أوربا في ظلام حالك، كان العالم الإسلامي في أوجّ ازدهاره، رائدا في تقدّم العلوم والفنون والرياضيات والفلك والجغرافيا والتاريخ وما إلى ذلك من جوانب العلوم الأخرى. فبحكم الاحتكاك بين العالمين بفعل التجارة من جهة –كون العالم الإسلامي كان محتكرا على التجارة مع عالم الشرق الأقصى–، وأيضا بفعل الحروب الصليبية التي جمعت بين العالم الإسلامي والعالم الأوربي، مارس العالم الإسلامي نوعا من الدفع في مرحلة أولى من العصور الوسطى، ثمّ استُعمل كركيزة في عصر النهضة، حيث تمّ الاعتماد على الكتب الإسلامية في مختلف العلوم سواء الرومانية والإغريقية المترجَمَة أو المحرّرة.
- تمركز العلماء والمهتمون في مكان واحد في إيطاليا.

تجلّت أهم مظاهر النهضة العلمية حسب ظنّنا في ظهور الأكاديميات، كدلالة على الاهتمام بالعلم، حيث كانت عبارة عن حلقات يجتمع فيها عشرات الطلاّب حول أساتذة يستمعون إلى

---

[1]– عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتّى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي**، القاهرة، 1999، ص ص:7–17.

[2]– حكم المسلمون شبه جزيرة إيبريا ما يقرب من ثمانية قرون، أصبحت خلالها قلعة علم ومنارة للحضارة، فأصبحت مقرا للمدارس والمعاهد ودور العلم حتّى أصبحت مقاصد الطلاّب والعلماء، وحينذاك كانت قد ازدهرت بها دراسة الفلسفة والطب والرياضيات بأنواعها والأدب والشعر. وحكم المسلمون صقلّية مدّة تزيد عن قرنين ونصف من الزمن، ونقلوا إليها جوانب الحضارة الإسلامية حتّى أصبحت منارة العلم وإشعاع الضياء لأوربا، وقصدها طلاّب العلم بما في ذلك الأوربيون، وبعد أن سقطت صقلّية في يد الأوربيون، لم يحاولوا إزالة الصبغة العربية الإسلامية التي اصطبغت بها، وإنّما حافظوا عليها وعملوا على تقدّمها حتّى استفدوا أغراضهم منها فاصطبغت بالحضارة الغربية.

دروسهم ومناقشتهم. وقد انتشرت هذه الأكاديميات في مدن إيطاليا: نابولي، فلورنسا وروما. وعلى هذا يمكننا القول إنّ النهضة العلمية بدأت في إيطاليا ثمّ انتشرت إلى باقي أوربا وذلك قد يكون للأسباب التالية:

- تعتبر إيطاليا مهد الحضارة الرومانية، فهي بذلك تربة خصبة لإعادة إحياء تلك الحضارة وبعث نهضة جديدة، فبإيطاليا تتواجد الآثار الباقية من الحضارة الرومانية من قصور ووثائق ومخطوطات....

- طبيعة شبه الجزيرة الإيطالية السياسية؛ لقد خلقت الهيكلة السياسية لإيطاليا نوعا من التنافس في تدعيم العلم، فباعتبار أنّ إيطاليا كانت منقسمة إلى عدّة إمارات وولايات وجمهوريات، تنافس رؤساؤها على تشجيع العلماء والأدباء والفنانين إمّا لتشجيع العلم ذاته أو بحثا عن المجد الشخصي لهم.

- كانت إيطاليا حلقة اتصال بين الشرق الأقصى والشرق العربي وأوربا الغربية، فلقد شاركت في نقل الحملات الصليبية على سعتها وإقامة التجارة مع المسلمين بغض النظر عن الحروب، الأمر الذي ساعدها على الاستفادة من علوم العرب إلى حدّ ما، إذ نُقلت عنهم علوم الطب والرياضيات والفلك.

هذا كما أنّ قرب إيطاليا من القسطنطينية جعلها تستفيد من العلماء الإغريق إذ كانوا يحاضرون في مدارسها.

- ساعد احتراف إيطاليا للتجارة على سعة العيش وتوافر المال الأمر الذي ساعد العلماء على البحث والتنقيب والعكوف على العلم والدراسة فقط.

المبحث الثالث: من مدينة-دولة إلى دولة-قومية

لقد أثرت النهضة الفكرية على مستويات ومجالات عدّة، ومن بين تأثيراتها تأثيرها على تنظيم المجال السياسي، الذي تبلور في تشكّل الدولة القومية التي يمكن أن نلخّص بوادر استتبابها في:[1]

1- انهيار النظام الإقطاعي كنظام إداري

تبلورت الإقطاعية في بادئ الأمر في كنف ضعف الملك أو السلطة المركزية كما سبق وأن ذكرنا، ثمّ أصبح حائلا يقف دون ظهور عامل الانتماء إلى الوطن الأم، إذ لم يكن أفراد المجتمع تدين إلاّ للسيد الإقطاعي الذي كانوا يعيشون تحت كنفه وفي حماه، ولذلك كان لابدّ من تدهور هذا النظام حتّى يتحرّك الشعور القومي وتبدأ الدولة القومية الموحّدة ذات حكم واضح المعالم.

[1] - عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، مرجع سبق ذكره، ص ص:33-37، بتصرّف.

2- ظهور المدن-أمة

نشأت المدن كما رأينا نتيجة نمو الصناعة والتجارة، ولقد كان لظهورها في أوائل القرن الحادي عشر أثره في إضعاف النظام الزراعي الإقطاعي، واستطاعت بعض المدن ولا سيما المدن الإيطالية والألمانية أن تصبح جمهوريات منفصلة عن الدولة الإقطاعية التي كانت جزءا منها، فيما رأت مدنا أخرى المصلحة في إقامة حكومة مركزية يحكمها الملك فدعمته وساعدته في تقوية نفوذه على الإقطاعيين كما حصل في فرنسا وانجلترا[1].

3- تدهور نفوذ الكنيسة

سيطرت الكنيسة كما سبق وأن رأينا في الفصل السابق في العصور الوسطى على كل النواحي: السياسية، والفكرية وحتّى الاقتصادية، إلاّ أنّها عرفت ضعفا وتدهورا في نهاية العصر الوسيط، وخلافات داخلية منها العقائدية أدّت إلى انقسامها على مذاهب ثلاثة: كاثوليك، أرثوذكس، ثمّ البروتستانتي- اللوثري- في ألمانيا الذي جاء نتيجة ما يسمّى بالإصلاح الديني، بالإضافة إلى ظهور كنائس قومية كالكنيسة الإنجليزية، ولقد كانت لهذه الحركات أهداف إلى جانب الهدف الأساسي المتمثّل في إصلاح العقيدة، تتمثّل في الحد من سلطة الكنيسة من التدخّل في الميدان الاقتصادي والسياسي، بالإضافة إلى رغبة الحكّام في الاستحواذ على أملاك الكنيسة الضخمة، والاستفادة منها في تدعيم الحكومات المركزية الجديدة.

4- ظهور الحكومات الموحدة أو الدول المركزية

بعد زوال النظام الإقطاعي وتدهور نفوذ الكنيسة، وتوافر آليات في المدينة-دولة، ظهر هناك تقسيم آخر هيكلَ أوربا في مجموعات من الحكومات المركزية أو الدول-أمم، أو الدول القومية، أمم ومجتمعات تحكمها الجنس والدين واللغة، عناصر القومية الوطنية. تمثّلت أوّل هذه الدول في:[2]

4-1 إنجلترا

لقد مرّ تكوّن الحكومة المركزية في إنجلترا بمراحل، فلقد تكوّنت أوّل حكومة ذات نظام مركزي منذ أن فتح "وليام الفاتح" إنجلترا، ثمّ صدر في سنة 1215العهد الأعظم الذي يعتبر أساس الدستور الإنجليزي، ثمّ تولّى "هنري السابع" من أسرة "التيودور" العرش الملكي سنة 1485 بعد حرب "الوردتين" التي جمعت أسرة يورك وأسرة "لنكستو"، وبعد ما قضى على معارضيه وعلى الاضطرابات

---

[1] - عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا**، دار النهضة العربية، بيروت، 1974، ص ص:18-19.

[2] - عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، مرجع سبق ذكره، ص ص:38-41.

التي تسبّبت فيها الحرب الأهلية، ازدهر حكمه في النصف الثاني من القرن السادس عشر بإصداره قوانين تنظيمية ومحاكم.

و تجدر الإشارة إلى أنّ هذا الحكم امتدّ وترعرع على يد الملكة إليزابيث.

4-2 فرنسا

بعد انهيار الإمبراطورية الرومانية تحت ضربات البرابرة، تعرّضت فرنسا إلى غزوات الفرنجة ثمّ استطاع الفرنسيون تأسيس دولة قوية تتمثّل في الإمبراطورية الرومانية المقدّسة تحت راية "شارلمان"، وأضحت فرنسا في عهده منارة للثقافة والعلم.

ويمكن إرجاع التاريخ الحقيقي لفرنسا كدولة ذات كيان سياسي بعد معاهدة "فيردان" سنة 843[1]، وتبلورت في هذه المعاهدة الشخصيتين الألمانية والفرنسية، ثمّ دخلت فرنسا مع إنجلترا في حرب المائة عام، خرجت منها فرنسا منتصرة، قويّة ومتّحدة.

واستطاع لويس الحادي عشر ومن بعده شارل الثامن أن يكسب ولاء الشعب في باريس لمواجهة النبلاء الإقطاعيين، وكان لهم ذلك، وسنّوا القوانين التي تحدّ من سلطة الأمراء المحلّيين وكذلك الكنيسة حتّى أضحت فرنسا من بعد دولة واحدة يحكمها حاكم واحد فقط.

4-3 إسبانيا

كانت إسبانيا في شكل مقاطعات، بعض منها إسلامية وأخرى مسيحية؛ بعد تراجع العالم الإسلامي، قويت المقاطعات المسيحية وعملت على ازدياد عددها على حساب المقاطعات الإسلامية إلى أن تمّ إجلاء المسلمين بصفة نهائية من إسبانيا إذ استولى الإسبان على غرناطة سنة1492، وتكوّنت حكومة مركزية قوية ابتداء من 1520.

4-4 البرتغال

كانت البرتغال إحدى الولايات التابعة لقشتالة وفي القرن الحادي عشر استطاعت البرتغال مع بداية حكم أسرة "برجندي" من تحقيق استقلالها، وتمّ طرد المسلمين من لشبونة أيضا، لتتشكّل فيما بعد إمبراطورية البرتغال البحرية.

يمكن اعتبار ما سبق التركيبة الجديدة أو الهيكلة الجديدة للعالم الأوربي، ولكن وكما سبق أن ذكرنا في المقدّمة، أنّ الهيكلة ليست متجانسة في أيّ عالم من العوالم، وعلى هذا في مقابل هذه الشعوب الموحّدة نجد شعوب ومجتمعات لم تكن كذلك وهي على صنفين:[1]

[1]- معاهدة تمّ من خلالها تقسيم مملكة "لويس الورع" ابن "شارل مان"، والمتمثّلة في المملكة الكالورينجية إلى ثلاث مملكات، أحدها ما مثّلت فيما بعد فرنسا، والأخرى ما تمثّلت في ما بعد في ألمانيا، والأخرى شملت الأراضي المنخفضة وإيطاليا، وتقرأ هذه المعاهدة في التاريخ على أنّها تفتيت لمملكة "شارل مان".

شعوب شبيهة بالموحّدة، ونجد: الأراضي المنخفضة الهولندية التي شملت الأراضي المنخفضة وبلجيكا، وكذلك سويسرا، وكانتا شعوبا شبه موحّدة إمّا لاختلاف الجنس واللغة، أو لوجود حروب دائمة بين المقاطعات.

شعوب غير موحّدة، وهي الأمم التي فشلت في إقامة حكومة مركزية في بداية العصر الحديث وكان سعيها في هذا المجال بطيئا بدرجة ملحوظة ويتعلّق الأمر بألمانيا وإيطاليا التي لم تحقّق وحدتها إلاّ في النصف الثاني من القرن التاسع عشر رغم أنّ مجتمعها من جنس واحد ويتكلّمون لغة واحدة.

هذا فيما لم تواكب أوربا الشرقية والشمالية المتمثّلة في روسيا والدول الإسكندنافية وبولندا خطوات أوربا الغربية، إذ ظلّت متخلّفة حيث أنّ بعضها كان لا يزال في مرحلة اقتصاد العبودية[2].

المبحث الرابع: من عالم محدود إلى عالم أوسع أو التحكّم في المجال العالمي والحركات الاستعمارية

عرف العالم عن طريق أوربا في هذه المرحلة، حملة اكتشاف واستعمار قامت بها الدول الأوربية ذات حكومات مركزية موحّدة، كانت البرتغال وإسبانيا رائدتين، اتبعتهما انجلترا وفرنسا، فيما تأخّرت إيطاليا وألمانيا لتأخّر قيام دولة مركزية موحّدة فيهما. ولقد برّر الفكر الاقتصادي التجاري – المركنتيلي– هذا الاستعمار باعتباره يهدف إلى ملئ خزانة الدولة بالمعدن النفيس، الذهب والفضّة، حتّى تكون قادرة على إقامة جيش قوي، وأسطول قوي وإدارة داخلية محكمة، وبعبارة أخرى ملخّصة إقامة دولة قوية. ولتحقيق ذلك كان لابدّ من:[3]

- فرضُ مزيد من الضرائب على المنتجات الواردة بهدف تشجيع الصناعة الداخلية والحد من الاستيراد.
- إعطاء العناية الأكبر للتجارة الخارجية[4].
- وضع ضوابط صارمة على تصدير المعادن النفيسة للحد من تصديرها، واستيراد ما أمكن منها بأقلّ تكلفة.
- اتجاه الدولة إلى الاستعمار الخارجي لاحتكار التجارة الخارجية.

---

[1] – عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، مرجع سبق ذكره، ص ص:41–43.

[2] – عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، مرجع سبق ذكره، ص:28.

[3] – عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، مرجع سبق ذكره، ص: 54.

[4]– إنّ التجارة الخارجية في هذه المرحلة كانت أقرب للسطو والنهب والغزوات من اعتبارها تجارة، فهي أقرب أن تكون نوعا من القرصنة واللصوصية، أنظر: جاك آدا، مرجع سبق ذكره، ص:30.

- الاستغلال المناسب لمناجم المعادن النفيسة.
- الاهتمام بالمناطق التي تزخر بمناجم المعادن النفيسة.
- تكوين أسطول تجاري وعسكري قوي لتسهيل عملية الاستعمار ولتوفير وتأمين نقل المواد المستوردة من الدول المستعمرَة.

ويبقى الحصول على الذهب من أكبر هذه المحفزات وإن لم يكن من أوّل وهلة، كما جاء على ألسن المستكشفين، فالذهب كما كتب "فريدريك إنجلز": " بحث عنه البرتغاليون على السواحل الإفريقية وفي الهند وكل الشرق الأقصى، وكان هو الكلمة السحرية التي ساقت الإنسان إلى أمريكا عبر المحيط الأطلنطي، وهو ما كان يسأل عنه الرجل الأبيض ساعة تطأ أقدامه شواطئ مكتشفة حديثا"[1]. وكما اِعترف "كورتيز" فاتح المكسيك : "نحن الإنسان نعاني من مرض قلبي، دواؤه الوحيد هو الذهب"[2]، وكما صرّح "كريستوف كولومبس" في رسالة بعثها من أمريكا إلى البرتغال: "الذهب، يا له من إنتاج رائع، إنّ من يملك الذهب يستطيع أن يفعل ما يحلو له، وبالذهب يستطيع المرء أن يدخل الأرواح إلى الجنة"[3].

بالإضافة إلى هذه الأسباب ذات الطابع الاقتصادي المحض والتي قد تبرّر الاجتهادات الاستكشافية التي تعكس الفكر التحرّري السائد آنذاك، وفي الوقت نفسه تعكس فلسفة اقتصادية تتمثّل في المذهب التجاري، لا يمكننا أن نتجاهل رغبة العالم الأوربي في كسر شوكة العالم الإسلامي المتمثّل أنذاك في الدولة العثمانية، وذلك اقتصاديا: عن طريق تفويت وساطته التجارية مع الشرق الأقصى الذي كان احتكرها منذ زمن بعيد، وكان يجني من خلاله الربح الوفير ويضغط به أحيانا على العالم الأوربي؛ سياسيا: بمحاولة محاصرته لإضعافه، وكسر شوكته؛ ثمّ عقائديا: بإضعاف انتشار الدين الإسلامي مقابل نشر الدين المسيحي؛ يقول المؤرخ "فيشر" في هذا السياق: "لا يمكن القول إنّ الدافع في الاكتشاف لا يتعدّى الرغبة في الحصول على التوابل والذهب، إذ اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية. ففي الفاتيكان–وخصوصا لدى الفرنسيسكان الذين كانت مشروعاتهم التبشيرية تمتد إلى العالم بأسره– كانت مشروعات البرتغال واسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام، لا لأنّها ستكون وسيلة لتنصير الوثنيين فحسب، بل ستفضي أيضا إلى شنّ هجوم على المسلمين من ناحية الشرق، وكان المعروف أنّ نجاشي الحبشة مسيحي، وكان المعتقد أنّه لا تزال توجد في الهند، نتيجة لبعثة القدّيس "توما"، دولة مسيحية يحكمها عاهل يعرف بالخان الأكبر، وكان يداعب أوربا الكاثوليكية أمل كبير في أن تتلقّى من هؤلاء الملوك المسيحيين البعيدين مساعدة

---

[1] – هارالد نويبرت، **النظام العالمي الجديد ومشاكل العالم الثالث على ضوء اكتشاف أمريكا قبل 500 عام**، محمد الزغبي، ممتاز كريدي(ترجمة)، دار الطلبة للطباعة والنشر، بيروت، 1996، ص:38.

[2] - Michel Beaud, **Histoire du capitalisme :1500-1980**, Edition du seuil, Paris, 1981,p : 20.

[3] – هارالد نويبرت، مرجع سبق ذكره، ص:38؛ ibid ,p :21

فعّالة في حرب صليبية ضخمة أخيرة تشنّها على المسلمين. تلك هي الخطّة التي رسمها البابا نيكولا الخامس منذ 1454 في مرسوم بابوي أرسله إلى ملك البرتغال. وفي هذا الجو المفعم بالآمال الكبيرة، أقلع "كولومبس" ليكشف الطريق إلى الهند غربا"[1].

ومهما كانت الأسباب فلقد تمكّن الاقتصاد–عالم من التحكّم في المجال العالمي كما يبيّن ذلك الشكل الموالي، ومهما اختلفت الأسباب أيضا فلقد كان لهذه الحركة الاكتشافية أو الاستعمارية دور كبير في تحديد الاتجاه الذي عرفه ولايزال يشهده الاقتصاد العالمي، ولذلك اعتبرها بعض الاقتصاديين أحد الأحداث الأكثر أهمية في التاريخ البشري كما كتب "آدم سميث" في 1776 "يعتبر كل من اكتشاف أمريكا واكتشاف الطريق البحري نحو الهند الشرقية حول رأس الرجاء الصالح الحدثين الأكبر أهمية في تاريخ البشرية، حيث ترتب عنهما نتائج هامة حقا، وما زال من غير الممكن خلال هذه المدة القصيرة، التي تتراوح بين قرنين وثلاثة قرون التي مرت منذئذ، معرفة الأبعاد الخطيرة لآثارها. كما أنه ليس بوسع أيّ ذكاء بشري وأيّة حكمة أن تتنبأ بماهي أوجه الخير وماهي أوجه الشرّ التي سوف تترتب على هذه الاكتشافات الفريدة من نوعها"[2].

شكل رقم10: تحكم الاقتصاد–عالم الأوروبي في المجال العالمي

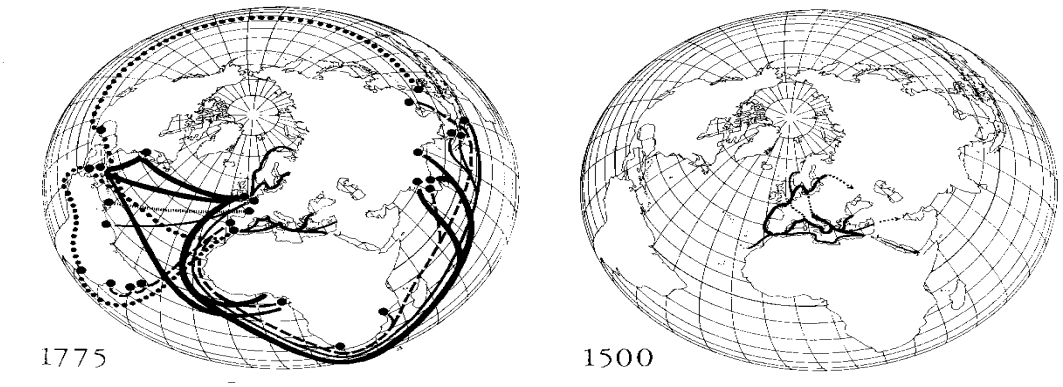

المصدر:

Fernand Braudel, civilisation matérielle, économie capitalisme XV^e^-XVIII^e^ siècle, op cit, pp : 18-19.

ولّدت هذه الاكتشافات هيكلة جديدة للمجال العالمي، تمثّلت في إمبراطوريات بحرية تجارية، ميزتها هو نشاطها الدولي المتمثّل في الاستعمار واستغلال مجال الغير. ولقد احتُفِظَ بهذا النشاط حتّى بعدما تغيّرت هيكلة المجال العالمي إلى دول قومية، وتحولت هذه الإمبراطوريات في حدّ ذاتها إلى دول قومية.

[1]– عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، مرجع سبق ذكره، ص:60.

[2]– هارالد نويبرت، مرجع سبق ذكره، ص:25 .

1- الإمبراطورية البرتغالية التجارية

تعتبر البرتغال أوّل امبراطورية بحرية قامت بسلسلة من المغامرات الاستكشافية أدّت بها في نهاية المطاف إلى استكشاف مواقع وأماكن كان لاستكشافها الأثر البليغ عليها وعلى العالم أجمع.

ولقد ساعد على نجاح البرتغاليين استعانتهم بالمعلومات الملاحية التي عرفها المسلمون، ولذلك اهتم البرتغاليون قبل القيام باستكشافاتهم بإرسال بعثات إلى العالم الإسلامي للحصول على بعض الخرائط التي رسمها المسلمون للمحيط الهندي وبحر الصين، بالإضافة إلى بعض الدراسات عن التيارات البحرية ومواعيد الرياح وغيرها من المعلومات الملاحية؛ كذلك توافر البرتغاليون على الأدوات اللازمة من علم وخبرة وسفن متطوّرة، واعتقادهم بكروية الأرض.

بدأت التجربة البرتغالية على يد الأمير "هنري" الملاح، الذي تربّى تربية دينية مسيحية، ولّدت عنده عقيدة مسيحية وكره شديد للإسلام، تمثّلت أولّ إنجازاته في طرد المغاربة من مدينة سبته، ثمّ استهدف مدينة طنجة المغربية لكسر سيطرة العثمانيين على البحر الأبيض المتوسّط، الأمر الذي لم يتسنّ له، فاتجه إلى الساحل المغربي على المحيط الأطلسي بهدف إقامة إمبراطورية برتغالية في إفريقيا لنشر المسيحية، وأخضع إفريقية الشمالية الغربية من نهر السنغال إلى غانا، واستعبدوا سكّانها من أجل تحصيل الأموال، ثمّ واصل البرتغاليون إبحارهم في المحيط الأطلسي جنوبا، ووصلوا في 1441 إلى البقاع الإفريقية الجنوبية واستغلّوا غاباتها.

بعد وفاة الأمير "هنري" واصلت البرتغال استكشافاتها ، وتمكّن "فاسكو ديجاما" من تكملة ارتياد الطريق الجنوبي الإفريقي، فوصل إلى رأس الرجاء الصالح ثمّ إلى ساحل القارة الشرقي نحو الموزمبيق، ووصل إلى الهند، ثمّ عاد إلى البرتغال سنة 1499 وسفنه محمّلة بالتوابل والمنتجات الشرقية.

اكتشف البرتغاليون أنّ نفوذ المسلمين كبير في الهند وأنّه لا سبيل إلى تكوين إمبراطورية بحرية إلا بالقضاء عليهم وطردهم. ثمّ حاولوا أن يسيطروا على الطرق المؤدّية للهند والشرق الأقصى سواء في البحر الأحمر –عدن– أو الخليج –هرمز– في1509 وأقاموا محطّة تجارية ثابتة للبرتغال في "جوا" ثمّ استولوا على "ملقا" قرب "سنغافورة" في 1511؛ ولقد حاولوا جعل هذه الطرق ومعها البحر الأحمر مياه برتغالية خاصة لا تنشط فيها أي دولة أخرى إلاّ بعد الموافقة الرسمية، وبلغ نشاطهم ساحل الصين.

أما فيما يخص العالم الجديد، فلقد اكتشفت البرتغال البرازيل سنة 1500، إلاّ أنّ اهتمامها بالطريق إلى الهند أخّر استغلال البرازيل إلى غاية 1525، واستغلّتها بتنظيم الإقطاع، حيث أقطعت المغامرين من البرتغاليين إقطاعيات من أرض البرازيل، يرتكز كلّ إقطاع عل قاعدة من الساحل ثمّ يتوغّل صاحب الإقطاع نحو الداخل، ونُشرت اللغة البرتغالية وعُلّمت الأهالي، ونُشرت المسيحية

الكاثوليكية، وأُرهق الأهالي بالعمل في مزارع قصب السكّر، واستجلب العبيد من غرب إفريقيا للعمل في المزارع أيضا، فعند نهاية القرن السادس عشر كان بالبرازيل وحدها حوالي 25000 من العناصر البيضاء أو المختلطة، و18000 من الوطنيين و14000 من العبيد المستقدمين[1].

بدأت قوّة البرتغال تتهاون وتتلاشى منذ النصف الثاني للقرن السادس عشر، بعدما استعمرت هي الأخرى من طرف إسبانيا.

2- الإمبراطورية الإسبانية

شاركت إسبانيا البرتغال في ميدان الكشف الجغرافي لنفس الأسباب التي دفعت البرتغال، وهي الرغبة في تجاوز وساطة المسلمين وتجار البندقية في تجارة الشرق، إلاّ أنّ إسبانيا وعلى عكس البرتغال وجّهت عمليّاتها الاستكشافية نحو الغرب، فمنذ سنة 1492 خرج الملاح "كريستوف كولومبس" الذي كان شبه واثقا من إمكانية الوصول إلى الشرق من الغرب، ووصل إلى جزر البهاما وجزيرة هايتي والشاطئ الشمالي لكوبا.

ثمّ في مرحلة ثانية استطاعت إسبانيا عن طريق "ماجلان" أن تدور حول العالم في اتّجاه واحد من إسبانيا إلى إسبانيا في 1521، وافتتح الإسبان المكسيك عن طريق "كورتيز"، فيما احتلّ "فرانسيسكو بيزارو" أمريكا الوسطى والبيرو وأمريكا الجنوبية بحثا عن الذهب. إذ أنّ البيرو وبوليفيا والشيلي كانت تزخر بالذهب، فاستعمروها وأبادوا أهلها من مجتمعات "الإنكا" و"الأزتيك" وحضاراتهم[2]، حيث وجدوا دولا زراعية منظّمة، لسكّانها أساليبهم المتقدّمة في الزراعة وتمهيد الأرض وحفر القنوات، ووجدوا قصورا ومعابد وغيرها من معالم متطوّرة. فبنوا فيها مدنا جديدة تسهّل لهم استغلال المناجم أحسن استغلال. وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر وصلت إسبانيا إلى فنيزويلا وكولومبيا[3].

تولّت اسبانيا إدارة واستغلال تجارة الهند الغربية، فأنشأت غرفة التجارة بإشبيلية، وظيفتها الإشراف على كلّ ما يتعلّق بالاقتصاد في الهند الغربية من تجارة ومهاجرين وتنظيم الهجرة[4].

تضاءل إنتاج الذهب فاتجه المستعمرون البرتغال والإسبان إلى الزراعة في العالم الجديد، فجلبوا العبيد لاستخدامهم، حيث بلغ عدد العبيد المستجلبين من إفريقيا عشرين مليونا بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر.

---

[1] – عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، مرجع سبق ذكره، ص ص:54-55.

[2] - انظر المبحث الرابع من الفصل الأوّل.

[3] – المرجع السابق، ص:59-63.

[4] - عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، مرجع سبق ذكره، ص ص: 70-71.

ففي 1594 قدّرت نسبة صادرات المستعمرات الاسبانية في أمريكا من الذهب والفضة إلى إجمالي الصادرات بـ95.62%، فيما تمثّلت بقيّة الصادرات في منتجات زراعية وحيوانية، وانخفضت هذه النسبة إلى84% في القرن السابع عشر[1].

3- الإمبراطورية الهولندية

كانت هولندا خاضعة لإسبانيا، وبعد انتهاء حرب الثلاثين عاما وعقد صلح "ويستفاليا" حصلت هولندا على استقلالها وانطلقت في تجارة التوابل، وبحكم مكانها الجغرافي المتميّز المطلّ على نهر الراين المخترق لأوربا، الأمر الذي يسهّل نقل هذه المتاجر لدول أوربا بطرق سهلة وغير مكلّفة، تحوّلت التجارة من لشبونة إلى أمستردام، أي من البرتغال إلى هولندا.

فبعد تحطّم الإمبراطورية البرتغالية على يد إسبانيا، استولت هولندا على أملاك البرتغال في آسيا في الهند وفي الهند الشرقية وأقاموا بها مستعمرات، خصّصوها لزراعة البن والأرز بعد ذلك، يشترونه من الفلاحين الأندونيسيين بأسعار زهيدة جدّا.

وفي القرن الثامن عشر رأت هولندا بضرورة السيطرة المباشرة على الأراضي عن طريق الامتلاك المباشر لها، فبدأت بنقل ملكية الأراضي والمناطق الحسّاسة كموانئ أندونيسيا إلى الهولنديين، فأصبح التجار الهولنديون هم محتكري تجارة هذه الجزر. كما استطاع الهولنديون من استكشاف ساحل شمال أستراليا حيث استكشفوا نيوزيلاندا سنة 1641.

أمّا فيما يتعلّق بالعالم الجديد، أقام الهولنديون شركة الهند الغربية الهولندية التي عملت على زيادة مساحة الأراضي الهولندية في أمريكا الجنوبية، وأقاموا مستعمرات عدّة وبنوا أمستردام الجديدة[2].

4- الاستعمار الفرنسي

على الرغم من أنّ فرنسا كانت قد حقّقت وحدتها مبكّرا واستطاعت إقامة حكومة مركزية، وبالرغم من أنّها كانت قوّة عسكرية يحسب لها ألف حساب إلاّ أنّها قد تأخّرت في مجال الاستعمار الخارجي، وذلك لأنّ فرنسا كانت من الدول التي حاولت تدعيم مركزها وحكومتها عن طريق التوسع داخل نطاق القارة فكان ذلك سببا في الحروب الإيطالية، حيث أنّ فرنسا أرادت السيطرة على شبه الجزيرة الإيطالية للسيطرة على احتكار تجار المدن الإيطالية على التجارة العالمية، ولهذه الأسباب انشغلت فرنسا عن الاستكشافات الجغرافية ولم تدخل في هذا المضمار إلاّ في منتصف القرن السادس عشر، أين استطاعت الوصول إلى العالم الجديد، حيث اكتشف الملاح الفرنسي "كارتيه"

---

[1] – عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، مرجع سبق ذكره، ص:64.

[2] – عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، مرجع سبق ذكره، ص ص:71-74.

مصب نهر "سانت لورنس" وتوسّع الفرنسيون بعد ذلك حتّى وصلوا "مونتريال" ، ثمّ توغّلوا بعد ذلك بقرن وأقام "دي شامبلان" مستعمرة كيبيك الفرنسية في كندا.

وفي 1682 استطاع البحّار الفرنسي "لاسال" اكتشاف نهر "المسيسبي" الذي بدأ الفرنسيون الانتشار من حوله مكوّنين إمبراطورية فرنسية في القارة الجديدة، وتمكّنوا من إنشاء مستعمرة "لوزيانا".

أمّا في ما يخص آسيا، فبعدما تداعت قوّة الإمبراطوريات البرتغالية والإسبانية والهولندية، اتجهت فرنسا إلى الهند وأقامت مراكز تجارية على شاطئيها الشرقي والغربي واتخذت من هذه المراكز نقاطا لاندفاع الفرنسيين في الداخل والتوغّل في الهند[1].

5- الاستعمار البريطاني

لم تدخل إنجلترا هي الأخرى ميدان الاكتشافات إلاّ متأخّرا في القرن السابع عشر، وكانت قبل ذلك تكتفي بالقرصنة البحرية على السفن الإسبانية المحمّلة بالذهب، الأمر الذي دفع بإسبانيا إلى محاولة غزو إنجلترا بالأرمادا سنة 1588، فتحطّم الأسطول العريق أمام أسطول إنجلترا، ثمّ دخلت هذه الأخيرة في مواجهات ضدّ هولندا فتحطّم أسطول هولندا ومنه تحطّمت امبراطورية هولندا، وبدأت ممتلكات الدولتين تؤول إلى إنجلترا.

أمّا فيما يخص المستعمرات الإنجليزية فلقد أسّست إنجلترا سنة 1606 شركتين ملاحيتين هما: شركة "لندن" وشركة "بليموت" لتقوم بالاستيلاء على الشاطئ الأمريكي وإنشاء مستعمرات إنجليزية به؛ وابتداء من سنة 1607 بدأت المستوطنات الإنجليزية في أمريكا بالظهور ليصل عددها السبعة سنة 1665: ماتسوشتس، كانيكتيكوت، ورود أيلندا، ومين، ونيوهامبشير، وميريلاند، وكارولينا. كما عملت الحكومة الإنجليزية منذ 1664 على القضاء على مستعمرات الهولنديين الذين أنشأوا أمستردام الجديدة التي كانت في قلب المستعمرات الإنجليزية، وكذلك المستعمرات السويدية التي كانت حول نهر "دلوير"، وهكذا استطاعت إنجلترا تأسيس ثلاث عشرة مستعمرة على الشاطئ الشرقي لأمريكا الشمالية.

ولاستغلال هذه المستعمرات، كان لا بدّ من إبادة السكان الأصليين واستجلاب العبيد لاستخدامهم في الزراعة ولكن هذه المرّة في الصناعة أيضا لأنّ ثمّة شيئا جللا واكب هذه المرحلة يتمثّل في الثورة الصناعية[2].

لقد أدّى تعاقب هذه الإمبراطوريات إلى تتابع ملاحم تقسيم المجال العالمي في كلّ مرّة، حيث تتربع الإمبراطورية المهيمنة على أكبر جزء من المجال العالمي، وتحقّق بذلك أحسن رخاء،

---

[1] – المرجع السابق، ص:74.

[2] – المرجع السابق، ص ص:75–77.

وهي بذلك تكون مركز العالم؛ وعلى هذا الأساس جاءت أوّل ملحمة تقسيم بين إسبانيا والبرتغال في القرن السابع عشر.

شكل رقم11: الاستعمار الأوربي للعالم حوالي سنة 1700

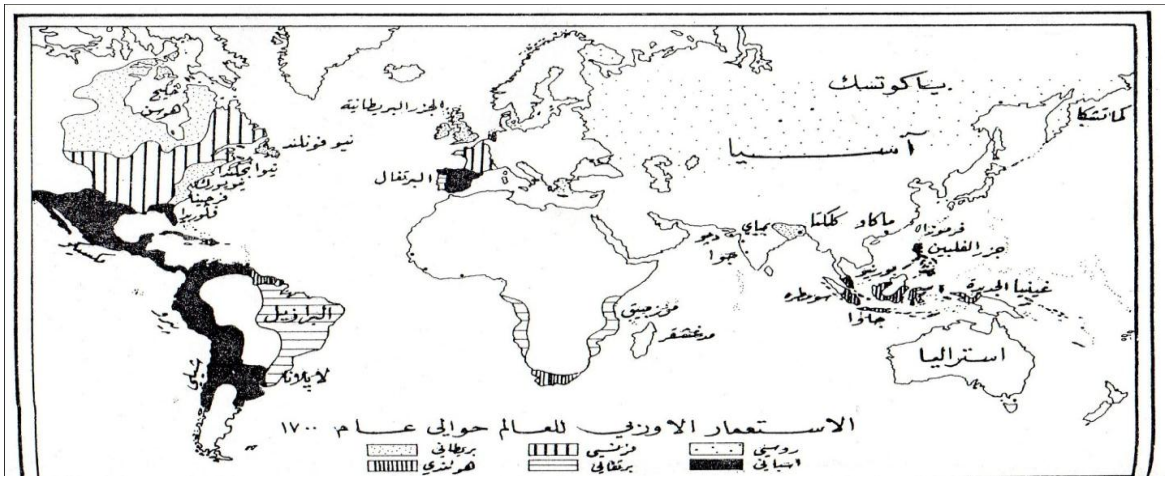

المصدر: عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، مرجع سبق ذكره، ص:523.

نقرأ من خلال الشكل السابق، كيفية بدء إخضاع المجال العالمي للاقتصاد–عالم الأوربي في مرحلته الأولى، والتي كانت بدرجة أولى تحت هيمنة الإمبراطوريتين البرتغالية والإسبانية، ثمّ تناوبت المستعمرات على أيدي الإمبراطوريات المتتالية، ففي كلّ مرّة تظهر قوة حربية أو مركز اقتصادي جديد، يكون على حساب سابقه في العادة، فالبرتغال سقطت على يد إسبانيا، وإسبانيا سقطت على يد هولندا، وهولندا على يد إنجلترا، وفي القرن التاسع عشر، وبعد استكمال الدولة القومية، وحصول أغلب دول أمريكا الجنوبية على استقلالها، طبّقت الدول الأوربية حركة استعمارية جديدة شملت جلّ إفريقيا وآسيا كما يبيّنه الشكل التالي:

شكل رقم 12: العالم المستعمر من طرف أوربا في 1914

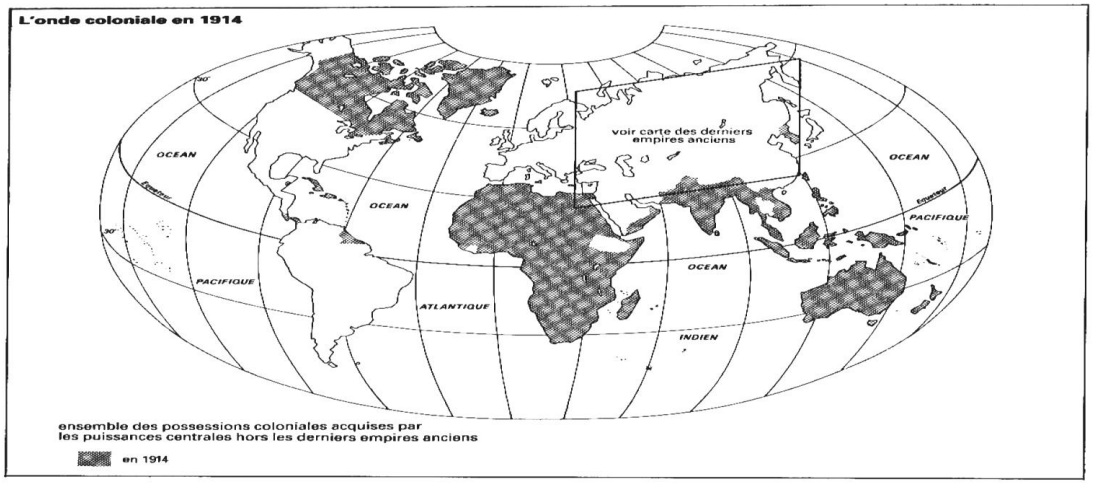

المصدر: Robert Fossaert, Le monde au 21ime siècle, T1, op cit, p:30.

إذ يتبيّن من خلال الشكل أنّه في 1914 كانت إفريقيا وأستراليا مستعمرتين تقريبا كلّيا، وكذلك جنوب آسيا وكندا، فهي مجال تتحكّم فيه أوربا، وجه من أوجه العولمة الأوربية.

المبحث الخامس: الثورة الصناعية

تجسّدت النهضة الأوربية في الميدان الاقتصادي في الثورة الصناعية، حيث بدأت في القرن الثامن عشر في إنجلترا، وامتدت إلى بلدان أوربية أخرى في القرن التاسع عشر.

وليس من السهل تحديد عوامل قيام الثورة الصناعية في إنجلترا، ولهذا يمكن القول إنّ هذه الثورة كانت عملية بطيئة جدا، لدرجة أن "آدم سميث" عاش البوادر الأولى لهذه الثورة دون أن يشعر[1]، وكانت صعبة، ومعقدة وشاقة أيضا. وبالتالي فالأصح أن نعتبر هذه الثورة، وكما يعتبرها المحللون والمؤرخون الإنجليز أنفسهم، نتاج عوامل متداخلة، قد يرجع امتدادها إلى زمن بعيد. وقد تكمن أهمّ عوامل قيامها في وفرة رأس مال، وفي الاكتشافات الصناعية الفردية، وفي الاقتصاد الوطني الذي أحسنت إنجلترا تكوينه وتأطيره وحمايته، وكذلك في اتساع السوق الخارجي بفضل قوة الأسطول البحري الإنجليزي، وعوامل أخرى، داخلية وخارجية، الكل مترابط فيما بينه[2].

ويمكننا أن نقف على بعض أهمّ هذه العوامل الاقتصادية فيما يلي:

---

[1] −Fernand Braudel, **La dynamique du capitalisme**, Champs Flammarion, Paris, 1999, p:109.

[2] − ibid, p:114.

1- الاختراعات التقنية

شهدت انجلترا في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر اختراعات كان لها أثر دفع كبير على الاقتصاد من خلال زيادة إنتاجية العمل، مسّت بدرجة أولى قطاعات النسيج والصلب والطاقة.

فلقد تمّ اختراع آلة لف الحرير سنة 1716، وآلة الغزل وآلة النسج الآلي سنة 1785، الأمر الذي مكّن من قيام صناعة نسيجية قوية في انجلترا، كان لها أثر الدفع على الصناعة الإنجليزية، دفعت بإنجلترا إلى الرّيادة الاقتصادية الصناعية، قوامها ما يفوق المائة مصنع ضمّ الآلاف من العمال في القرن الثامن عشر.

وبالنسبة لصناعة الحديد والصلب فلقد تمّ اختراع طريقة صناعة الصلب من الحديد والفحم سنة 1735، وكذا أُسّس أوّل مصنع للتعدين باختراع طريقة لإذابة الحديد سنة 1750، وتطوّر إنتاج الحديد نوعا وكمّا ليتضاعف إنتاجه بين سنة1720 وسنة 1850 من 25000 طن إلى 2249000طن، وتتضاعف صادراتها أيضا بين 1826 و1846 بسبع مرّات ونصف أيضا، كما تضاعف إنتاج الفحم أربع مرّات، وهو ما يوازي استخراج أربع أمثال ما استخرجته فرنسا، وبلجيكا وبروسيا معا، وارتفع تصديره أيضا حيث ارتفعت قيمة صادراته من 25000 طن سنة 1828 إلى 2100000طن سنة 1845.

هذا ويبقى اختراع الآلة البخارية سنة 1764 من أكبر اختراعات القرن الثامن عشر، وهي التقنية التي استعملت في المحرّكات ووسائل النقل أمدا طويلا؛ وكانت إنجلترا أيضا السبّاقة في تشييد خطوط السكك الحديدية منذ سنة 1825، حيث بلغ طول شبكة السكك الحديدية في منتصف القرن التاسع عشر نحو عشرة آلاف كيلومتر[1].

بعدما اعتبرت إنجلترا مصنع العالم بامتياز، أخذت هذه الثورة الصناعية تنتقل إلى بلدان أخرى، كانت في العادة تنتمي إلى المجال الأوربي القديم المجاور– الجغرافي– أو الجديد –المكتشف أو المستعمر–؛ ويمكن أن نقرأ تواريخ انطلاقاتها من جدول مراحل النمو الاقتصادي لـ" روستو".

[1] – جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، مرجع سبق ذكره، ص:342؛ فتح الله ولعلو، مرجع سبق ذكره، ص ص:56–63.

جدول رقم1: مراحل الانطلاقة الاقتصادية حسب "روستو"

البلد	السنوات	البلد	السنوات
إنجلترا	1802-1783	كندا	1890-1868
فرنسا	1860-1830	روسيا	1900-1878
الولايات المتّحدة الأمريكية	1860-1843	اليابان	1914-1890
ألمانيا	1873-1850	السويد	1914-1896

المصدر: فتح الله ولعلو، مرجع سبق ذكره، ص:63.

2- التراكم النقدي

اجتاح أوربا تدفّق كمّيات كبيرة من الذهب المكتشف في أمريكا وبالخصوص من المكسيك والبيرو، بلغت في الفترة ما بين1521-1660، 18مليون طن من الفضّة و200طن من الذهب حسب بعض الإحصائيات الرسمية، وبلغت هذه الكمّيات الضعف حسب إحصائيات أخرى[1]، مكوّنا تراكم رأسمال في أيدي طبقة التجّار الذين واكبوا الثورة الصناعية فأنشأوا أولى المنشآت الصناعية الكبرى التي تستخدم الواحدة منها ما يزيد عن المائة أجير. لقد اعتبر الاقتصاديون هذا التراكم عنصرا ضروريا للعملية الإنتاجية باعتباره عاملا من عوامل الانتاج، وعبّر ماركس عن انتقال رأس المال من النشاط التجاري إلى الصناعي بـ" خضوع الرأسمال التجاري للرأسمال الصناعي"[2].

3- تكوّن السوق الوطنية

يعتبر ميلاد الأمّة، أو دولة الأمّة، أو الدولة القومية حدثا مهمّا من الناحية الاقتصادية، إذ ساعدت الدولة القومية على إخراج الأقاليم من عزلتها وإزالة الحدود التي كانت تفصل بين هذه الأقاليم، موسّعة بذلك رقعة الأسواق الإقليمية المحلّية لتصبح أسواقا وطنية أو بالأحرى إقتصاديات وطنية[3]، "والإقتصاد الوطني، هو مجال سياسي محوّل من طرف الدولة، بحسب مستلزمات وتطورات الحياة المادية، إلى مجال إقتصادي متجانس وموحّد، تستطيع النشاطات فيه أن تتماشى وتتساير في إتجاه واحد"[4]؛ وهو يجسّد ما يمكن تسميته بالوطنية الاقتصادية التي عرّفها "فرونسوا

---

[1] – Michel Beaud, , Histoire du capitalisme.., op cit, p :21.

[2] – هارالد نويبرت، مرجع سبق ذكره، ص:62.

[3] – إن أهمية هذه الظاهرة جعلتها عند البعض نقطة بداية تاريخ العولمة، أنظر المبحث الثالث من الفصل التمهيدي.

[4]– Fernand Braudel**, La dynamique du capitalisme**, op cit, p : 103.

بيرو" قائلا: "تعبر الأمة إقتصاديا عن مجموعة من المؤسسات و العوائد تحت حماية ونظام مركزي يملك الاحتكار والقوة العموميتين مجسّدا في الدولة، على أن تقوم بين هذه العناصر علاقات خاصة تجعلهم متكاملين"[1]، وتعتبر إنجلترا الوحيدة التي حقّقت هذا الإنجاز بدقّة[2] وأحسنت حمايته وحماية صناعتها أيضا، ما لم يفعله أي بلد أوربي[3].

4- **اتساع مجال العالم الاقتصادي**

كان للاكتشافات الجغرافية الأوربية التي عرفها العالم من اكتشاف أمريكا وطريق الهند البحري عن طريق رأس الرجاء الصالح آثار بالغة الأهمية، إذ بالإضافة إلى تمويلها العالم الأوربي بالمعادن النفيسة كما سبق ذكر ذلك، كانت أيضا بمثابة توسعة سوقية أعطت دفعة جديدة للنشاط الاقتصادي، لخّصها لنا ماركس وإنجلز: "إنّ اكتشاف أمريكا والالتفاف حول إفريقيا زوّدا البرجوازية الصاعدة بأرض جديدة، كما أنّ أسواق الهند الشرقية والصين واستعمار أمريكا والمبادلات مع المستعمرات وزيادة وسائل التبادل والبضائع عموما أكسبت التجارة والملاحة والصناعة انتعاشا لم يسبق له مثيل"[4].

إنّ التكلّم عن الثورة الصناعية لا يعني على الإطلاق، تخصيص الثورة بالصناعة فقط، وإنّما كانت الثورة الصناعية قاطرة لتطوّر القطاعات الأخرى وعلى رأسها القطاع الزراعي الذي عرف استعمال الآلات فيه، فارتفع حجم الإنتاج والإنتاجية.

خلاصة : قراءة النسق العالمي للعصر الحديث

لقد حدث في النسق العالمي تحوّلات بالغة الأهمية كان منطلقها وأساسها العالم الأوربي.

1- التحوّلات الهيكلية للاقتصاد-عالم الأوربي

تمثّلت أهمّ هذه التحوّلات بالدرجة الأولى في:

تحكّم الاقتصاد-عالم الأوربي في المجال العالمي بعد اكتشافه كل من أمريكا، طريق الهند حول رأس الرجاء الصالح، والدوران على الأرض. إذ منحته هذه الاكتشافات ميزة تميّز بها عن باقي العوالم، كما كانت لها من اثر الدفع الكبير في جلّ التطوّرات التي عرفتها أوربا.

---

[1] – Sèrge Latouche, **Les dangers du marché planétaire**, presses de sciences po, Paris, 1998, p : 46.

[2] – Fernand Braudel, **La dynamique du capitalisme**, op cit, p : 103.

[3] - ibid, p : 106.

[4] – هارالد نويبرت، مرجع سبق ذكره، ص ص:43-44.

تعتبر الثورة الصناعية، ثاني أهم تحوّل إيجابي شهده الاقتصاد–عالم الأوربي، ثورة كانت نتاج ثورة علمية، وكانت لها نتائج ظاهرة تبلورت في تفوق الاقتصاد–عالم الأوربي على ما سواه من العوالم.

كما تمثّلت ظهور الدولة القومية التي أخذت تتكرّس في هذه المرحلة التاريخية كأهم هيكلة للاقتصاد–عالم الأوربي ثالث أهم هذه التحوّلات، أخذ تكرّسها وقتا طويلا إذ أنّه في نهاية العصر الحديث كانت لا تزال دول تنشأ وأخرى تزول كبروسيا وألمانيا أو حتّى إيطاليا والدولة التركية، وكانت أيضا مراحل شاقة تخلّلتها حروب طاحنة وطويلة في بعض الأحيان– كحرب المائة عام بين فرنسا وإنجلترا، أو حتّى الحرب العالمية الأولى وربّما الثانية أيضا– وثورات.

وفي سياق الهيكلة دائما، يمكن القول إنّ في بداية وأثناء العصر الحديث كانت أوربا بصفة خاصة والعالم بصفة أعم مُهيكلا هيكلة غير متجانسة، فنجد الدول–مدن، ونجد الدول القومية، ونجد الإمبراطوريات، بل وحتّى الحضارات القديمة التي كانت لاتزال في أمريكا، ولكن في نهاية هذه المرحلة لم تبق إلاّ الدول القومية تُهيكل الاقتصاد–عالم الأوربي المعولَم أو الرأسمالي بالإضافة إلى مستعمراتها؛ وعلى هذا شملت هذه المرحلة التاريخية المتمثّلة في العصر الحديث من تطوّر الاقتصاد–عالم الأوربي ثلاث مراحل بالنظر إلى تغيّر هيكلته:

المرحلة الأولى: مرحلة دول–المدن، أين كانت المدينة–دولة أو المدن–دول بالجمع، مراكز ومحرّكات الاقتصاد عالم الأوربي، سواء كانت هذه المدن إيطالية كالبندقية أو فرنسية كشمبانيا أو هولندية كأمستردام التي كانت آخر مدينة دولة في الاقتصاد–عالم الأوربي في نهاية القرن التاسع عشر تقريبا[1].

المرحلة الثانية: المرحلة الجنينية للدولة القومية، والتي أخذت شكل الإمبراطوريات التجارية البحرية، وتمثّلت في الإمبراطوريتين البرتغالية والإسبانية، اللتين ركّزتا جهودهما في البحث عن

[1] – يمكن تمثيل آخر مرحلة جزئية من هذه المرحلة الثانية في اقتصاد–عالم أوروبي مركزه أمستردام، محيطه يتمثل في بلدان باقي أوروبا النشطة والمتمثلة في دول البلطيق، دول بحر الشمال، "إنجلترا، ألمانيا الراين والألب، فرنسا، البرتغال، وإسبانيا، إيطاليا شمال روما، بينما المناطق الهامشية تتمثل في شمال المجر، ايرلندا، اسكندينافيا وكل أوربا شرق خط هامبورغ وكذا إيطاليا جنوب روما و أخيرا أمريكا، مستعمرة أروبية مهمّشة بامتياز.

انظر: Fernand Braudel, La dynamique du capitalisme, op cit, P: 95

.

الذهب، ومن خلال بحثهما تمكّنتا من توسيع العالم الأوربي ليشمل قارات أخرى كأمريكا وإفريقيا وأستراليا وآسيا.

المرحلة الثالثة: مرحلة الدولة القومية الرأسمالية الصناعية، وكانت إنجلترا أوّل دولة قومية، مهد الثورة الصناعية ومركز الاقتصاد–عالم الأوربي، وأضحت مثلا يقتدي بها الأوربيون في إرساء دولهم القومية وفي النهوض باقتصادياتهم. فأصبح الاقتصاد–عالم الأوربي رأسماليا صناعيا.

2- علاقات النسق العالمي

أمّا فيما يخص علاقة الاقتصاد –عالم الأوربي مع العوالم الأخرى، فلقد كان في مركز قوّة مع العوالم الأخرى، والقوّة كانت سياسية عسكرية، ثمّ اقتصادية، إذ عمد الاقتصاد–عالم الأوربي الرأسمالي إلى ضمّ أجزاء من عوالم أخرى بالقوّة، وذلك عن طريق استعمارها، وتعلّق الأمر بالعالم الجديد المتمثّل في أمريكا وأستراليا، ولكن أيضا العالم القديم المتمثّل في دول أو مناطق من آسيا: الهند خاصة، وكذلك من إفريقيا التي استعمرت تقريبا كلّها، بل شهدت دول أوربا تنافسا وتسابقا لاستعمار وإخضاع مجالات جديدة إليها.

لقد شهدت هذه المرحلة عملية ضم العوالم الأخرى، عملية استعملت فيها القوّة وكانت جدّ قاسية، تمّ من خلالها دثر الحضارات المتواجدة في أمريكا، بل يمكن القول أنّ الأمر هنا كان محوا بكلّ بساطة لهذه الحضارات والعوالم.

أمّا العالم الإسلامي، وهو أنشط العوالم بعد العالم الأوربي، فكانت علاقته بالاقتصاد–عالم الأوربي تأخذ شكلين، الشكل الأوّل علاقات تجارية كانت في بداية العصر الحديث تتمثّل في الوساطة التجارية للتوابل والحرير بين الصين والهند من جهة وأوربا من جهة أخرى، وحروب دائمة من جهة أخرى بهدف التوسّع من هنا وهناك، ولكن أيضا من أجل نشر الدين المسيحي أو الإسلامي، فلا زالت آثار الحروب الصليبية باقية.

أمّا في المرحلة الثانية والتي جاءت بعد اكتشاف الطرق الجديدة للشرق الأقصى بهدف تفادي الوساطة الإسلامية، ضعف العالم الإسلامي وضاعت منه أربح التجارات المتمثّلة في تجارة التوابل. ومع تقدّم العالم الأوربي أضحت دوله تتنافس تارة مجتمعة وتارة على إنفراد، من أجل استعمار وتقليص مجال العالم الإسلامي الذي فقد شمال إفريقيا كلّه وآسيا وأوربا أيضا، واندثرت مقومات حضاراته ولو بصفة نسبية ومتفاوتة.

جاءت الحرب العالمية الأولى، والتي لا تختلف عن باقي الحروب التي شهدتها أوربا في هذه المرحلة، حروب كانت من أجل السيطرة والهيمنة وتوسيع المجال الجغرافي. إلاّ أنّها جمعت هذه

المرّة القوى الكبيرة في أوربا متمثلة في: روسيا، وفرنسا، وإنجلترا، وألمانيا والنمسا. و دخل العالم الإسلامي المتمثّل في الدولة العثمانية مع دول الوسط ألمانيا والنمسا. وكانت الخلافة الإسلامية والعالم الإسلامي أو الإمبراطورية العثمانية الخاسر الأكبر، إذ اندثرت الخلافة والعالم الإسلاميين، وتحوّلت الإمبراطورية العثمانية ذي الخلافة الإسلامية لتصبح دولة تركية علمانية أوربية تحت قيادة "مصطفى كمال أتاتورك"، فيختفي بذلك العالم الإسلامي تقريبا، إذ أضحى جلّه مستعمرا من طرف الدول الأوربية، لتكون لهم خزّان مواد أوّلية وفلاحية، يطبّق فيها النظام الإقطاعي.

نجد في تفكيك الإمبراطورية العثمانية إلى دويلات دلات منها:

الدلالة الأولى وهي القضاء بالكامل على الخلافة و العالم الإسلامي.

الدلالة الثانية، القضاء على أكبر هيكلة كانت متواجدة في العالم ألا وهي الإمبراطورية العثمانية، في حين أنّ باقي العالم كان مهيكلا في دول قومية أو مملكات، أو إمبراطوريات.

والدلالة الثالثة هي عولمة تجربة الدولة القومية، إذ أنّ الدول الأوربية أصبحت دولا قومية علمانية تفصل بين الدين والدنيا بعد التخلّي عن الكنيسة بمسيحيتها في تسيير شؤون الدولة، وكذلك أضحت الدولة التي كانت تمثّل العالم الإسلامي، بعدما استعمرت جلّ أجزائها. بل يمكن القول أنّ الاقتصاد–عالم الأوربي دمّر كل الاقتصادات عوالم بفرض تجربة الدولة القومية التي تعتبر هيكلة خالصة للاقتصاد–عالم الأوربي.

الفصـــــل الرابـــــــع

النسق العـالمي للعـصر المعـاصر وعـولـمـة الاقتـصاد–عـالـم الرأسـمـالـي، أو النـــــسق العـــالمي المـــــعولَــم

يمكننا اعتبار الحرب العالمية الأولى تاريخ بداية هذه المرحلة، إذ استعمل لأوّل مرّة كلمة العالمية في وصف حدث تاريخي، واستعملت أيضا في الحرب العالمية الثانية، رغم كونهما حرب تصفية حسابات أوربية، وسمّيت كذلك لأنّها كانت بين الدول القوية المستعمرة لأغلب باقي العالم– إفريقيا وآسيا– أنذاك.

أمّا القراءة الاقتصادية لهذه الحرب، فيمكن اعتبارها بحقّ حربا عالمية بالنظر إلى حجم المعدّات المستعملة من جهة، وأيضا بالنظر إلى عدد القتلى والجرحى؛ إذ استفادت الحرب من التطوّرات الصناعية التي عرفها العالم لتكون أكثر دموية، فلقد تم استعمال الآلات الحربية الجديدة إلى جانب الملايين من الجنود، وبلغ عدد ضحايا الحرب العالمية الأولى حوالي تسعة ملايين جندي وحوالي ثمانية ملايين مدني. أمّا الحرب العالمية الثانية فكانت أكثر دموية بموت حوالي تسعة عشر مليون جندي وسبعة عشر مليون مدني، ناهيك عن الجرحى والمعطوبين والمشوّهين، وكذلك ضحايا القنابل الذرية بمختلف أشكالهم الذين قد يصل تعدادهم الخمسة والأربعين مليونا.

هذا وكما يجدر الذكر أيضا أنّ التكلفة المالية لكل حرب باتت حوالي ستّين مليار دولار بسعر سنة 1970[1].

ويمكن القول أنّه في هذه المرحلة بدأت تستعمل بعض المصطلحات المعولمة، كالحرب العالمية الأولى والثانية كما أشرنا، الهيئات الدولية، الشركات متعدّدة الجنسيات أو الشركات العالمية، كما ظهر وشاع استعمال مصطلح العولمة منذ 1990.

المبحث الأوّل: من الاقتصاد–عالم الرأسمالي الأوربي إلى الاقتصاد–عالم الرأسمالي الأمريكي

تراجعت عولمة الاقتصاد–عالم الرأسمالي من بعد الحرب العالمية الثانية إلى تسعينيات القرن العشرين، سنحاول قراءة النسق العالمي في ظلّ هذه التغيّرات.

[1] –Robert Fossaert, **Le monde au 21e siècle**, 2ème partie, (1991), "Les classiques des sciences sociales", [en ligne], http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.htm, l, p :64, p:89.

1- النسق العالمي قبل الحرب العالمية الثانية

عشية الحرب العالمية الثانية، لم تكن هناك دولة منفردة بالرّيادة للاستيلاء على عرش مركز الاقتصاد–عالم المعولَم، فلقد كان المركز متكونا من ثلاث دول: الولايات المتحدة الأمريكية، وألمانيا، والمملكة المتحدة؛ مع التأكيد على وتيرة النمو المتصاعدة لكل من أمريكا وألمانيا، والمتباطئة للمملكة المتحدة وفرنسا، حيث كان معدل نمو ألمانيا عشية الحرب العالمية الأولى يقارب ضعف معدل نمو فرنسا، وتقريبا نفس النسبة نجدها بين معدلي نمو أمريكا وبريطانيا[1].

فيما تتمثل مراكز الصف الثاني في فرنسا، بلجيكا، هولندا، السويد، شيكوسلوفاكيا واليابان، حيث يُعتبر اليابان البلد الأسيوي الوحيد.

فيما عدا هذه الدول المركزية ذات المستويين تبقى كل الدول دولا محيطية مع اختلاف مستويات تهميشها هي الأخرى، إذ نجد:[2]

- دول محيطية أوروبية تابعة لدول المركز، خاصة فيما يخص الإستثمارات، إستثمارات بقيت محدودة نسبيا، ولعلّ هذه المحدودية هي التي جعلت نصيب الصناعة من الدخل الوطني لهذه الدول أقل من 50%. يتكون هذا المحيط من دول أوروبا في المناطق الإسكندينافية ما عدا السويد، أوربا المتوسطية ما عدا إيطاليا، وأوروبا المركزية والبلقانية.

- محيطا مندمجا في الإقتصاد–عالم، متكوّنا من كندا، وأستراليا، وإفريقيا الجنوبية، وزيلندا الجديدة، والأرجنتين؛ دول يمكن اعتبارها في عموميتها مستعمرات إنجليزية باستثناء الأرجنتين التي حققت نموا ملحوظا مكّنها من الانفصال عن باقي المستعمرات الإنجليزية ودول أمريكا الجنوبية. وعموما يمكن إرجاع هذا النمو إلى استثمارات دول المركز خاصة المملكة المتحدة والولايات المتحدة، وتبقى كندا أحسن مثال عن هذا النوع من دول المحيط.

- محيطا مندمجا في طريق الانفصال أو فك الارتباط؛ يتمثل في الدول التي كان يقتصر دورها في إمداد دول المركز بالمواد الأولية، في حين أن سوقها المحلي الداخلي، متحكم فيه من طرف شركات أجنبية. لقد حاولت دول هذا المحيط في لحظة ضعف دول المركز، إرساء قواعد تنموية تماما كما كان الحال في البرازيل والمكسيك.

---

[1] – Michel Beaud, Histoire du capitalisme.., op cit, p : 174

[2]– Bernard Elissalde, Jean Domingo, l'éspace mondial depuis les années 30: une géographie changeante, Bréal, Paris, 1994, pp: 46-47.

- محيطا معتمدا على نفسه: الاتحاد السوفياتي، والذي إنطلاقا من 1920 وفي ضوء الثورة البلشفية 1914 دخل في تجربة التخطيط المركزي والملكية الجماعية لوسائل الإنتاج ليترجم ثورة صناعية أساسها الصناعة الثقيلة.

- المحيط المهيمَن، متمثل في مستعمرات أوروبية من إفريقيا وآسيا، الدول الثانوية لأمريكا الوسطى والأندين، الدول تحت الوصاية الإنجليزية والفرنسية، والأراضي المستعمرة حديثا آنذاك من طرف إيطاليا واليابان؛ إن هذه الدول مميزة بكونها ممولا لدولها المستعمِرة بالمواد الأولية لدرجة أننا نجدها عادة وحيدة التخصص، أمرٌ يمثّل نقطة ضعفها.

- هذا ويبقى ما تبقّى كأراضي منعزلة، أمكنة خصبة في الاقتصاد-عالم الرأسمالي، كالصين مثلا.

يمكن تمثيل هذه الهيكلة في الشكل الموالي.

شكل رقم13: هيكلة الاقتصاد-عالم الرأسمالي سنة 1938

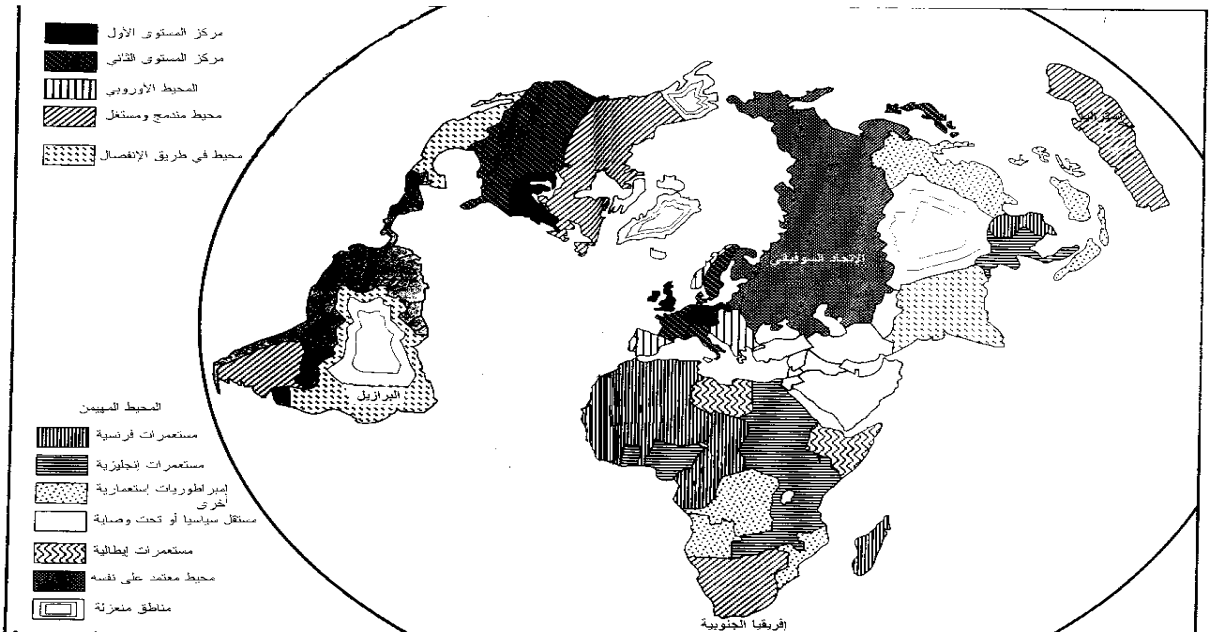

المصدر: Bernard Elissalde, Jean Domingo, op cit, pp: 46-47.

2- النسق العالمي بعد الحرب العالمية الثانية

غداة الحرب العالمية الثانية، وبعد انتصار دول الحلفاء المتمثّلة في فرنسا وإنجلترا وروسيا والولايات المتحدة الأمريكية على دول المحور المتمثلة في ألمانيا وإيطاليا واليابان والإمبراطورية العثمانية، استتب في أوروبا إيديولوجيتان اجتماعيتان اقتصاديتان[1]، كانت كل واحدة منها تطّلع لأن تكون الإيديولوجية الوحيدة للعالم أجمع. فبالإضافة إلى الإيديولوجية الرأسمالية الحرّة التي واكبت الثورات الاقتصادية، إيديولوجية وشعار المنتصر الأوّل من الحرب" الولايات المتّحدة الأمريكية"، بات الفكر الاشتراكي يتغلغل داخل الدول المنهكة كفرنسا وإيطاليا، وذلك بتدعيم من الاتحاد السوفيتي، في حين أنّ ألمانيا مركز دول المحور المنهارة تماما قسّمت قسمين، جزء شرقي تحت احتلال الاتحاد السوفييتي، وجزء غربي تحت احتلال الولايات المتّحدة، وبالتالي أصبح العالم بعدما كان رأسماليا قسمين، عالم أو اقتصاد–عالم اشتراكي مركزه الاتحاد السوفييتي، وعالم أو اقتصاد–عالم رأسمالي مركزه الأوّل الولايات المتّحدة الأمريكية.

2 –1 الاقتصاد–عالم الاشتراكي

في ظل الأزمات الاقتصادية الرأسمالية، وفي ظل العلاقات الاجتماعية السائدة خاصة بين أصحاب رؤوس الأموال والعمال في ظل النظام الرأسمالي، وأيضا في ظل العلاقات الاستعمارية الاستغلالية التي عرفها النظام الرأسمالي في مختلف مراحله والتي كانت في منتهى البشاعة، ظهر فكر اجتماعي اقتصادي في أوربا يرفض النظام الرأسمالي ويرفض الملكية الخاصة لوسائل الإنتاج، ويدعو في المقابل إلى إقامة نوع من الملكية العامة لوسائل الإنتاج في ظل نظام اشتراكي أو

---

[1] – من الحكمة ماتنبّأ به المفكّر الفرنسي" ألكسي دو توكفيل" (1805–1859)، مؤرّخ ومنظّر سياسي، في كتابه "**الديمقراطية في أمريكا**"**(1835)**:" يبدو للناظر اليوم، أنّ هناك شعبين على الكرة الأرضية– وعلى الرغم من بدايتهما المختلفة– يتقدّمان نحو هدف واحد، وهذان الشعبان هما الشعب الروسي والشعب الأمريكي، ومع بدايتهما المجهولة، حين كانت الأنظار منشغلة بأمور أخرى، إذا بهما يحتلّان فجأة مقدّمة الصفوف" ...."فالأمريكيون في صراع مع الطبيعة وقيودها، والروس في صراع مع البشر، أحدهما يحارب الصحراء والبربرية، والآخر يحارب الآخرين بالسلاح، أحدهما يستند إلى الحرّية، والآخر يقوم على الاستعباد، وهما على رغم اختلافهما مدعوان للقيام بدور حاسم في مستقبل العالم، حيث ينتظر أن يقتسما العالم بين أيديهما".
أنظر:حازم الببلاوي، **النظام الاقتصادي الدولي المعاصر، من الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة**، سلسلة عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ماي 2000، ص:23.
إنّ مثل هذا التعليق الذي كتب قبل مائة عام من نهاية الحرب العالمية الثانية، وقبل أن يسمع العالم بكارل ماركس، يدلّ على أنّ للعالمين مقوّمات كانت تبنى منذ فترة طويلة، فترة تفوق المائة عام، قبل أن تصير هاتان الدولتان مركزي اقتصادين– عالمين، ولعلّ استعمال المفكّر الفرنسي مصطلح الشعبين ولا الدولتين، قد يدلّ على أنّ هذه المقوّمات موجودة في الشعب لا الدولة كدلالة على ثقل المقوّمات البشرية في النهوض بالمجتمعات والدول.

شيوعي. وقد تبلور هذا الفكر وتأكّدت معالمه من خلال كتابات ودعوات "كارل ماركس" و"فريدريك إنجلز" إلى النظام الشيوعي بإصدار البيان أو الإعلان الشيوعي سنة 1848، ثمّ تطوّرت هذه الأفكار من خلال كتابات "كارل ماركس" اللاحقة وخاصة مؤلّفه رأس المال(1867-1894).

أُنشئت الحركة الشيوعية الماركسية في عدد من الدول الأوربية الغربية داعية إلى إقامة نظام اقتصادي جديد على أنقاض النظام الرأسمالي القائم. وتبلورت هذه الدعوة في حركة سياسية- ضمن حركات سياسية متنوعة لتغيير العالم قبل قيام الحرب العالمية الأولى-، وفي 1917 استولى الحزب الشيوعي على الحكم في روسيا بعد ثورته البلشفية، ووضع حيّز التطبيق أوّل نظام اقتصادي اشتراكي استنادا على أفكار "ماركس".

واجهت روسيا الشيوعية معارضة الدول الأوربية الغربية الرأسمالية إلاّ أنّها استطاعت أن تفرض نفسها وأن تقضي على التدخّل الأجنبي، واتجهت روسيا ثمّ الاتحاد السوفيتي فيما بعد إلى تعزيز وجودها الداخلي ضد أعدائها من الطبقات الاجتماعية القديمة، وفرض نظم المزارع الجماعية، ثمّ تنفيذ الخطط الخماسية للتصنيع ابتداء من1929، وفي 1948 أعلنت الأحزاب الشيوعية المجتمعة في موسكو تنشيط الدعوة الاشتراكية العالمية.

لقد ساعدت الحرب العالمية الثانية الاتّحاد السوفييتي من الوقوف والتمركز جيدا في المجال العالمي، إذ أنّه استفاد بمقتضى التحالف من مساعدات أمريكية تمثّلت في أسلحة وعتاد وكذلك العديد من السلع الرأسمالية اللازمة للصناعة، فضلا عن بعض أشكال التكنولوجيات المتطوّرة، وفي نفس الوقت ساعدت ظروف الحرب على اتّساع نفوذ الحركات الشيوعية في معظم الدول الأوربية، إذ لعبت الحركات الشيوعية دورا بارزا في المقاومات داخل الدول التي تعرّضت للاحتلال النازي، الأمر الذي جعلها تكتسب شعبية ومشروعية كبيرتين، كما تمّ استغلال التحالف لتمرير الحملات الدعائية والترويجية دون مقاومة من طرف الدول الغربية الحليفة.

بعد الحرب العالمية الثانية أضحى الاتّحاد السوفيتي قوّة عظمى سياسية تشمل ست عشرة دولة[1] سنة 1956 بعيدة عن دعاوى التعددية السياسية، وقوّة عظمى عسكرية بعد امتلاك القنبلة النووية، وقوّة عظمى اقتصادية حقّقت 18% من الإنتاج العالمي في سنة 1940[2]، وبذلك أضحت

[1] – تتمثّل هذه االدول في: أرمينيا، أذربيجان، استونيا، أوزبكستان، أوكرانيا، بيلاروسيا، تركمانستان، جورجيا، روسيا، طاجيكستان، كازاخستان، لاتفيا، ليتوانيا، مولدوفا، قرغيزستان، كاريليا الفرلندية.

[2]– Robert Fossaert, 2ème partie, op cit, p :64.

مركزا لاقتصاد–عالم أساسه الصناعات الثقيلة بعيدا عن الاستهلاك الترفي الغربي. اجتهد في توسيع مجاله المكاني لا عن طريق الاستعمار وإنّما عن طريق التحالفات والمساعدات من أجل التخلّص من الاستعمار النازي في بداية الأمر ثمّ الأوربي فيما بعد.

فحكومات الائتلاف لأوروبا الشرقية التي تحرّرت من الاحتلال النازي لم تلبث أن صُفّيت لمصلحة الأحزاب الشيوعية، وحتّى الدول الغربية التي لم تسقط في أيدي الأحزاب الشيوعية مثل فرنسا وإيطاليا واليونان، فإنّ النفوذ الشيوعي فيها كان كبيرا، ووصل الأمر إلى قيام ما يشبه الحرب الأهلية في اليونان بين حركة شيوعية مدعومة من الاتحاد السوفيتي والحكومة الشرعية المدعومة من الولايات المتّحدة الأمريكية.

وفي آسيا دعّم الاتحاد السوفيتي ثورة "ماوتسي تونج" في الصين، لتخضع له سنة 1949، فتسقط الصين الوطنية لتحلّ محلّها الصين الشعبية الاشتراكية. وكما دعّم الاتّحاد السوفييتي كوريا الشمالية لاقتحام أراضي كوريا الجنوبية، وكذلك قامت بتدعيم الحركات التحررية في الهند الصينية ضد المستعمر الفرنسي والتي انجرت إليها الولايات المتحدة الأمريكية، كما دعّم الاتحاد السوفيتي إيران[1].

واعتنقت بعض دول أمريكا الجنوبية الفكر الاشتراكي أيضا، حيث يمكن اعتبار كوبا أهم هذه الدول[2]، بالإضافة إلى دول أخرى كالبرازيل وفينزويلا.

وعلى هذه الشاكلة ساعد الاتحاد السوفيتي عددا من الدول المستعمرة العربية والإفريقية لتحقيق استقلالها، وبعد استقلال هذه الدول وثأرا وانتقاما من الدول المستعمرة الرأسمالية تبنت هذه الدول كمصر والجزائر النظام الاشتراكي، حيث تلقت مساعدات وإعانات بمختلف أشكالها من أجل إعادة بناء اقتصادها الوطني. وتبنّت أيضا بعض من دول أمريكا الجنوبية ككوبا مثلا النهج الاشتراكي، وشكّل الكل بذلك مجالا جديد للاقتصاد–عالم الاشتراكي، قبل أن تحاول الدول حديثة الاستقلال الملاحظة لتزايد هوة التقدّم بين الشمال والجنوب أن تشكّل عالما خاصا بها في إطار دول عدم الانحياز أو تعاون جنوب–جنوب.

عرف الاقتصاد–عالم الاشتراكي نوعا من الجمود وعدم التفاعل والتغيير، فبدأت تحل به مظاهر الوهن الاقتصادي والرغبة في تغطية الأمور ومواراتها وعدم مواجهتها، وتفشّت في دول عالمه أمراض الفساد والرشوة وسوء الإدارة، وبفعل عدم القدرة على مواكبة الأوضاع الاقتصادية

---

[1] – حازم الببلاوي، مرجع سبق ذكره، ص ص:16–27؛ أنظر أيضا:
Robert Fossaert, Le monde au 21e siècle, 2ème partie, op cit, pp:66-71, pp:92-94.

[2] – عبد الله عثمان عبد الله، **أيديولوجية العولمة، من عولمة السوق إلى تسويق العولمة**، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، 2003، ص:25.

العالمية غير المواتية من تضخّم وركود، بدأ الاقتصاد–عالم الاشتراكي ينسلخ ويتفكك، إلى أن انهار رسميا في بداية العشرية الأخيرة من القرن العشرين، فاسحا المجال المكاني العالمي للاقتصاد–عالم الرأسمالي، ليكون معولَما مرّة ثانية ولكن هذه المرّة تحت لواء الولايات المتّحدة الأمريكية.

2–2 الاقتصاد–عالم الرأسمالي الأمريكي

بعد حصول أمريكا على استقلالها سنة 1783، تصاعدت قوّتها الاقتصادية والعسكرية، واهتمّت بالتوسع الإقليمي على غرار القوى السابقة لها، ولكن الفرق يكمن في أنّ توسّع أمريكا كان جواريا أو محلّيا، ففي الفترة ما بين 1783–1813 أثارت13 ولاية معا ادعاءات إقليمية، وتمّ شراء لويزيانا من فرنسا سنة 1803، كما تمّ ضم فلوريدا من إسبانيا عام 1819، وجرى ضم تكساس من المكسيك عام 1848، وضم دولة أوريغون، وشراء جاد سدين، وتمّ في الفترة من 1853–1896 الاستيلاء على ألاسكا –أو شرائها من روسيا، وضم ميدواه، وفي الفترة مابين 1896 و1917، تمّ ضم هواي وبورتوريكو، واحتلال كوبا حتى عام1902، وتمّ إعلانها محمية من 1898 إلى1934، كما جرى احتلال الفلبين بعد انتزاعها من إسبانيا سنة 1857 إلى أن منحتها الاستقلال سنة 1946. وضمت أمريكا واحتلّت الجزر المرجانية في المحيط الهادئ، وفي 1903 تمّ إنشاء قناة بنما واستئجار منطقة القناة، وفي 1912 تمّ احتلال هوندوراس حتّى 1919، ومرّة أخرى من 1926 إلى 1933، واحتلال فيراكروز في 1914، وفي 1915 تمّ احتلال هايتي حتّى1934، ثمّ أعلنت محمية في 1915–1936، وفي 1916 احتلّت جمهورية الدومنيكان حتّى 1924، ثمّ أعلنت محمية حتّى 1941 وتمّ الاستيلاء على جزر فيرجن[1].

وهكذا استطاعت خلال فترة زمنية قصيرة أن تتحول من دولة صغيرة على سواحل المحيط الأطلسي إلى دولة قارة تطلّ على المحيطين الأطلسي والهادئ، ولعلّ هذا يعتبر هيكلة جديدة للاقتصاد–عالم الرأسمالي الذي أضحى يجد مجال الدول الصغير ضيّقا عليه.

ثمّ إنّه وكما نلاحظ، أنّ هذا التوسّع انطلاقا من استقلال وتكوين الولايات المتّحدة الأمريكية، وأيضا بالنظر إلى مدّها التوسّعي والاستعماري، واجهت الولايات الأمريكية أقوى القوى في تلك الفترة، من إنجلترا التي كانت القوة الأولى عالميا في كلّ المجالات إلى فرنسا ثاني قوّة ، إلى إسبانيا، وهذا ما يدّل على قوّة الولايات المتّحدة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين.

شهدت هذه المرحلة تراجعا في نمو القوى المهيمنة إنجلترا وفرنسا، مقارنة بنمو قوى صاعدة أخرى متمثلة في ألمانيا وأمريكا كما سبق الذكر، الأمر الذي كان له علاقة بنصيب هذه الدول في

[1] – إبراهيم نافع، **انفجار سبتمبر بين العولمة والأمركة**، مؤسسة الأهرام، القاهرة، 2002، ص ص:82–83.

المبادلات العالمية، إذ تراجع نصيب إنجلترا ليصبح يمثل الثمن سنة 1948 بعد ما كان يمثل السدس في سنة 1913 والربع في 1880[1]، وذلك لحساب الدول الناهضة حديثا.

وقُبيل الحرب العالمية الثانية، أصبحت الولايات المتّحدة الأمريكية ثاني قوّة اقتصادية عالمية، تأثّرت بطريقة خاصة بالحرب العالمية الأولى، باعتبارها كانت بعيدة عنها جغرافيا وباعتبار عدم المشاركة فيها، تأثّرا اقتصاديا بالدرجة الأولى ترجم في أزمة كساد اقتصادي أصبحت عالمية سنة 1929.

بنفس القراءة كانت أمريكا المستفيد الأوّل من الحرب العالمية الثانية، إذ ساعدت هذه الحرب على إنعاش الاقتصاد الأمريكي الذي كان يعاني والاقتصادُ العالميُّ من الكساد والركود لمدّة تفوق العقد من الزمن، فالاستعداد للحرب أضاف للاقتصاد الأمريكي طاقة إنتاجية جديدة من أجل الحرب دونما أي تأثير على إنتاجها المدني القائم، وبذلك مثّل الاقتصاد الحربي الأمريكي، إن صحّت تسميته كذلك، إضافة إلى الاقتصاد المدني وليس اقتطاعا أو إعادة توجيه، وخاصة أنّ الحرب كانت تدور في أوربا. وبعد الانتهاء من الحرب العالمية الثانية، وحتى لا تعود العجلة الإنتاجية للتوقف، خاصة وأنّ الاقتصاد الأمريكي خرج من الحرب أقوى في حين أنّ العالم المستهلك المتمثّل خاصّة في أوربا صار أضعف، جاء مشروع مارشال لإعادة بناء وتعمير أوربا المدمّرة والمنهارة، واستُصدر قانون لذلك تحت اسم "قانون الإنعاش الأوربي" سنة 1948، إعانات كانت في شكل هبات نقدية وعينية فضلا عن قروض ميسّرة، بلغ حجم تمويل هذا المشروع خلال الفترة 1948-1951 ثلاثة عشر بليونا من الدولارات(ما يقارب 90 بليون دولار بسعر سنة 2000)[2].

لقد أسدى هذا المشروع خدمات للاقتصاد-عالم الرأسمالي على عدّة مستويات:

- جعل المشروع من أوربا العاجزة سوقا كان الاقتصاد-عالم الرأسمالي بصفة عامة والاقتصاد الأمريكي بصفة خاصة في أمسّ الحاجة إليه للخروج من الركود.
- أحيى المشروع الاقتصاد الأوربي إنتاجا وتجارة، إذ ارتفع الإنتاج الأوربي مع نهاية المشروع في 1951 بحوالي الثلث عمّا كان عليه في بدايته.
- إنّ استرجاع هذا الجزء الحيوي من الاقتصاد-عالم الرأسمالي والمتمثّل في أوربا، يعتبر في نفس الوقت حدّا من مد الاقتصاد-عالم الاشتراكي.

[1] – Michel Beaud, **Histoire du capitalisme**.., op cit, p: 175.

[2] – حازم الببلاوي، مرجع سبق ذكره، ص: 18.

- في ضوء مبادرة مشروع مارشال، اجتمعت ستّ عشرة دولة أوربية في باريس[1]، وكوّنت ما عرف بالمنظّمة الأوربية للتعاون الاقتصادي، للنظر في دفع النمو الاقتصادي لهذه الدول، وتوفير الاستقرار المالي، وتدعيم التعاون الاقتصادي فيما بينها، كدلالة عن نمو هيكلة جديدة للاقتصاد–عالم الرأسمالي، أساسها التعاون الإقليمي والتنسيق في السياسات المالية والاقتصادية للدول الأوربية، مبادرة اتبع آثارها عدد من الدول عبر العالم.
- وجه مشروع مارشال الاقتصاديات الأوربية إلى تحرير التجارة وإزالة القيود حتّى لا تعود إلى الأخذ بسياسات التقييد والرقابة التي عرفتها قبل وأثناء الحرب العالمية الثانية، كمرحلة لوضع أساس نظام اقتصادي عالمي قائم على الحرية التجارية وحرية انتقال رؤوس الأموال، الحرية التي سهرت على تنفيذها المؤسسات الدولية[2].

هكذا انفردت الولايات المتّحدة بمركز الاقتصاد–عالم الرأسمالي، لتتراجع إنجلترا وفرنسا إلى المركز الثاني، وتنتهي مرحلة من مراحل تطوّر الاقتصاد–عالم الرأسمالي المعتمد على الدولتين الصناعيتين الاستعماريتين إنجلترا وفرنسا، ودخل الاقتصاد–عالم الرأسمالي في عصر السيطرة الأمريكية. وفي ظلّ فكر اقتصادي تدخّلي اقترحه "كينز" للخروج من الأزمة العالمية حقّق هذا الاقتصاد–عالم ثلاثين سنة من الرخاء، أو ربع قرن مجيد من بعد نهاية الحرب العالمية الثانية إلى بداية السبعينات.

في حين فقدت الدول الاستعمارية الأوربية مستعمراتها الواحدة تلوى الأخرى، إذ حقّقت مستعمرات كل من فرنسا، إنجلترا، إسبانيا، إيطاليا، البرتغال، وحتّى بلجيكا استقلالها، وبالتالي تقلّصت أقاليم هذه الدول ومن ثمة مجال الاقتصاد عالم الرأسمالي، الأوربي بدرجة أولى، السياسي أوّلا ثمّ اتّضحت معالم الاستقلال الاقتصادي أكثر بعد صدور حملات التأميم كتأميم قناة السويس من طرف مصر، وتأميم البترول والغاز الذي قامت به الجزائر.

تخلّل بين الاقتصادين–عالمين، الاشتراكي والرأسمالي الأمريكي أو بالأحرى بين مركزيهما الاتحاد السوفييتي والولايات المتّحدة علاقات يمكن تلخيصها بالحرب الباردة، تمثّلت أسلحتها في أدوات الحرب الاقتصادية، والنفسية –الدعائية–، والعقائدية، والحروب المحلية والثورات المضادة

[1] – تتمثل الدول المستفيدة من مشروع مارشال: بريطانيا، فرنسا، إيطاليا، ألمانيا الغربية، هولندا، بلجيكا، لوكسمبورج، النمسا، اليونان، الدانمارك، النرويج، إيرلندا، السويد، تركيا، البرتغال، أيسلندا.

[2] – حازم الببلاوي، مرجع سبق ذكره، ص ص:16–27.

وسباق التسلّح وغير ذلك من وسائل الصراع غير الصريحة وأحيانا غير الملموسة[1]، وأيضا تنافس على هيمنة بعض الدول –كما سبق ذكر بعض الحالات آنفا–، فكما دعّم الاتّحاد السوفييتي الصين والفيتنام، دعّمت الولايات الأمريكية المتحدة أفغانستان للتحرّر من الاتحاد السوفييتي، ودعّمت العراق في حربه على إيران المدعّمة سوفيتيا، ولكن لم تكن بين القوّتين حرب مباشرة إلى أن سقط الاتحاد السوفييتي وعالمه الاشتراكي، وأصبح العالم مرّة أخرى اقتصاد–عالم رأسماليا معولما مركزه أمريكا.

المبحث الثاني: الهيئات الدولية و"عولمة الاقتصاد–عالم الرأسمالي"

أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، ظهرت ضرورة إنشاء هيئات دولية تهدف لتنظيم كلّ من المجال العالمي السياسي وكذا المجال الاقتصادي، وذلك بهدف تفادي الأزمات التي عرفها العالم، سواء في شكلها السياسي المتمثّل في الحروب العالمية، أو في شكلها الاقتصادي المتمثّل في الأزمات الاقتصادية العالمية أيضا، وعلى هذا الأساس ظهرت منظّمة الأمم المتّحدة خلفا لعصبة الأمم وأنشئت الهيئات الاقتصادية الدولية.

1- منظّمة الأمم المتّحدة: النظام السياسي العالمي

صدر إعلان الأمم المتحدة ضمن ميثاق الأطلنطي في 1941، عن الرئيس الأمريكي "روزفلت" ورئيس الوزراء البريطاني "تشرشل" لوضع برنامج مشترك يحدّد فيه قواعد ومبادئ وأهداف سياسة الدول المنتصرة بعد الحرب، وفي 1943، صدر إعلان موسكو عن وزراء خارجية الولايات المتّحدة الأمريكية، والمملكة المتّحدة، والاتّحاد السوفييتي، وسفير الصين في موسكو، يتضمّن تعهّد هذه الدول بإقامة نظام دولي يستند إلى مبادئ الاعتراف بسيادة الدول واستقلالها والمساواة بينها، واحترام حقّ تقرير المصير، واستبعاد الحرب كوسيلة لتسوية النزاعات، وضرورة احترام حقوق الإنسان وعدم التمييز العنصري بين الأفراد، مبادئ في غاية المثالية لتنظيم المجتمع السياسي الدولي؛ هذا وتملك كل الدول الحقّ في الانضمام إلى الأمم المتّحدة من أجل تحقيق السلام والأمن الدوليين[2].

انعقد مؤتمر "سان فرانسيسكو" سنة 1945، حيث وُجِّهت الدعوة إلى جميع الدول التي أعلنت الحرب على ألمانيا أو اليابان وهي 45 دولة، انضمّ إليها كلّ من الأرجنتين والدانمارك

[1] – حازم الببلاوي، مرجع سبق ذكره، ص: 202.

[2] – حازم الببلاوي، مرجع سبق ذكره، ص: 222.

وأوكرانيا وروسيا البيضاء فبلغت 50 دولة؛ وجاءت وثيقة المؤتمر في خمس لغات، الإنجليزية والفرنسية والروسية والصينية والإسبانية، تضمّ 111 مادة تمثّل ميثاق الأمم المتّحدة[1].

تتمتّع كل الدول المنضمّة إلى الأمم المتّحدة بالمساواة بينها إذ تملك حقّا واحدا في التصويت في الجمعية العامة دون النظر في مكانتها السياسية، أو قوّتها العسكرية، أو ثقلها الاقتصادي، غير أنّ قرارات الأمم المتّحدة تعتبر توصيات غير ملزمة[2]؛ في حين أنّ الإلزام من خصوصية قرارات مجلس الأمن الذي يتكوّن من نوعين من الأعضاء وفق منطق واقعي، تتمثّل في أعضاء دائمين يتمتّعون بحقّ النقض أو الاعتراض "الولايات المتّحدة الأمريكية، والاتّحاد السوفييتي، والمملكة المتّحدة، وفرنسا، والصين"، وهي الدول التي نادت إلى تكوين هذا النظام، وهي الدول التي انتصرت في الحرب العالمية الثانية باستثناء الصين، وأعضاء غير دائمين ينتخبون لفترة سنتين من بين أعضاء الجمعية العامة التي اتسعت عالميتها بانضمام كل الدول المستقلّة إليها؛ إذ وصل عدد الأعضاء سنة1960 المائة، و157 عضو سنة 1982، و169 عضو سنة1991[3]، ليبلغ عدد أعضائها 193 عضو في الوقت الحالي.

هذا وكما للنظام محكمة عدل دولية، يحتكم إليها الأطراف المتنازعة على اختيارهم.

2- هيئات اقتصادية دولية ونظام اقتصادي دولي معولم

على عكس النظام السياسي العالمي الممثّل بمنظّمة الأمم المتحدة ومؤسّساتها، والذي أنشأه المنتصرون في الحرب العالمية الثانية ليكون عالميا منذ النشأة بغضّ النظر عن إيديولوجياتهم الاقتصادية والاجتماعية، تأثّر النظام الاقتصادي الدولي بهذه الإيديولوجيتين اللتين حالتا دون أن يكون عالميا، وفي حين غياب هيئات ذات طابع دولي في الاقتصاد–عالم الاشتراكي، بادرت الولايات المتّحدة الأمريكية بإنشاء هيئات اقتصادية دولية من أجل تحقيق التنظيم الاقتصادي في الاقتصاد–عالم الرأسمالي، حيث انصرفت دول الاقتصاد–عالم الاشتراكي عن الانضمام إلى هذا

[1] – مراد عبد الفتّاح، **منظّمة التجارة العالمية والعولمة والإقليمية**، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، [د.ت]، ص:160.

[2] – وفي 1943 أنشئت منظّمة الغذاء والزراعة، وفي 1945 منظّمة التعليم والثقافة، بالإضافة إلى منظّمة العمل الدولية التي كانت لاتزال قائمة منذ نشأتها مع عصبة الأمم.

[3] – مراد عبد الفتّاح، مرجع سبق ذكره، ص:59.

النظام حتّى انهار الاتحاد السوفييتي والاقتصاد–عالم الاشتراكي[1].

فعن مؤتمر "بروتن وودز" المنعقد في 1944، تمخّض إنشاء هيئتين اقتصاديتين متمثّلتين في صندوق النقد الدولي المكلّف بقضايا النقد، والبنك الدولي المكلّف بقضايا التمويل والمالية، أمّا قضايا التجارة فتُعرِّض إليها في هافانا سنة1947، لترتّب الاتفاقيات العامّة للتعريفات الجمركية أمام عجز تكوين المنظّمة الدولية للتجارة[2] حتّى سنة 1994، بظهور المنظّمة العالمية للتجارة بعد جولة الأورغواي.

2-1 صندوق النقد الدولي

يعتبر صندوق النقد الدولي أوّل هيئات نظام "بروتن وودز"، أسند إليه مهام العمل على استقرار أسعار الصرف وحرّية تحويل العملات كرد فعل على حروب العملات التي كانت بين الدول المتقدّمة من أجل زيادة تنافسيتها في التجارة الدولية في الفترة ما بين 1929–1939، وتمّ اقتراح مشروعين الأوّل إنجليزي والآخر أمريكي من أجل تحديد الآليات التي عن طريقها يتمّ الحفاظ على توازن سعر الصرف والتجارة الدولية، إلاّ أنّ كون أمريكا تلك الفترة أقوى اقتصاديا، وتتوفّر على أكبر احتياط ذهب، صودق على مشروع "هاري وايت" على حساب مشروع "جون مايرد كينز" الإنجليزي، وإن كانت الاتّفاقية كما قال "كينز" ما هي إلاّ تزاوج مختلف الأفكار[3]. ولقد نصّت المادة الأولى من قوانينه على أهداف الصندوق المتمثّلة في:[4]

- ترقية التعاون التقني، بكونه مؤسسة دائمة، مقدِّمة لآلية استشارة ومساعدة فيما يتعلق بالمشاكل النقدية الدولية.

---

[1] – جاء في كتاب: خالدي الهادي، **المرآة الكاشفة لصندوق النقد الدولي**، دار هومة، الجزائر، 1996،ص:67، جدولا يبيّن حصص وقوّة التصويت في 01جانفي1945، أين يذكر الاتحاد السوفييتي بقوّة تصويت 16.5%، وهذا ما قد يناقض ما جاء في المتن، والواقع أنّ الاتّحاد السوفييتي حاول أن يؤثّر بثقله السياسي على اتّجاه الصندوق باعتباره أحد الفائزين في الحرب العالمية ومن عناصر الحلف، ولمّا جرت الرياح بمالم تشتهيه سفينته، قرّر الانسحاب وعمل على نشر فلسفته الاشتراكية وتنشيط الدعوة الإشتراكية على المستوى العالمي منذ سنة1948 كما سبق أن ذكرنا.

[2] – ثالث مؤسسات "بروتن وودز"، والتي لم ترى النور قط.

[3] – نور الدين حامد، **آثار العولمة الاقتصادية من خلال السياسات المعتمدة من طرف المؤسّسات الدولية على مديونية الدول النامية، دراسة حالة الجزائر**، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، 2006–2007.

[4] – Jean Pasme**, Quels rôles pour le FMI**, Cahiers Français, (n°302,mai-juin2001), pp : 48-49.

- تسهيل توسّع ونمو التجارة الدولية، وبالتالي المساهمة في تحقيق والحفاظ على مستوى مرتفع من التشغيل، ومن الدخل الحقيقي، وكذا الحفاظ على الموارد الإنتاجية لكل الدول الأعضاء.
- ترقية توازن الصرف، والحفاظ على أنظمة صرف منظمة بين الدول، والعمل على تفادي تخفيض قيمة النقود لغرض تنافسي.
- المساعدة على إرساء نظام دولي لتسوية المبادلات التجارية بين الدول الأعضاء وإلغاء قيود الصرف التي تعرقل نمو التجارة العالمية.
- طمأنة دول الأعضاء بوضع الموارد العامة للصندوق مؤقتا تحت تصرفهم، بدون الرجوع إلى إجراءات تمسُّ بالرفاهية الوطنية والدولية.

وأمّا من حيث الآلية فلقد اعتُمد الدولار عملة دولية قابلة للتحويل ذهبا(0.88867غ/ذهب) تأكيدا على هيمنة الولايات المتّحدة الأمريكية من جهة وحفاظا على ثبات أسعار الصرف من جهة أخرى، على أن تحدّد كل دولة سعر صرف عملتها مقابل الدولار مع هامش تغيير قدره 2%، مع جواز التعديل إلى حدود 10% في حالة الاختلال الجوهري[1] في الاقتصاد مع إشعار الصندوق، وقد تصل هذه النسبة إلى 20% بعد رد الصندوق خلال 72 ساعة، أمّا إذا فاقها فلا بدّ من انتظار رد الصندوق غير المحدّد زمنيا.

وللحفاظ على ثبات سعر الصرف، تقوم كل دولة عضو بإيداع حصّتها[2] في الصندوق، وتتكوّن هذه الحصّة من جزء من ذهب يعادل 25% من حصّة العضو، وباقي الحصّة تدفع في شكل عملة محلّية للدولة العضو، مقابل إمكانيتها شراء أي عملة مقابل عملتها من الصندوق في حدود ربع حصّتها سنويا.

استمرّت هذه الآلية في محاولة الحفاظ على التوازن النقدي في الاقتصاد-عالم الرأسمالي، إلى غاية انهيار نظام "بروتن وودز" نتيجة إلغاء الولايات المتّحدة الأمريكية قابلية تحويل الدولار ذهبا أمام تراجع احتياطاتها بتزايد الطلب العالمي على الذهب في ظلّ رخاء الاقتصاد-عالم الرأسمالي الذي عاش ثلاثين سنة من الرخاء؛ وتمّ إصدار حقوق السحب الخاصة كتعديل يهدف

---

[1] – لم يرد أي تعريف للاختلال الجوهري في منشورات صندوق النقد الدولي، إلاّ أنّ بعض الاقتصاديون في ذلك الوقت، أمثال "ألفن هانس" و"روبيرت تريفين" رأوا أنّ الاختلال الجوهري هي الأوضاع التي تؤدّي إلى انخفاض الدخل الفردي وظهور البطالة، في حين يراه آخرون هو الوضع الذي لا يمكن من خلاله تحقيق توازن في ميزان المدفوعات دون تغيير في سعر الصرف.

[2] – تحسب الحصّة بمعادلة تأخذ بعين الاعتبار، الدخل الوطني، متوسّط الاحتياطات الشهرية، المتوسّط السنوي للمدفوعات الجارية، المتوسّط السنوي للمتحصّلات الجارية، أنظر: نور الدين حامد، مرجع سبق ذكره، ص:60.

دائما إلى الحفاظ على استقرار أسعار الصرف المحدّد بقيمة سلّة عملات 16 دولة هي: الولايات المتّحدة، إنجلترا، الدنمرك، ألمانيا الاتحادية، فرنسا، كندا، إيطاليا، هولندا، بلجيكا، السويد، أستراليا، اليابان، النرويج، إسبانيا، النمسا، جنوب إفريقيا؛ خُفّضت منذ 2001 إلى أربع عملات هي: اليورو، الين الياباني، الجنيه الإسترليني والدولار الأمريكي، حيث تساوي وحدة الحقوق الخاصّة 1.26 دولار أمريكي، وتجرى مراجعة العملات المكوّنة للسلّة كل خمس سنوات لضمان تمثيلها للعملات المستخدمة في المعاملات الدولية[1].

حدث في منتصف السبعينات وفي نهايتها (1973-1974)(1979-1980) أزمة النفط، إذ ارتفعت أسعار النفط، فانجر عن ذلك تفاقم الديون عند بعض الدول النامية، وتُترجمُ في بداية الثمانينات إلى أزمة ديون مسّت ما يفوق سبع عشرة دولة نامية تقع أكثرها في أمريكا الجنوبية، وتفجّرت الأزمة بشكل ظاهر في 1982 بالمكسيك، حيث أعلنت الدولة المكسيكية عجزها وتوقّفها عن دفع مستحقّاتها من ديونها تجاه مئات من البنوك التجارية الأمريكية والأوربية؛ وتفاديا لانتشار عدوى عدم الدفع، ومن ثمّة انهيار النظام المصرفي العالمي، تولّى صندوق النقد الدولي مهامه الجديدة التي تربطه بالدول النامية، أين تكمن مهمّته في إعادة جدولة ديونها، وتقديم قروض جديدة لها مع إلزامها بعدد من السياسات المشروطة والمعروفة بسياسات التثبيت المالي والنقدي[2]، التي من خلالها يلزم الدولة المدينة باتباع سياسات اقتصادية تحسّن أوضاع المتغيّرات الاقتصادية الكلّية، حيث حاول الصندوق الاستفادة من تجاربه من المرحلة السابقة مع الدول الرأسمالية ليطبّقها على كل دولة تعاني من مشاكل مالية[3].

ومع انهيار الاقتصاد-عالم الاشتراكي، في نهاية الثمانينات وبداية التسعينات، تولّى صندوق النقد الدولي مهمّة تحوّل وانتقال دوله إلى اقتصاد السوق، ودمجها في الاقتصاد-عالم الرأسمالي بالاشتراك مع البنك الدولي.

2-2 البنك الدولي

يعتبر الصندوق الدولي للإنشاء والتعمير ثاني هيئات أو مؤسّسات "بروتن وودز"، التي جاءت نتاج مشروع "وايت" الأمريكي المجسّد في اتفاقية "بروتن وودز" أيضا، كان عدد الدول المنظمّة إليه ما يقرب 18 دولة، عضويتهم فيها اقتصادية تتحدّد بحسب مساهمتهم في رأسمال

[1] - لمزيد من التفصيل أنظر: حازم الببلاوي، مرجع سبق ذكره، ص ص: 61-73؛ نور الدين حامد، مرجع سبق ذكره، ص ص:78-81.

[2] - لمزيد من التفصيل أنظر: نور الدين حامد، مرجع سبق ذكره، ص ص:83-96.

[3] - طبّقت الإجراءات نفسها على الجزائر جرّاء انخفاض أسعار البترول في 1986.

البنك، تسيطر على هذه المؤسسة خمس دول متمثّلة في الولايات المتّحدة الأمريكية التي كانت تملك حوالي 37% من رأس المال، واليابان وإنجلترا، وفرنسا، وألمانيا، وهم أعضاء دائمون في مجلس الإدارة المتكوّن من 21 عضوا، مقرّه الدائم في واشنطن الأمريكية، وتمّ الاتفاق أيضا على أن يكون مدير البنك أمريكيا دائما[1]، وهو ما جرت عليه العادة منذ نشأته إلى اليوم.

أنشئ هذا البنك[2] بهدف بناء وتعمير الاقتصاديات الأوربية واليابان المتهدمة جرّاء الحرب العالمية الثانية، وعلى هذا قام نشاط البنك الأساسي على الإقراض المشروعي، وخاصة مشاريع البنية الأساسية. استفادت أوربا واليابان من أكثر هذه القروض والمساعدات حيث استفادت فرنسا من قرض مقدّر بـ 250 مليون دولار أمريكي، أكبر قرض مقدّم من طرف البنك على الإطلاق[3].

وبعد منتصف الخمسينات وبعد نهوض أوربا واليابان من دمارهما، تحوّل نشاط البنك إلى العالم الثالث والدول النامية، إذ أضحت الفكرة الأساسية التي يقوم عليها نشاط البنك أنّه يقدّم قروضا للدول العاجزة عن الاقتراض عن طريق الأسواق المالية الدولية، وهي في العادة دول فقيرة غير نامية، وهي قروض كانت تمنح بضمان من الدول المعنية، من أجل تحقيق النمو في فترة معيّنة. ثم انصبّ اهتمامه، مواكبةً مع تطوّ الفكر الاقتصادي، على مسألة التنمية وإعادة توزيع الدخل في فترة الستينات والسبعينات من القرن الماضي؛ وتجدر الإشارة هنا أنّ الدول المعنية بالمساعدة هي الدول التي تتعاظم فيها مصالح الدول الرأسمالية وبالخصوص الولايات المتّحدة الأمريكية، وبعبارة أخرى الدول التي تشكّل محيطا أو هامشا للاقتصاد–عالم الرأسمالي. أمّا الدول النامية ذات التوجّه غير الليبيرالي فلم تكن تحض بأيّ مساعدات تستحقّ الذكر، بل أحيانا كانت توضع في القائمة السوداء للبنك[4].

ثمّ في مرحلة أخرى من تطوّرات الاقتصاد العالمي في الثمانينات، ومع ظهور أزمة المديونية وتفاقمها، تطوّر أو تغيّر دور البنك مرّة أخرى، إذ بدأ يتّجه إلى ما عرف ببرامج التكييف الهيكلي، واستكمال سياسات التثبيت النقدي التي يقترحها صندوق النقد الدولي، وهكذا بدأ كل من المؤسّستين تعملان بتعاون وتنسيق في إعادة توازن المؤشّرات الاقتصادية الكبرى للاقتصاديات

---

[1] – في حين أنّ مدير صندوق النقد الدولي أوربيا دائما كما يتبيّن لنا من خلا المدراء المتعاقبين.

[2] – أنشأ إلى جانب هذا البنك مؤسّسات تعمل معه في إطار ما يسمّى مجموعة البنك الدولي وتتمثّل هذه المؤسّسات في: مؤسّسة التمويل الدولية 1956، هيئة التنمية الدولية 1960، و الوكالة متعدّدة الأطراف لضمان الاستثمار 1985.

[3] – Patrice Dufour, **La Banque mondiale et la lutte contre la pauvreté**, Cahiers Français (n°302, mai-juin 2001), p : 57.

[4] – نور الدين حامد، **المؤسّسات المالية الدولية وأزمة المديونية الخارجية في الدول النامية، دراسة حالة الجزائر**، مذكّرة لنيل شهادة الماجستير في التخطيط، كلّية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، 2001–2002، ص:42.

العاجزة عن الدفع،– خاصّة بعد أن أصبح البنك الدولي يشترط موافقة الدول المعنية على إصلاحات الصندوق قبل منحها القروض التي تحتاجها، الأمر الذي أصبح يسمّى بالمشروطية المتقاطعة–. وتتمثّل هذه المؤشّرات في: مواجهة عجز الموازنة، تحديد أسعار الصرف الواقعية، الأخذ بأسعار الفائدة الحقيقية، إصلاح اقتصادي يتمّ بتكييف هيكلي يتناول علاقات الإنتاج وتنظيم إدارة الاقتصاد تُرجمت بخصخصة الاقتصاد وتحريره والعمل على انفتاحه أو بالأحرى إدماجه في الاقتصاد العالمي[1].

في تسعينيات القرن الماضي، غداة انهيار الاقتصاد–عالم الاشتراكي، طبّق البنك الدولي مع صندوق النقد الدولي نفس الإجراءات على دول الاقتصاد–عالم الاشتراكي المنهار، وهي دول كانت منهارة اقتصاديا في غالبيتها، غير قادرة على الاستدانة، فتمّ إقحامها رويدا رويدا في الاقتصاد–عالم الرأسمالي.

تجدر الإشارة في الأخير إلى تغيّر أو مواكبة فلسفة البنك تطوّرات الفكر الاقتصادي السائد، فعلى سبيل المثال يمكن التلميح إلى تغيّر موقف البنك من تدخّل الدولة في النشاط الاقتصادي من موافقٍ مدعّمٍ له في بداية الخمسينيات من القرن الماضي إلى مناهض لأي تدخّل الدولة منذ بداية الثمانينات من نفس القرن؛ وأيضا تغيّرت سياسات البنك في التنمية بتغير الاجتهادات الفكرية فيما يتعلّق بهذا المصطلح وتميّزه عن مصطلح النمو المعتمد في فترة الستينيات من نفس القرن وما بعدها[2].

ويبقى الهدف النهائي للبنك هو مساعدة رأس المال الدولي الخاص في توسّعه وسعيه إلى مناطق الاستثمار المربح في الدول النامية، ووسيلته في ذلك تمويل بناء شبكة البنية الأساسية والضغط على الحكومات المقترضة لتقديم كافّة الامتيازات والحوافز للاستثمار الأجنبي، وتوجيه الإنتاج نحو التصدير لزيادة حجم ما يعرض في السوق العالمي، ممّا يعود بالفائدة على الشركات العالمية[3].

---

[1] – لمزيد من التفصيل أنظر: عطيّة عبد القادر محمد عبد القادر، مصطفى إبراهيم، **قضايا اقتصادية معاصرة**، مرجع سبق ذكره، ص ص:24–27.

[2] – لمزيد من التفصيل أنظر: حازم الببلاوي، مرجع سبق ذكره، ص ص:168–172.

[3] – عرفان تقي الحسني، **التمويل الدولي**، دار مجلاوي للنشر، عمان، 1999، ص:305.

2-3 من الاتفاقية العامّة للتعريفة الجمركية والتجارة إلى المنظّمة العالمية للتجارة

2-3-1 الاتفاقية العامّة للتعريفة الجمركية والتجارة

على غرار المجال المالي والنقدي الدوليين، لم يكن مجال التجارة في معزل عن الاهتمام بالتنظيم من طرف مركز الاقتصاد-عالم الرأسمالي المتمثّل في الولايات المتّحدة الأمريكية، فبعد الحرب العالمية الثانية كانت الولايات المتّحدة الأمريكية تقريبا الاقتصاد الوحيد السليم، وحتّى لا يقع في الكساد مرّة أخرى ، كان لابدّ من تشجيع فتح الأسواق الخارجية أمامه تحت فكرة التحرير التجاري للأسواق، وعلى هذا جاء في الميثاق الأطلنطي الصادر سنة 1941 عن الولايات المتّحدة الأمريكية وإنجلترا "فتح الأسواق، على قدم المساواة، أمام الجميع للتجارة في السلع والمواد الأوّلية اللازمة لضمان الازدهار الاقتصادي"[1].

وبناء على طلب الولايات المتّحدة أصدر المجلس الاقتصادي والاجتماعي للأمم المتّحدة توصية بعقد مؤتمر دولي للتجارة والتوظيف بلندن عام 1946، واستكملت أشغال المؤتمر في جنيف السويسرية سنة 1947، واختتمت في هافانا أين استصدر ميثاق هافانا سنة 1948، الذي يوصي بإنشاء منظّمة التجارة الدولية من أجل تحرير التجارة، ولقد شارك في هذا المؤتمر حوالي 56 دولة، فيما لم يحضر الاتحاد السوفييتي تعبيرا عن رفضه له مع دوله الحليفة باعتباره أداة في يد الولايات المتّحدة الأمريكية للسيطرة على العالم[2]؛ إلاّ أنّ هذه المنظّمة لم تعرف النور، بسبب عدم موافقة الكونجرس الأمريكي على الميثاق وتخوّفه من أن تفقده المنظّمة بعضا من صلاحياته في رسم السياسة التجارية الأمريكية.

في حين التحضير لميثاق هافانا، استطاعت 23 دولة أن تتّفق على الدخول في مفاوضات من أجل رفع القيود على التجارة فيما بينها في شكل اتّفاقيات ثنائية، عمّمت بعدها لتصبح اتفاقيات متعدّدة الأطراف عرفت بالاتفاقية العامة للتعريفة الجمركية والتجارة سنة1947، التي تعتبر بمثابة ترتيبات خاصة ومبادئ متّفق عليها من أجل تحرير التجارة الدولية. ويمكن تلخيص الأهداف الرئيسية للاتّفاقية العامة للتعريفة الجمركية والتجارة فيما يلي:[3]

---

[1] – حازم الببلاوي، مرجع سبق ذكره، ص:55.

[2] – نور الدين حامد، **العولمة الاقتصادية من خلال السياسات المعتمدة من طرف المؤسّسات الدولية على مديونية الدول النامية، دراسة حالة الجزائر**، مرجع سبق ذكره، ص:150.

[3] – المرجع السابق، ص:151.

- إقامة نظام تجارة دولية حرّة يؤدّي إلى رفع مستويات المعيشة في الدول المتعاقدة والعمل على تحقيق مستويات التوظيف الكامل بها.
- العمل على تحقيق زيادة تنموية وثابتة في حجم الدخل القومي.
- الاستغلال الكامل للموارد الاقتصادية العالمية والعمل على تطويرها.
- العمل على تنمية وتوسيع الإنتاج والمبادلات التجارية السّلعية الدولية والخدمات.
- تشجيع الحركات الدولية لرؤوس الأموال وما يرتبط بها من زيادات الاستثمارات العالمية.
- تشجيع التجارة الدولية عن طريق إزالة القيود والحواجز التي تعترض انسيابها.
- تشجيع الوصول إلى الأسواق ومصادر المواد الأوّلية.
- انتهاج المفاوضات كوسيلة لحل المشكلات المتعلّقة بالتجارة الدولية وفض المنازعات بين الأطراف المتعاقدة.

تقوم الاتفاقية على أساس اختيارية تحرير التجارة الدولية، تقوم بها الدول المتّفقة تحقيقا لمصالحها مقابل ما تحصل عليه من مزايا من الأطراف الأخرى، وقد عقدت لهذا الغرض ثمان جولات حقّقت نتائج معتبرة في تخفيض الرسوم الجمركية في الدول الصناعية التي انخفضت من متوسّط 40% تقريبا زمن إنشاء "الجات" أو "الغات" في 1947 إلى أقل من 8% بعد جولة أورجواي سنة 1993التي انبثقت منها اتّفاقية إنشاء المنظّمة العالمية للتجارة.

2-3-2 المنظّمة العالمية للتجارة

انبثقت المنظّمة العالمية للتجارة من جولة أورجواي بحضور117 دولة في ظلّ تغيّرات اقتصادية دولية يمكن تلخيصها أهم نقاطها في:

- انهيار الاقتصاد-عالم الاشتراكي، وبالتالي اتساع مجال الاقتصاد-عالم الرأسمالي، فضلا عن غياب قطبية ثنائية تعكس نوعا من المعارضة التي تحمي التوازن.
- تنامي القوّة الاقتصادية لليابان ودول جنوب شرق آسيا حديثة التصنيع التي أضحت هي الأخرى بحاجة إلى أسواق لتصريف منتجاتها.
- انفجار أزمة المديونية وما انجرّ عنها من آثار اقتصادية وتجارية ركودية.
- ظهور الحاجة إلى هيئة دولية تسهر على تنظيم التجارة الدولية.

ويمكن تلخيص أهداف المنظّمة العالمية للتجارة في:[1]

[1] – حازم الببلاوي، مرجع سبق ذكره، ص:182.

- الإشراف على تنفيذ مجموعة من الاتّفاقيات متعدّدة الأطراف، المنظّمة للعلاقات التجارية بين دول الأعضاء، بالإضافة إلى الاتّفاقيات الجماعية (غير الإلزامية).
- تنظيم المفاوضات المستقبلية بين الدول الأعضاء حول موضوعات قواعد السلوك التجاري الدولي التي تمّ الاتّفاق عليها في جولة أورجواي، إضافة إلى المفاوضات في جولات جديدة بهدف تحقيق المزيد من تحرير التجارة بوجه عام.
- تسوية المنازعات التي قد تنشأ بين الدول الأعضاء حول تنفيذ الاتّفاقات التجارية الدولية، وفقا للتفاهم الذي توصّل إليه في هذا الشأن.
- استعراض السياسات التجارية للدول الأعضاء وفق الآلية المتّفق عليها بما يضمن توافق هذه السياسات مع القواعد والأسس الواردة في نصوص الاتّفاقات.
- التعاون مع صندوق النقد الدولي والبنك الدولي، بهدف ضمان المزيد من التنسيق في عمليّة صنع السياسات الاقتصادية على المستوى الدولي.

أقامت المنظّمة ستة مؤتمرات وزارية عالمية، كان الأول في سنغافورة سنة 1996 حضره ممثلو أكثر من 120 دولة، والثاني في جنيف سنة 1998، والثالث في سياتل أميركا سنة 1999، والرابع في الدوحة سنة 2001، والخامس في كانكون المكسيكية سنة 2003، والسادس في هون كونغ بالصين سنة 2005[1]، والسابع في الدوحة القطرية سنة2009، والثامن سنة 2011 بجنيف السويسرية[2]. وتناولت تلك المؤتمرات مناقشة قضايا مثل: مشكلة الحقوق الاجتماعية، النمو الاقتصادي والتجاري، الفرص والتحديات التي تواجه دمج الاقتصاد، معايير العمالة المركزية المعروفة دوليا، مشكلة تهميش الدول الفقيرة، دور منظمة التجارة العالمية، الاتفاقات الإقليمية، القبول بالمنظمة، اتفاق تسوية المنازعات، تنفيذ اتفاقات المنظمة، المنسوجات والملابس، التجارة والبيئة، الخدمات والمفاوضات، اتفاق تكنولوجيا المعلومات والمواد الصيدلانية، التجارة الإلكترونية، الكائنات المحوّلة وراثيا والزراعة. ولقد بلغ عدد أعضاء منظمة التجارة العالمية في 2 مارس 2013، 154 عضوا، وثلاث وثلاثين دولة مرشّحة للانضمام من بينها الجزائر.

على عكس المؤسّستين الدوليتين السابقتين المتمثّلتين في الصندوق النقد الدولي والبنك الدولي، واللتين رأينا أنّهما غيّرتا من مهامهما الرئيسية تماشيا مع التغيرات الاقتصادية النسقية

---

[1] – لمزيد من التفصيل أنظر: كمال ديب، **دور المنظّمة العالمية للتجارة في تحقيق أبعاد التنمية المستدامة–مدخل بيئي–**، أطروحة مقدّمة ضمن متطلّبات نيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية–فرع نقود ومالية–، كلّية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، 2008–2009، ص ص:250–275.

[2] -بُرمج انعقاد المؤتمر التاسع في بالي الأندونيسة في ديسمبر 2013.

وتماشيا أيضا مع متطلّبات العولمة الاقتصادية، نلاحظ أن المنظّمة التجارة العالمية هيئة استحدثت بكاملها من أجل مسايرة العولمة.

المبحث الثالث: هيكلة النسق العالمي المعولم، بين الإقليمية والقطبية

كغيرها من الظواهر أو السمات التي تميّز اقتصاد–عالم العصر الحديث، نجد للأقلمة والتكتلات الإقليمية سندا تاريخيا يمتد إلى عصور ومراحل سابقة تعود إلى قرون عدّة، وحسب المعلومات التي أتيحت لنا، فإنّنا نجد أنّ هناك تكتّلات إقليمية بمختلف درجة تكاملها منذ القرن السابع عشر وقبل نشوء الدولة القومية حتّى، ففي سنة 1664 كان هناك في منطقة فرنسا اتّحادٌ جمركي، ووقّعت بريطانيا مع البرتغال معاهدة "مثوين" سنة 1703، أين أعطت بريطانيا بموجبها البرتغال شروطا تفضيلية لاستيراد النبيذ مقابل إنهاء الحضر على الصادرات البريطانية من الصوف، كما وقّعت النمسا اتفاقيات تجارة حرّة مع خمس دول جاراتها.

وفي القرن التاسع عشر، وبالضبط في الفترة ما بين 1818–1924، قام ما يقارب ستّة عشر اتّحادا جمركيا، كان أهمّها الاتّحاد الجمركي الألماني "الزولفرين" الذي دعت إليه ولاية بروسيا سنة 1834، والذي وفّر الحماية المطلوبة لتقوية الصناعات الناشئة في الولايات الألمانية المختلفة، وحقّق نجاحا ومكاسب مهّدت لقيام اتّحاد سياسي سنة 1871. وفي نفس الفترة أيضا، أزالت سويسرا القيود على التجارة بين مقاطعاتها سنة 1848، وشكّلت اتّحادا جمركيا مع إمارة ليخنشتاين لا زال قائما إلى يومنا هذا، وكذلك معاهدة "كوبدين–شيفاليه" التي انعقدت بين بريطانيا وفرنسا سنة 1860، فاسحة مجال قيام تجارة حرّة بين الدولتين[1].

كما لابدّ من ذكر الترتيبات التجارية التي كانت خلال نفس الفترة بين دول المركز الأوربي –فرنسا وإنجلترا– ومستعمراته، الإفريقية بعد انهيار الإمبراطورية العثمانية التي يمكن اعتبارها إقليما جغرافيا واسعا شمل معظم الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، وأنهت المستعمرات الأمريكية باستقلالها الترتيبات التجارية التي أملتها دول المركز الأوربي المستعمر وكوّنت دولا جديدة باتّحاد مستعمرات الإمبراطوريتين الإسبانية والبرتغالية، حيث شهدت المكسيك عمليتي اتّحاد سنة 1857 وسنة 1870، واتّحدت الأرجنتين سنة 1861، وتبعتها البرازيل سنة 1891، ويبقى أهم اتّحاد أُقيم في هذه الفترة بين الولايات المتّحدة الأمريكية بتكوينها الفدرالي، إذ أضحت منطقة تجارية حرّة مع حماية خارجية خاصة إزاء إنجلترا، بموجب قانون التجارة بين الولايات سنة 1887، وهو القانون الذي نظّم

[1] – إبراهيم نافع، مرجع سبق ذكره، ص:163.

التجارة بين مختلف أشخاص ومنظّمات مختلف الولايات، إذ يعتبر الدستور الأمريكي التجارة والنقل والاتصالات مسائل خاضعة لرقابة الحكومة الفيدرالية[1].

يمكن اعتبار الهيكلة الإقليمية أو التكتّلات الإقليمية[2] سمة تقسيم أو هيكلة الاقتصاد–عالم الرأسمالي المعاصر بقيادة الولايات المتّحدة الأمريكية، ففي إطار مبادرة مشروع مارشال، دعا صاحب المشروع في محاضرة له في جامعة هارفارد، في 05 جوان1947، إلى وضع برنامج خاص لإعادة إحياء أوربا، طالب فيه الدول الأوربية بما فيها الاتّحاد السوفييتي[3] بالتعاون بينها لوضع خطّة لبناء أوربا، وأوضح ضرورة تقدّم الدول الأوربية أو عدد منها بطلب في هذا الشأن[4].

وفي ضوء هذه المبادرة، اجتمعت ستّ عشرة دولة أوربية في باريس وكوّنت المنظّمة الأوربية للتعاون الاقتصادي للنظر في دفع النمو الاقتصادي لهذه الدول، وتوفير الاستقرار المالي، وتدعيم التعاون الاقتصادي مع طلب المساعدة من الولايات الأمريكية. كما عمدت الدول الأوربية إلى تكوين اتّحادٍ للمدفوعات الأوربية فيما بينها، كما دعّمت فكرة التجارة متعدّدة الأطراف وكذا فكرة التعاون الإقليمي والتنسيق في السياسات المالية والاقتصادية للدول الأوربية.

---

[1] – عثمان توات، **اتّفاقيات التجارة الإقليمية: التشابكات، فرص وتحديد النظام التجاري العالمي، حالة اتّفاقيات التجارة الإقليمية بين الدول العربية**، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية–تحليل اقتصادي–، كلّية العلوم الاقتصادية والعلوم التجارية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر3، 2011–2012، ص:3.

[2] – يمكن تعريف التكتل الاقتصادي بأنه تجمع عديد من الدول التي تجمعها روابط خاصة بالجوار الجغرافي أو التماثل الكبير في الظروف الاقتصادية أو الانتماء الحضاري المشترك، يكون هذا التجمع في إطار معين، قد يكون اتحادا جمركيا أو منطقة تجارة حرة، فالتكتل الإقليمي كمفهوم يعكس الجانب التطبيقي لعملية التكامل الاقتصادي، فهو يعبر عن درجة من درجات التكامل الاقتصادي فيما بين الدول الأعضاء.

أنظر: أسامة المجذوب، **العولمة والإقليمية: مستقبل العالم العربي في التجارة الدولية**، ط2، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2001، ص:57.

[3] – بالطبع، باعتبار تباين النظام الاقتصادي المتّبع، لم يستجب الاتحاد السوفيتي لهذا الطلب وراح يكوّن مع الدول الأوربية التي تبنّت واتبعت النظام الاشتراكي نظاما إقليميا مستقلّا أخذ شكل تعاونٍ اقتصادي وتقني من خلال مجلس التعاون المتبادل"الكوميكون" عام 1949، وبطبيعة الحال تمّ حل هذا المجلس بانتهاء الحرب الباردة مطلع التسعينات من القرن الماضي، وأخذت دول هذا التكتل "دول أوربا الشرقية" تتحوّل نحو اقتصاد السوق وتسعى للانضمام إلى الاتّحاد الأوربي.

[4] – عبد الوهاب رميدي، **التكتلات الاقتصادية الإقليمية في عصر العولمة و تفعيل التكامل الاقتصادي في الدول النامية – دراسة تجارب مختلفة –**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية – فرع التخطيط –، جامعة الجزائر، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، 2006–2007، ص:40.

دعّم بعض المفكرين الأوربيين أمثال "جين مونيه"[1] هذه التجربة الأوربية–تحت طلب أمريكي– في تحقيق مراحل من التكامل الاقتصادي الإقليمي، إذ دعا إلى إنشاء "الولايات المتّحدة الأوربية" مبنية على المصالح الاقتصادية، وافقه الرأي رؤساء بعض الدول الأوربية ورأوا ضرورة إنشاء تكتّلات فأنشأت ثلاث دول، هولندا وبلجيكا ولوكسمبورغ اتحادا جمركيا اعتبارا من 1948؛ وفي 1949 اقترح وزير الخارجية الفرنسي "روبارت شومان" إنشاء الجماعة الاقتصادية للفحم والصلب ثم تم التوقيع على معاهدة باريس في18 أفريل 1951 بين ست دول أوربية (فرنسا، ألمانيا الاتحادية، إيطاليا، هولندا، بلجيكا، لكسمبورغ)، القاضية على حسم الصراعات والخلافات حول مناجم الفحم والصلب وما يرتبط بها من صناعات إلى أن كوّنت سوق واحدة لهاتين السلعتين.

توالت مراحل الاندماج الاقتصادي في أوربا إلى أن حقّقت اتحادا اقتصاديا ونقديا يضم في عضويته 28 دولة أوربية حتى عام 2013 بالإضافة إلى خمس دول مرشّحة للانضمام.

وعلى أثر أوربا، اهتمّت بعض دول العالم بعد الحرب العالمية الثانية بإنشاء التكتّلات الإقليمية، حتى أنّه يمكن تسمية منتصف القرن العشرين بعصر التكتلات الاقتصادية.

فبعدما كانت عدد الاتفاقيات الإقليمية بمختلف أشكالها ودرجة تكاملها بعد الحرب العالمية الثانية، لا تتعدّى الأربع اتّفاقيات سنة 1950– أنظر الجدول2–، لتصبح 124 اتفاقية أخطرت بها الاتفاقية العامة للتجارة "الجات" أي في الفترة ما بين 1948–1994، وارتفع عدد الاتفاقيات بعد تأسيس المنظّمة العالمية للتجارة ب360 اتفاقية إلى غاية سنة 2010، فيصبح عدد الاتفاقيات التراكمي 484 اتفاقية في العالم مخطرة للمنظّمة العالمية للتجارة.

[1] - **جين مونيه** Jean Omer Marie Gabriel Monnet(1888 –1979) رجل أعمال وسياسي فرنسي قاد حركة توحيد أوروبا الغربية في خمسينيات وستينيات القرن العشرين. أُطلق عليه اسم أبو المجموعة الأوروبية. اقترح "مونيه" فكرة مجموعة الحديد والفحم الحجري الأوروبية عام 1950، وكان رئيسها من عام 1952 إلى 1955، كما أنشأ لجنة عمل الولايات الأوروبية المتحدة، وكان رئيسها من عام 1956 إلى 1975.

جدول رقم2:تطوّر عدد اتفاقيات التجارة الإقليمية خلال فترة 1948-2010

	1948-1994	1995-2010	1948-2010	حسب السنوات			
				1950	1990	2000	2010
المخطر عنها	124	360	484	4	75	249	484
المعمول بها	75	218	293	4	50	86	293
المعمول بها والمخطر عنها للمنظمة			221	4	41	59	221
غير سارية	49	142	191	0	25	163	191

المصدر: عثمان توات، مرجع سبق ذكره، ص:52.

انتشر هذا الاهتمام إلى مناطق أخرى من العالم ببروز ملامح ظاهرة العولمة الاقتصادية في نهاية القرن العشرين كما ازدادت وتيرة ارتفاع عددها- بإمكاننا قراءة نسب التطوّر وزيادة وتيرة نمو عدد هذه التكتّلات من الجدول السابق.

بعد التأكيد على الأقلمة، كهيكلة جديدة للاقتصاد-عالم الرأسمالي، وعلى تزايد وتيرتها، ورغم أنّ كل الدول المنظمّة للمنظّمة العالمية للتجارة، باستثناء منغوليا، والبالغ عددها 159 دولة منضوية بشكل أو آخر في اتّفاقيات ثنائية وإقليمية، إلاّ أنّه نرى أنّه من الضروري تهذيب هذه القراءة بالملاحظات التالية:

- إنّ العدد المتزايد والمخطر عنه من اتّفاقيات التجارة الإقليمية قد لا يعبّر بصورة دقيقة عن الواقع، إذ أنّ عددا كبيرا من هذه الاتفاقيات لم تدخل حيّز التطبيق أو أنّها مجمّدة، أو أنّها في مراحل أوّلية.
- إنّ التوزيع الجغرافي لهذه الاتفاقيات الإقليمية، ترتكز في الشطر الغربي من الكرة الأرضية، أين نجد الولايات المتّحدة الأمريكية والاتّحاد الأوربي أهم هذه التكتّلات، حيث أكثر من 30 اتفاقية تربط بين دول الاتّحاد الأوربي فيما بينها ومع دول أخرى، في حين نجد 20 اتّفاقية في أمريكا الجنوبية وفي العادة هي اتفاقيات تخص دولا من نفس الإقليم.
- لم تبلغ جلّ التكتلات الإقليمية درجة من التكامل تمكّننا من اعتبارها وحدة مستقلة فاعلة في النشاط الاقتصادي العالمي، باستثناء الولايات المتّحدة الأمريكية، الوحيدة بمثابة التكتّل الدولة، والاتّحاد الأوربي، اللذان يعتبران ثاني ثلاثة أقطاب في الاقتصاد العالمي إلى جانب اليابان.

كما تجدر الإشارة إلى أنّه رغم أنّ هذه التكتلات تنسج فيما بينها علاقات تفضيلية تؤوّل قيام تكتلات أكبر قدما إلى تحقيق السوق العالمي المعولم، اتفاقيات خارج الإقليم، وأحسن مثال عن هذه

التكتلات فوق إقليمية، رابطة الآبيك التي تضم 21 بلدا مطلاّ على المحيط الهادي بما في ذلك دول النافتا والآسيان، ليستحوذ على أكثر من نصف الإنتاج والتجارة العالميتين[1]؛ وكذلك توسع مجال الاتحاد الأوروبي، سواء عن طريق ضم دول جديدة، أو عن طريق الشراكة الأورو متوسطية، وأيضا اتفاقيات الولايات المتّحدة الأمريكية مع بعض الدول العربية والهند والبرازيل.

إلاّ أنّ فاعلية الاقتصاد العالمي لا تزال تتمركز في ما اصطَلح عليه الاقتصادي الياباني "كينيشي أوماي" باسم الثالوث الاقتصادي سنة 1985، إذ لا تزال دول الثالوث المتمثّلة في " الولايات المتّحدة الأمريكية، والاتّحاد الأوربي، واليابان" تحتكر 80% من التجارة الدولية، وتنتج 70% من الإنتاج العالمي، وتقام فيها 80% من العمليات المالية كما يظهر لنا من خلال الجدول3. وفي دول الثالوث نجد أيضا أكبر الاتفاقيات الإقليمية، بالإضافة إلى دول جنوب شرق آسيا التي استطاعت أن تحقّق في إطار إقليمي– فيما بينها ومع اليابان– منذ بداية السبعينيات معدّلات نمو تفوق 10% لمدّة ثلاثة عقود جعل لها مكانة في الاقتصاد العالمي بين الدول المصنّعة.

وفي ظلّ التطرّق للقوى الاقتصادية العالمية، وللقطبية العالمية الاقتصادية، فإنّه من الأهمّية بمكان الإشارةُ إلى ظهور قوى اقتصادية ناشئة تعرف بالدول الصاعدة الجديدة متمثّلة في البرازيل، وروسيا، والهند، والصين، حيث تتزايد مساهمتها في الاقتصاد العالمي بصفة ملحوظة كما يبيّنه لنا الجدول المذكور أدناه.

[1] – أسامة المجذوب، مرجع سبق ذكره، ص:85.

جدول رقم3: الثقل النسبي للثالوث في الاقتصاد العالمي

	2005	2006	2007	2008
الثالوث	74.26	72.11	70.00	67.76
الدول الصاعدة الجديدة	10.30	11.66	12.99	13.80
بقية العالم	15.44	16.23	17.10	20.11
المجموع	100	100	100	100

المصدر: شحّاب نوال، **أثر التكتّلات الإقليمية على تحرير التجارة الدولية**، مذكّرة مقدّمة ضمن متطلّبات الحصول على شهادة الماجستير في العلوم السياسية، تخصّص علاقات دولية، كلّية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر3، 2009 –2010، ص:111.

المبحث الرابع: هيكلة النسق العالمي، الشركات متعدّدة الجنسيات وعولمة التدويل

تعتبر الشركات متعدّدة الجنسيات[1] فاعلا مهمّا في اقتصاد–عالم العولمة، لدرجة أنّ هناك من ركّز عليها في تعريف العولمة[2].

والواقع أنّ هذه الشركات تعتبر ظاهرة رأسمالية من نتاج التطوّر الرأسمالي، يمتد نشاطها في الاقتصاد الدولي إلى زمن بعيد، فهي بذلك ليست وليدة هذه المرحلة من مراحل تطوّر الاقتصاد–عالم الرأسمالي. اتخذت في مراحل تطوّرها أشكالا مختلفة من حيث الحجم ونوعية النشاط الذي تمارسه.

يمكن إرجاع ظهور هذا النوع من الشركات في مرحلتها الأولى إلى العصر التجاري "المركنتيلي"، أين كانت أداة فعّالة للرأسمالية التجارية الناشئة في تحقيق التراكم الأوّلي لرأس المال،

[1] - يمكن تعريفها على أنّها مؤسّسات إحتكارية، مصدر رأسمالها الأوّلي من بلد واحد، تقوم بربع نشاطها على الأقل خارج بلدها الأصلي عن طريق فتح فروع في الخارج أو شراء شركات ومؤسّسات في الخارج. أنظر:
( )Les entreprises transnationales :**leurs poids et leurs pratiques**, Alternatives Sud, Vol IX(2002) 1, p : 7.

[2] – أنظر المبحث الأوّل من الفصل التمهيدي.

وشرعت في عملية التدويل الكونية التي أخبرنا عنها "سمير أمين" أنّ مسيرتها بدأت منذ خمسة قرون منذ اكتشاف أمريكا[1].

ففي سنة 1600، أصدرت ملكة بريطانيا "إليزابيت" مرسوما ملكيا للعديد من التجّار لتأسيس شركة الهند الشرقية البريطانية، وإعطائها حصر التجارة مع القارة الهندية إلى أن تمّ حلّها سنة 1858، وخلال فترة نشاطها مارست الشركة تقريبا مهام الدولة، إذ امتلكت الجيوش وأنشأت المدن لخدمة أهدافها في هونج كونغ وسنغافورة، وأنشأت مستعمرات كمستعمرة "سانتا هيلينا" التي نُفي فيها "نابليون"، كما كان أحد منتجاتها –الشاي– سببا مباشرا في إشعال الثورة الأمريكية بعدما قرّرت هذه الشركات تعيين وكلاء لها في المستعمرات الأمريكية لبيع الشاي وحصر مبيعات هذه المادّة بمنتجاتها فقط[2]. هذا وكما لعبت هذه الشركة دورا مهمّا في إنشاء الطرق المؤدّية من أوربا إلى الهند بعدما عقدت حكومتها في الهند معاهدات مع شيوخ الخليج العربي عُرفت بالمشيخات المتصالحة لتأمين الطرق عبر العراق والخليج.

كما نجد شركة الهند الشرقية الهولندية التي تمّ تأسيسها سنة1602، وأعطي لها حق الاستعمار وغزو الأراضي وعقد المعاهدات وبناء الحصون في آسيا، وبالخصوص في أندونيسيا، من أجل احتكار تجارة التوابل. وبعد ما ازدادت خبرة الهولنديين الاستعمارية، وجدوا أنّ سياسة الاستغلال الاقتصادي لأهالي المستعمرات أربح بالنسبة لهولندا من التجارة، حيث أنّها تكفيهم نفقة النقل، ومن هنا بدأت شركة الهند في دفع أثمان المحاصيل الزراعية من بن وأرز مقدّما لسنوات لضمان احتكارها لها وبيعها بالثمن الذي يتراءى لها، مع الاحتفاظ بحقّ انتزاع ملكية الأراضي في حالة عدم وفاء المزارعين بالعقد. واستعمرت هذه الشركات مناطق وأهاليها، بل وقتلت جميع سكّان جزر باندا واستبدلوا بعبيد مستحضرين للقيام بإنتاج التوابل؛ وفي1669 أصبحت هذه الشركة الأغنى في العالم، يبلغ عدد موظّفيها50.000 موظّف، وتملك من الجنود ما يقارب 10.000 جندي، وتملك أسطولا حربيا مكوّن من 40 قطعة حربية بحرية، وأسطولا تجاريا مكوّنا من 150 سفينة، وبلغت نسبة أرباح أسهمها 40% سنويا[3].

---

[1] – فؤاد مرسي، **الرأسمالية تجدّد نفسها**، سلسلة عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1990، ص:99.

[2] – أثار هذا القرار حفيظة التجّار المحلّيون، فقاموا بإلقاء الشاي المحمّل على السفن في ميناء بوسطن في البحر، ثمّ تطوّرت الأحداث إلى حرب كانت نتيجتها استقلال أمريكا.

[3] – عبد الحي زلوم، **أزمة نظام الرأسمالية والعولمة في مأزق**، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمّان، 2009، ص:67؛ عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، مرجع سبق ذكره، ص:72.

كما أسّست هولندا من أجل استغلال العالم الجديد شركة الهند الغربية الهولندية التي عملت على زيادة مساحة الأراضي الهولندية في أمريكا الجنوبية فأسّسوا فيها مستعمرات وأنشأوا فيها مدنا[1].

وعلى العموم، يمكن القول إنّه رغم القوّة التي تتمتّع بها هذه الشركات، إلاّ أنّ أغلب نشاطها في القرن السادس عشر والسابع عشر، كان موجّها لمدّ أسواق الدول الأم بما تحتاجه من معادن أو مواد استهلاكية. وبعد الثورة الصناعية، اندفعت الدول الاستعمارية بحثا في البلاد المستعمرة عن المواد الأوّلية لتشغيل مصانعها، وعن أسواق لتصريف منتجاتها، وكانت هذه الشركات شركات وطنية تمارس نشاطها في الأقاليم التابعة للدول التي تنتمي إليها.

أمّا الشركات متعدّدة الجنسيات في شكلها الحديث، فنظنّ أنّها وليدة الثورة الصناعية الثانية، إذ كانت خصوصياتها تتمثّل في إنشاء مصنع خارج حدود الدولة الأم، فكانت أوّل شركة اكتسبت صفة تعدّدية الجنسيات شركة "باير" الألمانية للصناعات الكيماوية والدوائية التي أنشأت سنة1865 مصنعا في مدينة نيويورك الأمريكية. أمّا بالنسبة للولايات المتّحدة الأمريكية فكانت أوّل شركة تنشئ مصنعا خارج الحدود شركة "سنجر" لصناعة ماكينات الخياطة في مدينة جلاسجو البريطانية سنة1871، كما قام "نوبل" السويدي سنة 1869 بإنشاء أوّل مصنع للمتفجّرات تابع لشركته في مدينة هامبورغ الألمانية.

في بداية القرن الماضي، تميّزت هذه الشركات بممارسة نشاطها في قطاع الصناعات التحويلية بالإضافة إلى استخراج المعادن والمواد الأولية، فظهرت شركات ضخمة نتيجة الإلتحامات المؤسساتية الصناعية والمالية (التجمعات، الكارتلات) ذات الطابع الاحتكاري، ففي سنة 1883 ظهر أول تجمع صناعي في أمريكا متمثّل في شركة "ستاندرت أويل" الأمريكية التي احتكرت كل الصناعة البترولية من حفر الآبار إلى صناعة المضخات، وكانت تغطي 90% من تكرير ونقل البترول[2] وبدأت هذه الشركات تزداد ضخامة واحتكارا في العالم الرأسمالي وبالخصوص في دوله الصناعية: أمريكا وألمانيا وإنجلترا[3].

يمكن اعتبار هذه التكتّلات المؤسّساتية تغيّرا مهمّا في الاقتصاديات الوطنية وكذلك في هيكلة الاقتصاد العالمي، ففي سنة 1908 كانت السبع تجمعات الأولى في أمريكا – على سبيل

---

[1] – أنظر المبحث الرابع من الفصل الثالث.

[2] – Gélinas Jaques B, **la globalisation du monde : Laisser faire ou faire ?**, écosociété, Montréal, 2000, p :34.

[3] – Michel Beaud, Histoire du capitalisme.., op cit, pp : 189-191

المثال– تملك وتتحكم في 1638 مؤسسة– ، كما تسارعت عملية تدويل المؤسسات، حيث كانت هناك سنة 1914 أكثر من 114 تجمعا دوليا[1].

وفي السياق نفسه يمكن ذكر أنّه في سنة 1902، كانت شركة فورد الأمريكية تنتج حوالي 25% من إجمالي إنتاج السيارات في العالم، وأنشأت مصنعا في كندا سنة1904، وتمّ تحويل51% من رأس المال لحساب شركة "ديترويت" مقابل حقوق "فورد" وبراءة اختراعه للأبد في كندا ونيوزيلاندا وأستراليا والهند وجنوب إفريقيا والملايو، وحقّقت هذه الشركة أرباحا كبيرة، ورفع رأسمال الشركة سنة 1912 من 125 ألف دولار إلى مليون دولار أمريكي. وفي 1915، وزّعت أرباح بنسبة 600% ممّا رفع الرأسمال إلى 7ملايين دولار في سنة 1925، بينما كان رأس المال الاحتياطي يمثّل 31 مليون دولار[2].

أخذ التدويل الاقتصادي دفعا ونفسا جديدين بعد الحرب العالمية الثانية، ففي إطار ظروف ما بعد الحرب وإعادة بناء أوربا، وفي غضون أربعة عشر عاما 1950–1964، تضاعفت الاستثمارات الخاصّة الأمريكية في العالم بمعدّل 3.8 مرّة، بينما تضاعفت داخل السوق الأوربية المشتركة بـ 8.5 مرّة، وارتفع تصدير رأس المال الأمريكي في الخارج بنسبة 20% سنة 1964 وحدها، جلّها في بريطانيا بينما لم ترتفع الاستثمارات الرأسمالية الأمريكية الداخلية إلاّ في حدود نسبة 9%.

هذا فيما مثّلت اليابان المرتبة الثانية في تدويل رأس المال والمشروعات متعدّدة الجنسيات، فبينما كانت الأعمدة الأربعة لرأس المال التمويلي العالمي في عام 1910 هي بريطانيا 23.6%، الولايات المتّحدة 32%، فرنسا 18.3%، وألمانيا 15.8% من جملة أصول المصارف الكبرى في العالم الرأسمالي، أصبحت هذه النسب على النحو التالي في منتصف الستّينات: الولايات المتّحدة 47%، اليابان22.6%، بريطانيا 10.5%، إيطاليا 9%، فرنسا6%[3].

وهكذا واصل حجم الاستثمارات الأجنبية المباشرة تضاعفه –شكل رقم13 –، فبلغت قيمتها سنة1997، 4000 مليار دولار، قيمة تمثّل سبع مرّات قيمتها في السبعينات[4]؛ وما كان تطوّر تدفّق الرأسمال قصير الأجل إلاّ أكثر إثارة[1].

---

[1] – بطاطا سفيان، مرجع سبق ذكره، ص:28.

[2] – أحسين عثماني، **استراتيجية الشركات المتعدّدة الجنسيات في عولمة الأسواق المالية**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية– اقتصاد التنمية–، كلية العلوم الاقتصادية والعلوم التجارية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر3، 2010–2011، ص ص:27–28.

[3] – فؤاد مرسي، مرجع سبق ذكره، ص:115.

[4] - PNUD, **rapport mondial sur le devloppement,** 1999, p28.

شكل رقم 14: تطوّر نسبة الاستثمار الخارجي العالمي إلى الناتج الداخلي الخام العالمي في الفترة مابين1970-1997

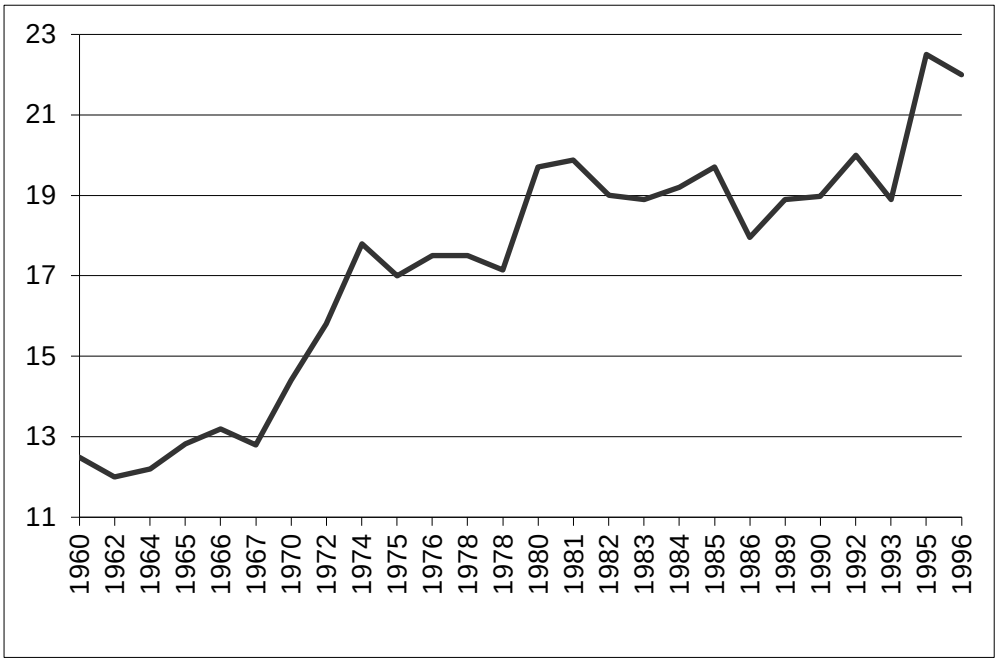

المصدر: Ajit K . Ghose, op cit, p323

بالإضافة إلى الاتّجاه العام المتزايد للاستثمار الخارجي العالمي المقروء من الشكل، يمكن أن نقرأ أيضا التزايد النسبي لثقل الاستثمار الأجنبي إلى الناتج الداخلي الخام، حيث تقارب نسبة الارتفاع خلال الفترة الـ100%.

هذا وكما انعكس مستوى التدويل أيضا على ارتفاع حجم عمليات الصرف في نفس الاتجاه، حيث ارتفع حجم هذه العمليات من العشرة والعشرين مليارا في السبعينات إلى 1500 مليار دولار سنة 1998.

وشهدت التجارة الدولية نمواّ معتبرا هي الأخرى، حيث ارتفعت حصّة الإنتاج العالمي الذي كان موضوع تبادل دولي من إجمالي الإنتاج من12.7% سنة 1970، إلى20% سنة1991، ثمّ إلى 23% سنة 2000[2]؛ فتضاعفت بذلك الصادرات العالمية للسلع والخدمات في الفترة ما بين 1970 و1997 بثلاثة أضعاف، فأصبحت تمثّل بقيمتها المتمثّلة في 7000 مليار دولار 21% من الناتج

[1] - Ajit K . Ghose," **La libéralisation des échanges, l' emploi et les inègalitès dans le monde"**, revue internationale du travail (vol .139 , n° 3, 2000), p: 322.
[2] - Dominique filan **, Le nouveau capitalisme**, Flammarion, Paris, 2001, p:22.

الداخلي الخام بعدما كانت تمثّل 17% من ناتج داخلي أصغر في السبعينات[1]، وبلغت هذه النسبة 29.4% سنة 1999[2]. ويبيّن لنا الشكل التالي تطوّرات هذه النسبة.

شكل رقم 15: تطوّر نسبة الصادرات العالمية من السلع والخدمات إلى الناتج الداخلي الخام العالمي في الفترة مابين1960-1996

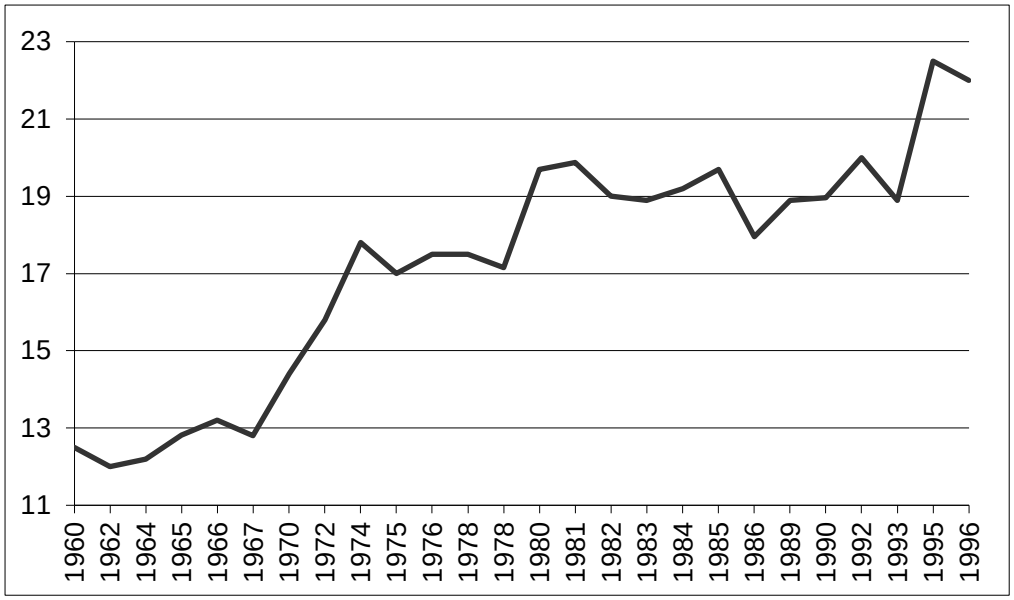

المصدر: Ajit K . Ghose, op cit, p:321.

تعتبر الشركات متعدّدة الجنسيات محرّك التدويل المتكلّم عنه، وأصله إذ:

- تمثّل هذه الشركات عن طريق مبيعات منتجاتها النهائية وكذلك حركات منتجاتها الوسيطية نسبة معتبرة من التجارة الدولية، والتي قد تقرأ على أنّها مجرد تجارة بين الدول. فلقد بيّنت تقارير لمنظمّة الأمم المتّحدة للتجارة والتنمية أنّ تجارة الشركات متعدّدة الجنسيات مثّلت في منتصف السبعينات أكثر من 30% من حجم التجارة الدولية، لتصل هذه النسبة الـ 50% في منتصف التسعينات؛ وبهذا حفّزت هذه الشركات نمو التجارة بنسبة 6.5% سنويا في الفترة ما بين 1950-1990، وبهذا ارتفع حجم التجارة الدولية في القرن الماضي بـ 550 مرّة[3].

- تعتبر الشركات متعدّدة الجنسيات في السبعينات المحرّك الاقتصادي الفعّال للدول المتقدّمة، إذ كانت حاضرة في اتفاقيات الاتّحادات الجمركية الأوربية، وكانت كذلك محرّكا مارس أثر الجذب في الدول الناهضة، إذ مثّلت هذه الشركات 30% من الصادرات الكورية، 90% من صادرات

[1]- PNUD, op cit, pp:25-29.
[2]- CNES, **la maitrise de la globalisation :une nécessite pour les plus faibles**, (Projet d' étude), mai 2001, p :5.
[3] - Robert Fossaert, **Le monde au 21e siècle**, 2ème partie, op cit, p :133.

سنغافورة[1] في وقت لقّبت فيه هذه الدول بالنمور الآسيوية بفعل معدّلات النمو الكبيرة التي كانت تحقّقها، وكذلك حقّقت هذه الشركات 40 % من صادرات البرازيل، وعلى هذا يمكن اعتبارها محرّكا هامّا للعولمة منذ بداية السبعينيات[2].

- يمكن القول في أن الأقطاب الاقتصادية الثلاثة المتكلّم عنها آنفا تستمدّ هي الأخرى فعاليتها من هذه الشركات، حيث تجدر الإشارة إلى أنّنا نجد أكثر من 90% من الشركات الخمسمائة الأولى، يرجع بلدها الأصلي إلى أحد دول الأقطاب الثلاثة على نحو: 170 شركة أوروبية، 159 من أمريكا الشمالية، 141 من اليابان[3].

وكما أن نشاط هذه الشركات أيضا متمركز في هذه الأقطاب الثلاثة سواء من حيث المصدر أو الاتجاه، إذ تستقبل هذه الأقطاب الثلاثة 70% من إجمالي الاستثمار المباشر وتمثّل مصدر 87% من استثمارات المائة شركة الأولى، وأيضا أهم اتجاه لاستثماراتها[4].

ولعلّ هذا ما يفسّر تمركز التجارة الدولية في التسعينات من حيث مسارها– انطلاق، وصول– حيث أنّ ثلثي التجارة البحرية منها 35% منتجات بترولية تنتقل من وإلى65 ميناء بحري: 12 في أمريكا الشمالية، 8 في اليابان، 45 في أوربا[5].

كانت هذه محاولة في تبيان عملية التدويل التي شهدها الاقتصاد العالمي خلال هذه الفترة، والذي لعبت فيه الشركات متعدّدة الجنسيات الدور الأهم ولا تزال كذلك، فتنوّعت مجالات نشاطات هذه الشركات، فاهتمّت بالقطاع السياحي والبنكي والمالي، وأصبحت هذه الشركات في عصر العولمة تسيطر على 80% من التجارة العالمية، وتنتج أكثر من نصف الإنتاج العالمي حسب إحصائيات سنة 2008.

تعدّى ثقل وهيمنة هذه الشركات، في المركز الجديد للإقتصاد–عالم الرأسمالي، مجال الحياة الإقتصادية إلى مجال الحياة السياسية والإجتماعية، إذ نادى "وودرو ويلسن" أثناء الحملة الإنتخابية سنة 1912 " إن الدولة الأمريكية بين يدي الرأسماليين والصناع الأمريكيين"، وأكد الرئيس "فرانكلن روزفلت" بعد خمس وعشرين سنة خلت قائلا "إنّ الحكومة الأمريكية الآن، كطفل متبنى من طرف

---

[1] - ibid,p:193.

[2]- Michel Beaud, **Le basculement du monde**,**De la Terre, des hommes et du capitalisme,** 1997, [en ligne], http://bibliotheque.uqac.ca/ . p :112.

[3] - Michel Beaud, **Le Basculement du monde, De la terre, des hommes et du capitalisme,** 2ème éd, édition la découverte & Syros, Paris, 2000, p: 127.

[4] - Noureddine Benfreha, op cit, pp:42-43

[5] - Robert Fossaert, **Le monde au 21ème siècle**, 2 ème partie, op cit, p :133.

مصالح خاصة"، متطرقا إلى الصعوبات الاقتصادية التي واجدتها الدولة، أمام أشخاص على رؤوس مؤسسات عظمى تحدد الأسعار وتمنع المنافسة"[1].

هذا وكما تستعمل هذه الشركات من طرف دولها الأم بصفة عامة، ومن طرف أمريكا مركز الاقتصاد–عالم الرأسمالي العالمي، في ظلّ علاقة التحالف بين الدولة–رأس المال[2]، كوسيلة ضغط ضد كل من لا توافق سياسته سياسة الدولة الأم وكذلك كان الحال في عدة مرات نذكر منها:[3]

- أجبرت أمريكا شركاتها متعددة الجنسيات على عدم المتاجرة مع الصين، حيث لم تكن توافق سياستها المتبعة المصالح الأمريكية.
- في سنة 1964 منعت الحكومة الأمريكية شركة IBM تصدير منتجاتها إلى فرنسا بسبب خلاف في مسألة اتفاق نووي.
- هدّدت أمريكا ثلاث شركات متعددة الجنسيات إيطالية من بينها الشركة الإيطالية STET بعدم السماح لمسيّريها للدخول إلى أمريكا إذا لم تنسحب هذه الشركات من كوبا تطبيقا لقانون مصادق عليه في 12 مارس 1996 والمقنن للحصار الأمريكي على كوبا.
- في السياق نفسه وافقت غرفة النواب و مجلس الشيوخ على قانون معاقب للمستثمرين الأجانب في القطاع البترولي الإيراني، وكذا المتاجرة مع ليبيا ضمانا لنجاح الحصار.

- كما ساهمت هذه الشركات بصفة أكثر مباشرة في نزاعات أخرى و ذلك سواء من خلال:

* مساهمتها في إمداد الدولة الأصل بالمعلومات كما صرح بذلك أحد مسؤولي وكالة الذكاء المركزي CIA "بيسل ريتشار" الذي يرى أنه يجب استعمال وسائل الاتصال التي تملكها هذه الشركات وفروعها من وراء البحار حتى في الاتصالات السرية"[4].

* مساهمتها في تغيير سياسات بعض البلدان عن طريق شبكة علاقاتها مع مسيري هذه الأخيرة بإثارة المصالح الشخصية عادة، أو عن طريق ضغوطات سريّة، وإلا عن طريق تدعيم انقلابات في الحكم كما حدث سنة 1954 ضد الرئيس الغواتيمالي "جوكوبو آربنز قازمان" الذي أمّم حقول الموز الأمريكية، ليحلّ محله الرئيس الدكتاتوري "سموزا". كما أعادت الكرّة في الستّينات مع حكومة "فيدل كاسترو" إذ جهّزت ضده حملة إنزال اشتهرت تحت اسم حملة "خليج الخنازير"، وكذا بتدعيمها انقلابا ضد الحكومة الاشتراكية للرئيس الشيلي "آلند" في السبعينات، وتدعيم سلطة الشاه الإيراني

---

[1] - Robert Reich, **L'économie mondialisé**, Dunos, Paris, 1993, pp : 31-32.

[2] – نجد هذه العلاقات في نشأة الدولة القومية وبعد نشأتها، بين أصحاب رأس المال والسياسيين، وبفضل هذه العلاقة اشتدّ عود كلّ طرف، فلقد ساعد أصحاب رأس المال السياسيين في تأسيس دولهم القومية وفرض النظام والحفاظ على الاستقرار، ويتحصّلون في المقابل على امتيازات اقتصادية وضريبية ومساعدات على التدويل أيضا.

[3] - Noureddine Benfreha, op cit, p : 84

[4] - ibid, p: 88.

ضد الحركة الوطنية الإيرانية لـ"محمد مصادق" التي استولت على الشركة البترولية الإنجليزية الإيرانية. كما قامت بحملة ضد الرئيس البرازيلي "جووا كولار" الذي رفض نصائح صندوق النقد الدولي، وشرع في إصلاح زراعي مضر بمصالح الشركات متعددة الجنسيات، ولمثل هذه الإجراءات تعرضت دول أخرى في التسعينيات، كما كان الحال بالنسبة لنيكاراغوا باناما سنة 1989[1].

* أعدّت شركات ومؤسّسات أمريكية على إيصال" رئيس حرب" إلى البيت الأبيض، وقدّمت له الدعم المطلوب، لتجني من وراء الحرب على العراق مكاسب كبيرة، حيث ارتفعت أرباح بعض الشركات البترولية، وشركات صنع الآلات الحربية وشركات ساهمت في إعادة بناء العراق بنسب تتراوح بين 70% إلى 300%؛ أضف إلى ذلك أنّنا نجد عددا من المسؤولين السياسيين في مركز الاقتصاد- عالم أمثال "كوندوليزا رايس "رئيسة مجلس الأمن القومي وبعده وزيرة الخارجية الأمريكية و"ديك تشيني" نائب الرئيس، تقلّدوا قبل ذلك مناصب عليا في شركات ضخمة؛ وحتى رئيس أفغانستان" عبد الحميد كرزاي" شغل منصبا بشركة نفطية أمريكية[2].

هذا فيما تبقى مسائل ما يسمّى بالربيع العربي وتقسيم السودان والحرب على مالي والحرب على سوريا، محل استفهام لم يفصح الباحثون فيما نعلم عن علاقتها بهذه الشركات، وإن كنّا نرى أنّ ما يجري يصبّ في سياق شبيه بما تقدّم.

إنّ القوة الاقتصادية، ولكن أيضا السياسية[3]والاجتماعية[4] للشركات متعددة الجنسيات تجعلها أهم حكم حاكم[1]، - ضعفت أمامه حكم الدول حتى الكبيرة منها- تجمّعت عوامل هيمنتها بين يدي

---

[1] - أنظر: إدوارد غولد سميث، **إنتعاش الشركات الكولونيالية : عندما تفرض الشركات الجنسية قانونها**، مجلة معالم: الإقتصاد، التجارة والعولمة (العدد رقم 4 ، [د.ت])، ص: 136.

Edward Gold Smith, **une seconde jeunesse pour les comptoirs coloniaux**, in Edward Goldsmith, Jerry Mander (direction), le procès de la Mondialisation. Paris: Fayard,2001, pp : 58-59.

[2] - عبد الحي زلوم، مرجع سبق ذكره، ص ص:75-76.

[3] - عن طريق مجموعات الضغط المعروفة باسم اللوبي Lobby ،التي تضم رؤساء أكبر الشركات، أكبر المساهمين وكذا رؤساء بعض الدول الرأسمالية -مساهمين أيضا في العادة -،إذ تجتمع سرّيا لمعالجة قضايا العالم الإقتصادية خاصة، واتخاذ القرارات اللازمة، وتحت إشراف هذه المجموعات تمّ إنشاء المنظمة العالمية للتجارة والمنطقة الحرّة لأمريكا الشمالية؛ بل وتساهم هذه المجموعات في رسم السياسات الإقتصادية لبعض الدول الكبرى؛ لمزيد من التفصيل أنظر:

Jaques B.Gelinas ,op cit, pp : 100-104

[4] - تظهر القوة الاجتماعية لهذه الشركات في قدرتها على عولمة قيم إجتماعية عن طريق نشر الثقافة الغربية بصفة عامّة والثقافة الاستهلاكية الغربية بصفة أخص، باستعمال شتّى الطرق وخاصّة الإشهار، وتنفق هذه الشركات ما يقارب 1400 مليار دولار أمريكي سنويّا في الإشهار- وهو ما يعادل70%من إجمالي ديون العالم الثالث- تستهدف من خلالها مجتمعات العالم التي تتمتّع بخصوصية ثقافية مميّزة، كالصين مثلا التي ارتفعت النفقات الإشهارية للشركات العالمية بها بـ1000%منذ 1980، أندونيسيا بـ600%، الهند، تيلاندا، ماليزيا بـ300%.

أنظر: Jaques B.Gelinas, op cit, pp:167-168

أشخاص محدودي العدد، فالرجال الذين يسيرون الشركات العالمية هم الأولون في التاريخ الذين يملكون التنظيم، التكنولوجيا، الوسائل المالية، والإيديولوجية؛ عوامل تسمح بمحاولة ناجحة لتسير العالم كوحدة اقتصادية متداخلة[2]، متمثّلة في الإمبراطورية العالمية، الإمبراطورية الجديدة في عصر العولمة، والتي ترتكز أساسا على ثلاث ركائز:[3] الشركات والمؤسّسات متعدّدة الجنسيات التي تتولّى التسيير والتوجيه والقيادة عبر الدول في مكان الدول، وأبناء البشر المستهلكون والمستوعبة لمخارج هذه الشركات من منتجات وأفكار واعتقادات وميول، والفضاء السيبرنيتي[4]– الذي يعتبر بمثابة الوطن الجديد الذي لا ينتمي إلى الجغرافيا الوطنية والإقليمية ولا إلى التاريخ الوطني والإقليمي، وطن جديد بدون تاريخ ولا ذاكرة ولا تراث.

خلاصة: قراءة في النسق العالمي المعولم

يمكن تلخيص أهم التحوّلات التي ميّزت النسق العالمي في هذه المرحلة في:

- التحكّم المتزايد في المجال العالمي للمكان، والزمن بفعل التطوّرات التكنولوجية، الأمر الذي ضاعف من العلاقات بين أفراد المجتمع العالمي بمختلف أشكاله، أفرادا كانوا أو مؤسّسات أو دولا. ويمكن تلخيص هذه العلاقات في:
  - النقل، وهو حركة الأشياء المادية.
  - السفر، وهو حركة الأفراد.
  - التمويل وهو حركة الأموال والاعتمادات.
  - الاتّصال، وهو حركة المعلومات بما فيها المعتقدات.

---

[1] - Jean Philippe Josèphe, **Vivendi : Anatomie de la pieuvre**, in Edward Goldsmith , Jerry Mander, op cit, p : 189.

أنظر أيضا: فضة محمد إبراهيم، **مشكلات العلاقات الدولية، دور الشركات العالمية في السياسة الخارجية**، مطابع الجمعية العلمية الملكية، الجامعة الأردنية، عمان، 1981.

[2] - Tony Clark, **, L'hégemonie des Transnationales et ses mécanismes**, in Edward goldsmith et Jerry Mander(direction) , op cit, p :134.

[3] - محمد عابد الجابري ، **قضايا في الفكر المعاصر**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997، ص147.

[4] - الفضاء السيبرنيتي cyberspace، نسبة إلى السيبرنيتيك، العلم الذي يهتم بسيلان المعلومات عند الكائنات الحية والمنظمات الاجتماعية والأجهزة الآلية.

- إنّ هذا التقارب االعالمي بدأ باعتبار المشاكل والأزمات والاهتمامات عالمية، وكانت الحربين العالميتين أوّل هذه الظواهر التي اتّسمت بالعالمية؛ والواقع أنّ سبب اعتبار تلك الحروب عالمية راجع لأنّ العالم الأوربي كان يتحكّم عن طريق الاستعمار في جزء كبير جدّا من المجال الأرضي كما سبق وأن رأينا، وبالتالي جرت الحرب بين مقتسمي المجال المكاني الأرضي إن صحّ التعبير.

- مباشرة بعد الحرب العالمية الثانية، تولّت الولايات المتّحدة مركز الاقتصاد-عالم الرأسمالي، باعتبارها لم تتأثّر سلبيا بالحرب بفعل بعدها عن مسرحها، بل وعلى العكس من ذلك، تأثّرت إيجابيا بهذه الحرب حيث تولّت إعادة بناء أوروبا، وبذلك استطاعت أن تتخلّص من آثار الكساد الاقتصادي، بل وتوسّع مجال نشاطها الاقتصادي إلى دول أخرى، الأمر الذي ترجم في دفع عمليّة التدويل الاقتصادي دفعة قويّة.

- مرّت العولمة بمظاهر انقطاع، إن صحّ تسميتها كذلك، إذ أنّ بعد الحرب العالمية الثانية، انقسم العالم إلى عالمين عالم اشتراكي وعالم رأسمالي، استحقّ كلّ واحد منهما تسمية الاقتصاد-عالم، وحاول تنظيم مجاله حسب إيديولوجيته، وتعايشا بحرب باردة بينهما حتّى انهار العالم الإشتراكي.

- أثناء تعايش العالمين، استطاع العالم الرأسمالي أن يؤسّس هيئات اقتصادية دولية كانت تسهر على الحفاظ على نظامه الاقتصادي، وتحوّلت بعد انهيار العالم الاشتراكي إلى هيئات معولمة؛ تعمل على إدماج دول جديدة في الاقتصاد-عالم الرأسمالي؛ الأمر الذي عجز عنه العالم الاشتراكي، الذي حاول مركزه المتكمثّل في الاتّحاد السوفيتي تولّي مهام التنظيم.

- عرفت هيكلة الاقتصاد-عالم الرأسمالي تطوّرات يمكن تلخيصها في:

*عولمة هيكلة الدولة القومية اللائكية، حيث هيكلت جلّ المعمورة، وخاصة بعد ظهور دول جديدة بعد استقلالها عن مستعمراتها.

*ظهور وتعميم تجربة التكتلات الاقتصادية التي تجمع كلّ واحدة منها عددا من الدول القومية، وتعتبر الولايات المتّحدة صاحبة أوّل تجربة، صدّرتها لأوربا في إطار مشروع مارشال، ثمّ تعمّمت هذه التجربة عبر جل أنحاء العالم، بتشجيع من التكتّلات الأولى وكذالك الهيئات الدولية.

*ظهور مؤسّسات اقتصادية عملاقة متمثّلة في الشركات متعدّدة الجنسيات، وباتت تتحكّم في جزء معتبر من الاقتصاد العالمي وتدويله، تتمركز فيما يعرف بالأقطاب الثلاثة، تتدخّل أيضا في الشؤون غير الاقتصادية للعالم، وهي بذلك أضحت هيكلة أساسية يضاهي ثقلها ثقل الدول في الاقتصاد-عالم الرأسمالي المعولم، أو يفوقها.

الخـــــــــاتـــمـــة

تعتبر العولمة الراهنة بناء اجتماعيا تاريخيا، تقاربت خلاله الأفراد والمجتمعات بنسب مختلفة، حاولنا تتبع مختلف مراحل هذا البناء بقراءة في النسق العالمي، فجاءت كلّ مرحلة في فصل مستقل، فتحصّلنا على:

مرحلة أولى جاءت تحت إسم مرحلة العصور القديمة، امتدّت من نزول آدم إلى الأرض مع زوجه حواء، وشروعهما في البناء المجتمعي والمجتمع العالمي، فظهر إلى الوجود مجتمع واحد مسلم وظلّ كذلك ما يزيد عن العشرين قرنا، ثمّ تعدّدت المجتمعات بتبلبل الألسنة في عهد نبي الله نوح عليه السلام، فتفرّقت إلى مجتمعات عدّة، تتكلّم بلغات مختلفة، وبدأت تتكوّن مجتمعات الحضارات القديمة طيلة فترة تفوق العشرين قرنا، حاولنا من خلال الفصل الأوّل تسليط الضوء على المرحلة الأخيرة لهذه الحضارات، والتي أسميناها الإمبراطوريات العبودية.

لقد كان النسق العالمي في هذه الفترة مكوّنا أساسا من مجتمعات غير متجانسة، كان أهمّها مجتمعات كبيرة نسبيا ومتفوّقة حضاريا، حاولنا ذكر أمثلة عنها لكل قارة.

كانت هذه الحضارات في العادة مبنية على النظام العبودي، استعملت العبيد في نشاطاتها الإنتاجية الضعيفة نسبيا، وفي تشييد القصور والمعابد وبعض المنشآت العامة التي يمكن اعتبارها اليوم معالم أثرية.

يمكن اعتبار أهم ما يميّز النسق العالمي لهذه المرحلة، هو تباعد المجتمعات والحضارات، وقلّتها النسبية، الأمر الذي حافظ على خصوصية كل حضارة، ممّا جعل هذه الحضارات والإمبراطوريات بحق عوالم منفردة.

كانت إيديولوجية الدولة العبودية في العادة تركّز على الملك، الإمبراطور الذي كان يعتبر في العادة إله أو ابن الإله، أو خليفته في الأرض.

وتعتبر الإمبراطورية الرومانية وقبلها اليونانية والفارسية، قمّة البناء الهيكلي لهذه العوالم، وعلى هذا اعتبرنا تاريخ سقوط الامبراطورية الرومانية هو تاريخ انتهاء هذه المرحلة.

تلت المرحلة السابقة، مرحلة شهدت عوالم متقاربة نسبيا في مجالها المكاني، الأمر الذي جعل تغيّر مجال عالم مرهون بتغيّر مجال العالم المجاور له. وهذا ما كرّس العلاقات الحربية بين هذه العوالم.

تمثّلت هذه العوالم في ثلاثة عوالم أساسية، العالم الإسلامي، والعالم الأوربي، والعالم التتري ممثّلا عن القارة الآسيوية وهو عالم همجي بامتياز.

والواقع أنّ هذه المرحلة، عرفت تكوّن عوالم أكثر تعقيدا من العوالم السابقة، إذ أنّها استطاعت أن تحشد مجتمعات أصغر، جمعتهم ووحّدتهم بدرجة أولى مسائل عقائدية منها سماوية، وعادة ماكانت بالقوّة أيضا.

كانت هذه العوالم كلّها تسعى للتوسّع، فكان العالم الإسلامي يسعى للتوسّع بهدف نشر الدين الإسلامي، منذ أن أسّس رسول الله محمّد-ﷺ- أوّل دولة إسلامية في المدينة المنوّرة، وظلّت هذه الحروب المسمّاة بالفتوحات الإسلامية سارية حتّى انهيار العالم الإسلامي كعالم بحدّ ذاته بانهيار الخلافة الإسلامية.

في السياق نفسه، حاول العالم المسيحي استرجاع مافقده من أراضٍ لصالح العالم الإسلامي بحروب شنّها على هذا الأخير سمّيت بالحروب الصليبية.

وفي وقت لاحق ظهر العالم التتري تحت قيادة "جينكيزخان"، واستطاع في فترة وجيزة أن يوسّع مجاله الذي غطّى تقريبا آسيا وأوربا بعد انتقاصه من مجالي العالمين الأوربي والإسلامي.

تعتبر الحروب السمة الرئيسة لعلاقات النسق العالمي، أمر يمكن تأكيده لاعتبارين:

- الاعتبار الأوّل هو أنّ التجارة البعيدة أو طويلة المدى كانت هامشية.
- الاعتبار الثاني أنّه لم يكن لتنظيمات هذه العوالم دخل كبير في تدعيم هذه التجارة، أو على الأقل لم تكن هي القائمة بها.

ويمكن اعتبار كلّ توسّع من طرف العوالم الثلاثة، محاولات عولمة، الأمر الذي أشرنا إليه في المقدمة تحت مسمّى عولمات فرعية أو جزئية.

كما يمكن اعتبار الأديان السماوية أساس الإيديولوجيات المهيمنة في هذه الفترة، وبالخصوص العالم الإسلامي الذي كان يحتكم إلى القرآن الكريم والسنّة المطهّرة، والعالم المسيحي الذي كان يحتكم إلى رجال الكنيسة وأحد طبعات الإنجيل المحرّف.

في المرحلة الثالثة من مراحل تطوّر النسق العالمي، عرف النسق تطوّرات مهمّة، يمكن اعتبار أهمّها عولمة المجال المكاني بعد اكتشاف العالم الجديد المتمثّل في أمريكا، فقد كان هذا الاكتشاف بمثابة مرحلة أساسية وضرورية في البناء العالمي. كما لعبت الثورة الصناعية وظهور الدولة القومية دورا مهمّا في هذا البناء.

فعلا، بعد انهيار العالم التتري، لم يبق من العوالم التي تشارك بفعالية في علاقات النسق العالمي إلاّ العالم الإسلامي ممثّلا في الإمبراطورية العثمانية، والعالم الأوربي المهيكل في شكل دول قومية.

وبعدما كان العالم الأول متفوّقا على العالم الثاني في المجالات الاقتصادية والمعرفية والحضارية بصفة عامة، قلب العالم الأوربي الموازين باكتشافاته الجغرافية والصناعية والعلمية، فاتسّع مجاله، بل وتحكّم بصورة أحسن في المجال العالمي، إذ استكشف كامل المجال العالمي تقريبا. وسعى لهيكلته عن طريق عملية الاستعمار لخدمته، فاستعمر القارة الأمريكية واستغلّها، وما إن بدأت دول أمريكا تتحصّل على استقلالها حتّى استعمر جلّ افريقيا وأكثر من نصف آسيا، وبذلك قزّم العالم الإسلامي إن لم نقل ألغاه، بعد أن حوّل مركز الإمبراطورية العثمانية إلى مجرّد دولة قومية علمانية في بداية القرن العشرين.

يمكن القول إنّ مركز العالم الأوربي، كان يتغيّر باستمرار، وما يمكن ملاحظته، أنّ المركز في العادة في هذه الفترة هو من يكون صاحب أكبر حصّة في الاستعمار، أو ربّما العكس باعتبار من يكون أكثر استعمارا يتحوّل إلى مركز، هذا بالطبع إلى جانب التفوق الصناعي.

يمكن إرجاع بداية المرحلة الرابعة إلى بعيد الحرب العالمية الثانية، حيث لم يكن في الساحة عالم فاعل إلاّ العالم الأوربي، و ربّما عالم حديث في العادة ملحق به، متمثّل في العالم الأمريكي وبالخصوص الولايات المتّحدة الأمريكية.

بعد الحرب العالمية الثانية، طرأ على العالم المهيمن تغيّران:

- تمثّل التغيّر الأوّل في كون مركز هذا العالم انتقل إلى خارج أوربا، وبالتالي لم يعد من الممكن أن نتكلم بعد هذا عن عالم أوربي وإنّما عن عالم رأسمالي يشمل أوربا وأمريكا الشمالية.
- في المقابل، تمثّل التغيّر الثاني في أنّ العالم الأوربي فقد جزءا من مجاله ليكوّن عالما مستقلا تمثّل في العالم الإشتراكي.

وهكذا تعايش بعد الحرب العالمية الثانية عالمان متمثّلان في العالم الرأسمالي والعالم الإشتراكي، حيث تُلخِّص الحرب الباردة العلاقة بينهما. بينما عجزت باقي دول العالم المتمثّلة في الدول حديثة الاستقلال عن تكوين عالم ثالث منشود.

إثر انهيار العالم الاشتراكي في بداية تسعينيات القرن الماضي، بدأت دوله ودول العالم الثالث المنشود تندمج في الاقتصاد الرأسمالي، ليصبح أو يكاد يصبح معولما، بعد أن أخذت هذه الدول في فتح حدودها أمام النشاط الاقتصادي وتبنّيها للإيديولوجية الرأسمالية الحرّة.

كانت هذه المقاربة التاريخية من أجل محاولة الإجابة على إشكاليتنا المتمثّلة في:

فيم تكمن الخصوصية الهيكلية لنسق العولمة الاقتصادية في ظلّ التطوّر التاريخي للنسق العالمي؟

تمّ التوصّل من خلال هذا البحث إلى النتائج التالية:

- لقد كان لهيكلة النسق نصيب في العولمة الاقتصادية، وذلك من خلال ثلاث عولمات إن صحّت التسمية كذلك:

- **عولمة المكان، مجال النسق**، باكتشاف العالم الجديد، وربط علاقات بين مختلف نقاط المجال الأرضي، وتزداد درجة هذه العولمة بزيادة الاندماج نتيجة التطوّرات التقنية الاتصالاتية والمواصلاتية، الأمر الذي يفضي عن تسارع عولمة المجال.

- **عولمة الهيكلة**، يمكن أن نقرأ العولمة من خلال عولمة هيكلة النسق عبر المراحل التالية:

عولمة الدولة القومية؛ لقد ظهرت الدولة القومية في أوربا في نهاية القرن السابع عشر، ولقد واكب ظهور هذا التنظيم الثورة الصناعية و/أو الرأسماليين، ولقد تحالف أصحاب السياسة مع أصحاب المال وكوّنوا الدولة القومية العلمانية في مهد الثورة الصناعية؛ وأخذت بعد ذلك تتسع هذه التجربة حتّى غطّت أوربا أوّلا، ثمّ انتقلت إلى أوربا الجديدة أمريكا. أمّا بالنسبة للعوالم الأخرى، فلقد فرضت عليهم فرضا.

ولعلّ أهم هذه العوالم التي فرضت عليه الهيكلة الجديدة للعالم، العالم الإسلامي أو الإمبراطورية الإسلامية، هذه الأخيرة كانت ممثّلة في الإمبراطورية العثمانية قبل أن تُستعمر جلّ أرجائها، إذ لم يبق منها إلاّ تركيا البلد، الدولة القومية العلمانية الجديدة.

بعد حصول أغلب الدول الإسلامية على استقلالها، في منتصف القرن العشرين، تحوّلت هي الأخرى إلى دول قومية غير إسلامية، بفعل البيئة الدولية المعاشة أنذاك، وبفعل عملية التجهيل والإبعاد عن الدين الذي مارسته الدول المستعمرة.

وفي ضوء عولمة تجربة الدولة القومية الرأسمالية الغربية فقط، أصبح من الممكن أن نتكلّم عن إيجاد هيئات دولية سياسية واقتصادية.

عولمة التكتّلات الاقتصادية؛ بعد ما تولّت أمريكا مركز الاقتصاد–عالم الرأسمالي، راحت هي الأخرى تعولم هيكلتها الجديدة، والمتمثّلة في هيكلة تضمّ عددا من الدول، أو تكتلا من الدول، تشغل مساحات أكبر ولها موارد أكثر، وكان أوّل طرف صدّر له تجربته التكتّلية هو أوربا بإنشائها تكتّلا في إطار مشروع مارشال، ثمّ سار على إثرها عدد كبير من دول العالم، حتّى أضحى القرن العشرين يعرف بقرن التكتّلات الاقتصادية، بل أضحى يطلب من الدول أن تتكتّل حتّى تبرم اتفاقيات مع تكتّل كما جرى بين دول المغرب العربي والاتحاد الأوربي.

- **عولمة الإيديولوجية وعولمة مجال الشركات متعدّدة الجنسيات:**

إنّ فكرة عولمة الدولة القومية وعولمة النظام الاقتصادي، يستوجبان عولمة الإيديولوجية، الإيديولوجية الرأسمالية العلمانية.

يعتبر رأس المال أحد العوامل الاقتصادية المهمّة في النشاط الاقتصادي، وكان لأصحابه دور مهم وفعّال في إرساء الدولة القومية، وكذلك في إرساء التكتّلات الاقتصادية، بل وأصبح للشركات متعدّدة الجنسيات–الشكل الجديد لرأس المال– ثقل في العلاقات الدولية بكلّ أشكالها، الاقتصادية بهدف تراكم رأس المال، وأيضا السياسية والاجتماعية كما رأينا. وهكذا أضحت الشركات متعدّدة الجنسيات أحد الفاعلين الأساسيين في النسق العالمي، تتميّز عن الدولة القومية والتكتّلات الإقليمية بعدم ارتباطها بالمجال الأرضي القومي أو الإقليمي، الأمر الذي يجعلها أقدر على العولمة من الدولة القومية والتكتّلات الإقليمية، لأنّ هذه الأخيرة مرتبطة بالمجال الأرضي.

وعلى هذا، فمن غير الممكن اعتبار الدولة القومية هيكلا مرتبطا بصفة مباشرة بالعولمة، باعتبار أنّ هذه الهيكلة ظهرت في نهاية القرن السابع عشر، وعلى الرغم من أنّ إتمام عولمة هذه الهيكلة لم يكن إلاّ في منتصف القرن العشرين؛ وخاصة أمام تزايد ضعفها أمام الهيئات الدولية.

ويتجلّى ذلك من خلال ملاحظة أنّ طبيعة العلاقات في الاقتصاد–عالم الرأسمالي في عصره المعاصر تختلف عن مراحله السابقة، ما قد يظهر من خلال طريقة توسّع المجال. فعلى عكس المرحلة السابقة، حين كان مركز الاقتصاد–عالم الرأسمالي في أوربا وكان دولا قومية، كان توسّع مجاله عن طريق الاستعمار والحروب، بل كانت الحروب تمثّل الطريقة الأكثر استعمالا. أمّا بالنسبة للاقتصاد–عالم الرأسمالي الأمريكي، فالحروب تعتبر قليلة الاستعمال، وإنّما يتمّ فتح الأسواق عن طريق الهيئات أو المؤسّسات الدولية، والقروض المشروطة، ومنح الميزات النسبية ....أدوات اقتصادية محضة تخدم الشركات العالمية أكثر، دون أن ننفي استعمال الحرب في الحالات التي يتعذّر استعمال الطرق الاقتصادية، وتكون هذه الحالات عادة عندما يكون الاقتصاد مغلقا، أو محصّنا إيديولوجيا.

الأمر الذي قد يؤكّد أنّ الدولة لا تعتبر هي الوحدة الأساسية في النسق العالمي المعاصر أو على الأقل في ظلّ النسق العالمي المعولم، رغم صعوبة تجاهلها بالكامل.

وعلى هذا يمكن القول إنّ النسق الرأسمالي مرّ بمراحل، تغيّرت من خلالها هيكلته الأساسية، من دولة مدينة، إلى دولة قومية، إلى تكتّلات جهوية ، وفي مرحلته الأخيرة تغيب هذه الهيكلات الجيوسياسية لصالح هيكلات اقتصادية محضة تتمثّل في الشركات العالمية، هذا ما يعبّر عنه بانسلاخ رأس المال الدولي عن الدولة، وهذا ما يذكّرنا بقول كارل ماركس"إنّ رأس المال دولي بالنشأة"، وماقاله "روبرت ريخ" إنّ عولمة الاقتصاد لا تكون إلاّ بأقصدة العالم.

فالعولمة الاقتصادية لا تعتبر مجرّد تكثيف وزيادة حجم العلاقات بين الدول، وإنّما هي تغيّر يصيب هيكل النسق الاقتصادي، يتحوّل من خلاله النسق العالمي إلى نسق اقتصادي بحث أو يكاد، وبالتالي يتحوّل مركزه إلى مراكز اقتصادية تتمثّل في الشركات العالمية؛ في حين تتمثّل علاقات النسق العالمي في ظل العولمة، في علاقات أغلبها اقتصادية، تتمثّل في مداخل ومخارج هذه المراكز الجديدة. وعلى هذا يمكن أن نخلص إلى أنّ العولمة هي:

مرحلة من مراحل تطوّر النسق العالمي، يصبح فيها النسق العالمي نسقا اقتصاديا، وتصير فيه الشركات العالمية الفاعل الأهم وربّما المسيّر، ويصبغ نشاطها علاقات النسق صبغة اقتصادية، في ظلّ انتشار الإيديولوجية الاقتصادية الرأسمالية الحرّة.

يمكن اختبار فرضيات البحث من خلال النتائج المتوصّل إليها حيث أنّ العولمة، رغم اعتبارها بناء تاريخيا إذ أنّنا لا نجد فيها من خصائص هذا البناء التاريخي التراكمي إلاّ ما تعلّق ببناء النسق أو النظام الأوربي، الرأسمالي. كما أنّه لا نجد كلّ خصائص النسق الرأسمالي في النسق العالمي للعولمة، بفعل انّ النسق الرأسمالي يشهد تغيّرا وتحوّلا هو الآخر، حيث تعتبر الهيكلة أحد هذه التغيّرات.

كما أنّه بالإضافة إلى نتائج البحث، يمكننا ذكر الاستنتاجات التالية:

- لا تعتبر المرحلة الحالية من مراحل تطوّر النسق العالمي مرحلة تامّة أو فلنقل عولمة تامّة، وإنّما ما هي إلاّ مرحلة أولى من العولمة الاقتصادية الرأسمالية.
- يمكن لسبب أو لآخر أن تغيّر العولمة من منحاها، وتتحقّق بذلك عولمة أخرى، وذلك باعتبار وجود مقوّمات العولمة المتمثّلة في وسائل الاتّصال والمواصلات والتقارب الاجتماعي.

تتمثّل آفاق البحث في مشروع دراستين قياسيتين ومشروع دراسة فكرية تتمثّل في:

- محاولة دراسة إحصائية قياسية تبيّن تغيّرات طبيعة الهياكل الرئيسية للنسق العالمي بالنظر إلى المدخلات والمخرجات المترجمة للعلاقات الدولية– نقصد بالعلاقات بين الهياكل الرئيسة في النسق العالمي–.
- دراسة إحصائية قياسية تحاول تبيان تغيّر العلاقات في النسق العالمي من طبيعة وتدفّقات.
- الإيطار الإيديولوجي للعولمة الاقتصادية، عن طريق البحث في خصوصية إيديولوجية العولمة حتّى بالنسبة للإيديولوجية الرأسمالية، وذلك من خلال محاولة تسليط الضوء على المصطلحات الجديدة التي واكبت ظهور مصطلح العولمة كالتنمية المستدامة، والحكم الراشد، والحوكمة، وكذلك على المصطلحات المستهلكة ولو نسبيا كالدولة القومية، والتنمية الوطنية، مع التركيز على المستخلف من المصطلحات.

قـــــــائـــمـة

المـــــراجـــــــع

1/ باللغة العربية:

- **القرآن الكريم.**
- **صحيح مسلم.**

1-1/ الكتب:

- أبو خليل شوقي، **أطلس التاريخ العربي الإسلامي**، ط5، دار الفكر، دمشق، 2005.
- أبو خليل شوقي، **أطلس القرآن**، أماكن، أقوام، أعلام، دار الفكر، دمشق، 2003.
- أبو زيدون وديع، **تاريخ الإمبراطورية العثمانية، من التأسيس إلى السقوط**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 2003.
- أدا جاك، **عولمة الاقتصاد من التشكّل إلى المشكلات**، ماطنيوس(ترجمة)، دار طلاس، دمشق، 1998.
- إسماعيل محمد هاشم، **محاضرات في التطوّر الاقتصادي**، دار النهضة العربية، بيروت، 1978.
- الأشوح زينب صلاح، **الاقتصاد الوضعي والاقتصاد الإسلامي**، نظرة تاريخية مقارنة، علىwww.koutoubarabia.com.
- الأفغاني سعيد، **أسواق العرب في الجاهلية والإسلام**، ط4، دار العروبة للنشر والتوزيع، الكويت، 1993.
- إقبال عباس، **تاريخ المغول منذ حملة جينكيز خان حتّى قيام الدولة التمورية**، عبد الوهاب علّوب(ترجمة)، المجمع الثقافي، أبوظبي، 2000.
- أنيس حسن يحيى، **تاريخ الفكر الاقتصادي قبل آدم سميث**، المجمع الثقافي، أبوظبي، 2003.
- البيلاوي حازم، **النظام الاقتصادي الدولي المعاصر، من الحرب العالمية الثانية إلى نهاية الحرب الباردة**، سلسلة عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 2000.
- بخيت رجب محمود إبراهيم، **تاريخ المغول وسقوط بغداد**، مكتبة الإيمان، القاهرة، 2010.

- بدوي محمد طه، **مدخل إلى علم العلاقات الدولية**، المكتب المصري الحديث، الإسكندرية، 1976.
- برودل فرنان، **الحضارة المادية والاقتصاد والرأسمالية**، مصطفى ماهر(ترجمة)، ج3 ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع، القاهرة، 1995.
- البطريق عبد الحميد، عبد العزيز نوار، **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى مؤتمر فينا**، دار النهضة العربية، بيروت، 1974.
- بوعشة محمد، **التكامل و التنازع في العلاقات الدولية: دراسة المفاهيم والنظريات**، دار الجيل، بيروت، 1999.
- بيومي زكريا سليمان، **قراءة إسلامية في تاريخ الدولة العثمان**ية، دار العلم والإيمان للنشر والتوزيع، كفر الشيخ، 2009.
- التل تحسين أحمد، العولمة والعالمية، المركز القومي للنشر، إربد، 2010.
- الجابري محمد عابد، **قضايا في الفكر المعاصر**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1997.
- جامعة باتريس لومومبا للصداقة بين الشعوب، **عرض اقتصادي تاريخي، تشكيلات ما قبل الرأسمالية والمجتمع الرأسمالي**، ط2، دار الفرابي، بيروت، 1981.
- جمال عبد الهادي محمّد مسعود، وفاء محمد رفعت جمعة، **تاريخ الأمّة المسلمة الواحدة منذ أقدم عصورها وحتّى القرن السابع قبل الهجرة في مصر والعراق**، دار الوفاء للنشر والتوزيع، المنصورة، 1991.
- الحسني عرفان تقي، **التمويل الدولي**، دار مجلاوي للنشر، عمان، 1999.
- حنفي حسين، صادق جلال العظم ، **ما العولمة ؟**، دار الفكر، دمشق، 1999.
- حوراني ألبرت ، **تاريخ الشعوب العربية**، نبيل صلاح الدين (ترجمة) ، ج1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1997.
- خالدي الهادي، **المرآة الكاشفة لصندوق النقد الدولي**، دار هومة، الجزائر، 1996.
- الخراشي سليمان بن صالح، **كيف سقطت الدولة العثمانية**، دار القاسم للنشر، الرياض، 1420هـ.
- الدسوقي عاصم، **دراسات في التاريخ الاقتصادي**، دار الكتاب الجامعي، القاهرة، 1981.

- دياكوف.ف، كوفاليف.س(إشراف)، **تاريخ الحضارات**، نسيم وكيم اليازجي (ترجمة)، ج2، منشورات دار علاء الدين، دمشق، 2000.
- رضا عبد السلام، **انهيار العولمة**، جامعة المنصورة، المنصورة، 2003.
- رمزي نبيل، **النظام الاقتصادي من وجهة سوسيو–تاريخية**، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2000.
- الرواشدة علاء زهير، **العولمة والمجتمع**، دار الحامد، عمّان، 2008.
- روجومامو سيفرين، **العولمة ومستقبل إفريقيا، نحو تحقيق التنمية المستدامة**، برنامج الدراسات المصرية الإفريقية، كلّية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، 2002.
- روستو .و.و، **مراحل النمو الاقتصادي**، برهان دجاني(ترجمة)، منشورات المكتبة الأهلية، بيروت، 1960.
- زلوم عبد الحي، **أزمة نظام الرأسمالية والعولمة في مأزق**، دار الفارس للنشر والتوزيع، عمّان، 2009.
- زيدان جورجي، **تاريخ التمدّن الإسلامي**، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1967.
- السرجاني راغب، **قصّة التتار من البداية إلى عين جالوت**، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع، القاهرة، 2006.
- الشحود علي بن نايف، **مَعَالِمُ عَصْرِ الخُلَفاءِ الرَّاشِدِيْنَ**، دار المعمور، بهانج، 2009. عودة محمد عبد الله، فرحات حكمة، ابن الخطيب إبراهيم، **مختصر التاريخ الإسلامي**، الأهلية للنشر والتوزيع، عمان، 1989.
- الشيّال جمال الدين، **دراسات في التاريخ**، مكتبة الثقافة الدينية، الإسكندرية، 2000.
- الشيباني أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم، **الكامل في التاريخ**، عبد الله القاضي (تحقيق)،ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.
- طشطوش هايل عبد المولى، **العولمة، تأثيرات وتحديات**، دار الكندي، إربد، 2007.
- عبد السلام رضا، **انهيار العولمة!**، الدار الجامعية، الإسكندرية، 2004.
- عبد العزيز سمير محمد، **التكتلات الاقتصادية الإقليمية في إطار العولمة**، المكتب العربي الحديث، الإسكندرية، 2006.
- عبد الكاظم عبد الكريم كامل، **النظم الاقتصادية المقارنة**، جامعة الموصل، الموصل، 1988.

- عبد الله عثمان عبد الله، **أيديولوجية العولمة، من عولمة السوق إلى تسويق العولمة**، دار الكتاب الجديد المتّحدة، بيروت، 2003.
- عبد المطّلب عبد الحميد، **العولمة الاقتصادية: منظّماتها، شركاتها، تداعياتها**، الدار الجامعية، الإسكندرية، 2007.
- عجّاج قاسم، **العالمية والعولمة، نحو عالمية تعدّدية وعولمة إنسانية، دراسة تحليلية مقارنة للمفهومين**، مركز الكتاب الأكاديمي، عمان، 2008.
- عطيّة عبد القادر محمد عبد القادر، مصطفى إبراهيم، **قضايا اقتصادية معاصرة**، جامعة الإسكندرية، الإسكندرية، 2005.
- عليوه السيد، **إدارة الأزمات والكوارث، مخاطر العولمة والإرهاب الدولي**، ط3، دار الأمين، القاهرة، 2004.
- العناني حمدي أحمد، **تكوين الهياكل الاقتصادية**، مكتبة عين شمس، القاهرة، 1980.
- عوض الله أحمد الصبّاحي ، **حياة وأخلاق الأنبياء**، دار إقرأ، بيروت، 1983.
- العيدروس محمد حسين، **الدولة الإسلامية الأولى(السيرة النبوية الشريفة لرسول الله محمدﷺ)**، دار الكتاب الحديث، القاهرة، 2001.
- الفتلاوي كامل علاوي، مرزوق عاطف لافي، **العولمة ومستقبل الصراع العربي**، دار الصفاء، عمان، 2009.
- فضة محمد إبراهيم، **مشكلات العلاقات الدولية، دور الشركات العالمية في السياسة الخارجية**، مطابع الجمعية العلمية الملكية، الجامعة الأردنية، عمان، 1981.
- فلوريني آن، **القوّة الثالثة، المؤسسات العالمية عبر الحدود القومية**، تانيا بشارة(ترجمة)، دار الساقي، بيروت، 2005.
- فيلح حسن خلف، **النظم الاقتصادية: الرأسمالية، الاشتراكية، الإسلام**، عالم الكتب الحديث، إربد، 2008.
- القريشي مدحت، **تطوّر الفكر الاقتصادي**، دار وائل للنشر، عمان، 2008.
- كوزيه موريس (إشراف)، **تاريخ الحضارة العام**،ج1، منشورات عويدات، بيروت، 1966.
- ليونتييف، **موجز الاقتصاد السياسي**، سليم توما(ترجمة)، دار التقدم، موسكو، 1975.
- مبارك عبد المنعم، **قراءات في نظرية التاريخ الاقتصادي**، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، 1995.

- المجذوب أسامة، **العولمة والإقليمية: مستقبل العالم العربي في التجارة الدولية**، ط2، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 2001.
- المحامي محمد فريد بيك، **تاريخ الدولة العلية العثمانية**، دار النفائس، بيروت، 1981.
- محمود الوادي وآخرون(تحرير)، **العولمة وأبعادها الاقتصادية**، مكتبة المجتمع العربي للنشر والتوزيع، عمان، 2010.
- مراد عبد الفتّاح، منظّمة التجارة العالمية والعولمة والإقليمية، المكتب الجامعي الحديث، الإسكندرية، [د.ت].
- مرسي فؤاد، **الرأسمالية تجدّد نفسها**، سلسلة عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1990.
- مصطفى أحمد فريد، سهير محمد السيد حسن، **تطوّر الفكر والوقائع الاقتصادية**، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2000.
- نافع إبراهيم، **انفجار سبتمبر بين العولمة والأمركة**، مؤسسة الأهرام، القاهرة، 2002.
- نجمان ياسين، **تطوّر الأوضاع الاقتصادية في عصر الرسالة والراشدين**، بيت الموصل، الموصل، 1988.
- نهران محمد بيومي، **دراسات تاريخية من القرآن الكريم، ج3، في بلاد الشام**، ط2، دار النهضة العربية، بيروت، 1988.
- نوار عبد العزيز سليمان، **التاريخ الحديث، الشعوب الإسلامية**، دار النهضة العربية، بيروت، 1973.
- نوار عبد العزيز سليمان، محمود محمد جمال الدين، **التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتّى نهاية الحرب العالمية الأولى**، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999.
- نواصرة ناصر سلامة، **التاريخ الاقتصادي للدولة الإسلامية" العهد النبوي"**، عماد الدين للنشر والتوزيع، عمان، 2009.
- نويبرت هارالد، **النظام العالمي الجديد ومشاكل العالم الثالث على ضوء اكتشاف أمريكا قبل 500 عام**، محمد الزغبي، ممتاز كريدي(ترجمة)، دار الطلبة للطباعة والنشر، بيروت، 1996.

- هاردت مايكل، نيغري أنطونيو، **الإمبراطورية، إمبراطورية العولمة الجديدة**، فاضل جتكر (ترجمة)، مكتبة العبيكان، الرياض، 2002.
- هميسه بدر عبد الحميد، **تلخيص التاريخ الإسلامي**، 2008/11/15. أنظر: www.abby.com
- الوالي عبد الجليل كاظم، **جدلية العولمة بين الاختيار والرفض**، دار الكتاب الجامعي، العين، 2010.
- وداد يوسف كمال حسين، **العولمة بين الماضي والحاضر**، المكتبة المصرية، الإسكندرية، 2004.
- ولعلو فتح الله، **الاقتصاد السياسي، مدخل للدراسات الاقتصادية**، ط 2، دار الحداثة، بيروت، 1982.
- وهبة مصطفى، **موجز تاريخ الحروب الصليبية**، مكتبة الإيمان، القاهرة، 1997.
- اليحياوي يحيى، **العولمة، أية عولمة**، إفريقيا الشرق، بيروت، 1999.

1-2/الأطروحات والرسائل:

- بطاطا سفيان، **العولمة والعالم الثالث، دراسة للاقتصاد-العالم الرأسمالي**، مذكّرة ضمن متطلبات نيل شهادة الماجستير في التحليل الاقتصادي، كلية العلوم الاقتصادية، علوم التسيير والعلوم التجارية، جامعة الجزائر، 2004.
- بعداش بوبكر ، **مظاهر العولمة من خلال نشاط الشركات العالمية متعدّدة الجنسيات، حالة قطاع البترول**، أطروحة مقدّمة للحصول على درجة دكتوراه في العلوم الاقتصادية، كلّية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر 3، 2009-2010.
- توات عثمان، **اتّفاقيات التجارة الإقليمية: التشابكات، فرص وتحديد النظام التجاري العالمي، حالة اتّفاقيات التجارة الإقليمية بين الدول العربية**، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية-تحليل اقتصادي-، كلّية العلوم الاقتصادية والعلوم التجارية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر 3، 2011-2012.
- حامد نور الدين ، **آثار العولمة الاقتصادية من خلال السياسات المعتمدة من طرف المؤسّسات الدولية على مديونية الدول النامية، دراسة حالة الجزائر**، رسالة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، 2006-2007.

- حامد نور الدين، **المؤسّسات المالية الدولية، وأزمة المديونية الخارجية في الدول النامية، دراسة حالة الجزائر**، مذكّرة لنيل شهادة الماجستير في التخطيط، كلّية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر، 2001-2002.
- ديب كمال ، **دور المنظّمة العالمية للتجارة في تحقيق أبعاد التنمية المستدامة(مدخل بيئي)**، أطروحة مقدّمة ضمن متطلّبات نيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية-فرع نقود ومالية-، كلّية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر،2008-2009.
- رميدي عبد الوهاب ، **التكتلات الاقتصادية الإقليمية في عصر العولمة و تفعيل التكامل الاقتصادي في الدول النامية – دراسة تجارب مختلفة –**، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية – فرع التخطيط –، جامعة الجزائر، كلية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير،2006-2007.
- شحّاب نوال، **أثر التكتّلات الإقليمية على تحرير التجارة الدولية**، مذكّرة مقدّمة ضمن متطلّبات الحصول على شهادة الماجستير في العلوم السياسية، تخصّص علاقات دولية، كلّية العلوم السياسية والإعلام، جامعة الجزائر3، 2009 -2010.
- عثماني أحسين ، **إستراتيجية الشركات المتعدّدة الجنسيات في عولمة الأسواق المالية**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراه في العلوم الاقتصادية- اقتصاد التنمية-، كلية العلوم الاقتصادية والعلوم التجارية وعلوم التسيير، جامعة الجزائر3، 2010-2011.
- عفوفو عبد السلام، **دور المؤسسات المالية الدولية في ظل عولمة الاقتصاد الدولي**، بحث لنيل شهادة الماجستير في قانون المؤسسات، كلية الحقوق والعلوم الإدارية، جامعة الجزائر، 2000-2001.
- عيسى محمد محمود ولد محمّد ، **التكتّلات الاقتصادية الإقليمية في البلدان النامية وتحدّيات العولمة الاقتصادية- دراسة حالة مجلس التعاون لدول الخليج العربية-**، كلّية العلوم الاقتصادية وعلوم التسيير، جامعةالجزائر3، 2009-2010.

<u>1-3/المجلاّت والدوريات:</u>

- الأطرش محمد، **حول تحديات الاتجاه نحو العولمة الاقتصادية**، في المستقبل العربي، العدد 260 (أكتوبر 2000).
- أمين سمير ، **دراسة حول الرأسمالية والنسق- العالم**، في الهادي التيمومي، الجدل حول الإمبريالية منذ بدايته حتى اليوم، تونس: دار محمد علي الحامي، 1992.

- الشافعي جلال ، "**العولمة الاقتصادية: الأثر على الضرائب في مصر** "، في **كتاب الأهرام الاقتصادي**، العدد 179 (نوفمبر 2002).
- صالحي صالح، **دور المنظّمة العالمية للتجارة في النظام العالمي الجديد**، مجلّة الدراسات الاقتصادية، العدد الثاني، 2000، دار الخلدونية، الجزائر.
- إدوارد غولد سميث، **انتعاش الشركات الكولونيالية : عندما تفرض الشركات الجنسية قانونها**، مجلة معالم: الاقتصاد، التجارة والعولمة، (العدد رقم 4)، [د.ت].
- العيسوي إبراهيم، مناقشة ورقة بحث قدمها السيد ياسين في مفهوم العولمة، في أسامة أمين الخولي (رئيس التحرير)، العرب والعولمة، ط 2، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، 1998.

2/باللغات الأجنبية:

2-1/ الكتب:

- **ATLAS MONDIAL**, Economie – politique - Sociétés, grund et presses de de la fondation national des sciences politiques, paris, 1994.
- Beaud Michel, **Histoire du capitalisme : 1500-1980**, Edition du seuil, Paris, 1981.
- ----------, **Le basculement du monde**, **De la Terre, des hommes et du capitalisme,** 1997,[en ligne], http://bibliotheque.uqac.ca/ .
- ----------, **Le Basculement du monde, De la terre, des hommes et du capitalisme**, 2ème éd, édition la découverte & Syros, Paris, 2000.
- Braudel Fernand, **civilisation matérielle, économie et capitalisme, XVe-XVIIIe siècle T3 : le temps du monde**, 2èmeed, Armand Colin, Paris, 1980.
- ----------, **La dynamique du capitalisme**, Champs Flammarion, Paris, 1999.
- De Brugne P, Herman J, De Schoutheete M, **Dynamique de la recherche en sciences sociales**, PUF, Paris.
- Dockès Pierre, Rosier Bernard, **L'histoire ambiguë, croissance et développement en question**, PUF, paris, 1988.
- Durand Daniel, **La systémique (Que sais-je)**, PUF, Paris, 1979.
- Elissalde Bernard, Jean Domingo, l'espace mondial depuis les années 30 : une géographie changeante, Bréal, Paris,1994.
- Filan Dominique, **Le nouveau capitalisme**, Flammarion, Paris, 2001.
- Fossaert Robert, **Le monde au 21e siècle**, 1ère partie, (1991), in: "Les classiques des sciences sociales";[en ligne],

http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html
- ----------, **Le monde au 21e siècle**, 2ème partie, (1991), in: "Les classiques des sciences sociales";[en ligne], http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html
- Gélinas Jaques B, **la globalisation du monde : Laisser faire ou faire ?**, éco société, Montréal, 2000.
- Hicks John, **une théorie de l'histoire économique**, édition du seuil, paris, 1973.
- Latouche Sèrge, **Les dangers du marché planétaire**, presses de sciences po, Paris ,1998.
- Lévy Jacques, « Espace-monde, mode d'emploi », in Jacques Bidet et Jacques Texier (direction), le nouveau système monde, PUF, Paris, 1994.
- Pierre Léon, **économies et sociétés préindustrielles**, T2(1650-1780), Arman colin, paris, 1970.
- Robert Reich, **L'économie mondialisé**, Dunos, Paris , 1993.
- Schnapper Bérnard, Richardot Hubert, **histoire des faits économiques**, 3éme éd, Dalloz, paris ,1971,
- SÉE Henri, **Les origines du capitalisme moderne (Esquisse historique)** (1926) ,in: "Les classiques des sciences sociales";[en ligne], http://www.uqac.uquebec.ca/zone30/Classiques_des_sciences_sociales/index.html
- Université de l'Amitié des peuples patrice Lumumba, **Aperçu D'histoire et d'économie** ,édition du progrès, Moscou, 1960.
- Wallerstein Immanuel, **le système monde du XV siècle à nos jours, T1,capitalisme et économie- monde 1450.1640,** Flammarion, Paris,1980.

1-2/ المجلاّت والدوريات:

- ( ) **Les entreprises transnationales :leurs poids et leurs pratiques**, in Alternatives Sud, Vol IX(2002).
- Ajit K . Ghose, **La libéralisation des échanges, l'emplois et les inégalités dans le monde"**, revue internationale du travail (vol .139 , n° 3, 2000).
- André GUNDER FRANK, **De quelles transitions et de quels modes de production s'agit-il dans le système mondial réel?,** Commentaire sur l'article de Wallerstein,1990.in"Les classiques des sciences sociales", [en ligne], http://www.uqac.ca/jmt-sociologue
- Chloé Maurel, **La world/global history, Questions et débats**, Revue d'histoire, 2009/4 - n° 104, pp : 153-166.
- CNES, **la maitrise de la globalisation : une nécessite pour les plus faible,** (Projet d' étude), mai 2001.
- Dufour Patrice, **La Banque mondial et la lutte contre la pauvreté**, Cahiers Français (n°302, mai-juin 2001).

- Jean Philippe Josèphe, **Vivandi : Anatomie de la pieuvre**, in Edward Goldsmith, Jerry Mander, le procès de la Mondialisation, Fayard, Paris, 2001.
- Lévy Jacques, **L'invention du monde**, Presses de Sciences Po | *Hors collection*,2008, pp : 40 – 61.
- Pasme Jean, **Quels rôles pour le FMI**, Cahiers Français, (n°302, mai-juin2001).
- Tony Clark, **L'hégémonie des Transnationales et ses mécanismes**, in Edward gold smith et Jerry Mander (direction), le procès de la Mondialisation, Fayard, Paris, 2001.
- Wallenstein Immanuel, **le système-monde et son devenir : Thèses sur sa structure et sa trajectoire actuelle**, Fernand Braudel center, [en ligne]: http://www.uqac.ca/jmt-sociologue/
- Zghal Riadh, **Globalisation et différenciation des systèmes de gestion, le cas des entreprises du Maghreb,** in M.Y .Ferfera, M .Bengaerna (Direction), Mondialisation et modernisation des entreprises: enjeux et trajectoires, casbah/ CREAD, Alger, 2001.

3-1/ التقارير :

- Fonds Monétaire International**, Rapport annuel 2012.**
- PNUD, **rapport mondial sur le développement**, 1999.
- World Economic Forum, **The Global competitiveness Report 2012-2013.**

قائمة الأشكال والجداول

قائمة الأشكال

الرقم	العنـــــــــــــوان	الصفحة
1	النسق العالمي في شكل مجموعة عوالم	21
2	النسق العالمي كحقل قوى	22
3	نسق عالمي مهيكل	23
4	المجتمع العالمي	24
5	تتابع مختلف أشكال النسق–العالمي	24
6	هيكلة المجال العالمي في العصر القديم	59
7	توسّع العالم الإسلامي من الدولة الإسلامية الأولى حتى الدولة الأموية	84
8	الدويلات والإمارات الإسلامية في أوائل القرن الحادي عشر	87
9	توسع عالم التتار قبيل أكبر توسع له سنة639هـ/حوالي سنة1240م	92
10	تحكم الاقتصاد–عالم الأوروبي في المجال العالمي	109
11	الاستعمار الأوربي للعالم حوالي سنة 1700	114
12	العالم المستعمر من طرف أوربا في 1914	115
13	هيكلة الاقتصاد–عالم الرأسمالي سنة 1938	125
14	تطوّر نسبة الاستثمار الخارجي العالمي إلى الناتج الداخلي الخام العالمي في الفترة مابين1970–1997	151
15	تطوّر نسبة الصادرات العالمية من السلع والخدمات إلى الناتج الداخلي الخام العالمي في الفترة مابين1960–1996	152

قائمة الجداول

الرقم	الـــــــعنـــــــــــــــــوان	ص
1	مراحل الانطلاقة الاقتصادية حسب "روستو"	117
2	تطوّر عدد اتفاقيات التجارة الإقليمية خلال فترة 1948–2010	145
3	الثقل النسبي للثالوث في الاقتصاد العالمي	147

الفـــــــهـــــــرس

الصفحة	العنـــــــــــــــــــــــــــــــــــــنوان
أ	**مقدمة**
1	**فصل تمهيدي: مدخل إلى مفهوم العولمة والنسق العالمي**
2	المبحث الأوّل: مفهوم العولمة
2	1- تعريف المفهوم
3	2- مفهوم العولمة
9	المبحث الثاني: النظريات المفسّرة للتطوّر التاريخي الاقتصادي
10	1- المدرسة التاريخية الألمانية
11	2- المدرسة الألمانية المتأخّرة
11	3- نظرية مراحل النمو "والت روستو"
13	4- نظرية نمط الإنتاج
14	المبحث الثالث: الأصول التاريخية للعولمة
18	المبحث الرابع: النسق العالمي
18	1- مدخل للنسق العالمي
20	2- أشكال النسق العالمي
25	المبحث الخامس: الاقتصاد-عالم والنسق-عالم
25	1- الاقتصاد-عالم
28	2- النسق-عالم
30	المبحث السادس: خصائص الاقتصاد-عالم الرأسمالي
32	خلاصة
33	**الفصل الأوّل: عالم العصر القديم، النسق العالمي في مرحلة الحضارات القديمة**
36	المبحث الأول: حضارات الشرق: آسيا
38	1- حضارات ما بين النهرين "بابل"
38	2- حضارات شبه جزيرة العرب
39	3- حضارة الصين القديمة

4- حضارة الهند القديمة	40
5- إمبراطورية الفرس	42
6- مملكات ودول آسيا الوسطى	43
المبحث الثاني: حضارات إفريقيا	44
1- حضارة مصر القديمة	44
2- دولة الكوشي	46
3- فينيقيا	47
المبحث الثالث: حضارات أوربا	48
1- اليونان	48
2- روما القديمة	59
المبحث الرابع: حضارات ومجتمعات العالم الآخر، العالم المنعزل: أمريكا	51
1- المجتمعات البدائية	52
2- مجتمع المايا	52
3- دولة الأستيكيين	54
4- دولة تاونتينسويو أو الإنكا.	55
خلاصة: قراءة في النسق العالمي للعصر القديم	58
الفـصل الثاني: النسق العالمي للعصر الوسيط	**63**
المبحث الأول: العالم الأوروبي الإقطاعي	64
1- انهيار الإمبراطورية الرومانية	64
2- تشتت السلطة السياسية وظهور الإقطاعية	65
3- المسيحية والكنيسة	66
4- اقتصادية الإقطاعيات	67
5- ظهور الطوائف والمدن	68
6- دولة المدينة أو المدينة-دولة والتجارة البعيدة	69
المبحث الثاني: العالم العربي-الإسلامي	72
1- عرب الجاهلية.	73
2- عرب الجاهلية والعالم الخارجي.	77

3- العرب المسلمون أو بالأحرى العالم الإسلامي.	78
المبحث الثالث: شرق آسيا وعالم المغول والتتار	89
1- الأمم والدول الحضارية	89
2- قبائل المغول والتتار... والغزو التتاري للعالم	91
خلاصة: قراءة في النسق العالمي للعصر الوسيط	95
الفصـــل الثـالث: النـــسق العالـــمي للـــعصر الحديث، الاقتصاد-عالـم الأوربـــــي المعولَـم أو العولمـة الأوربية	**99**
المبحث الأوّل: بيئة الاقتصاد-عالم الأوربي	100
1- العوالم الثانوية	100
2- العالم الإسلامي والدولة العثمانية	100
المبحث الثاني: من الجمود الفكري إلى النهضة	103
المبحث الثالث: من مدينة-دولة إلى دولة-قومية	104
1- انهيار النظام الإقطاعي كنظام إداري	104
2- ظهور المدن-أمة	105
3- تدهور نفوذ الكنيسة	105
4- ظهور الحكومات الموحدة أو الدول المركزية	105
المبحث الرابع: من عالم محدود إلى عالم أوسع أو التحكّم في المجال العالمي والحركات الاستعمارية	107
1- الإمبراطورية البرتغالية التجارية	110
2- الإمبراطورية الإسبانية	111
3- الإمبراطورية الهولندية	112
4- الاستعمار الفرنسي	112
5- الاستعمار البريطاني	113
المبحث الخامس: الثورة الصناعية	115
1- الاختراعات التقنية	116
2- التراكم النقدي	117

3- تكوّن السوق الوطنية	117
4- اتساع مجال العالم الاقتصادي	118
خلاصة: قراءة النسق العالمي للعصر الحديث	118
الفصل الرابع: النسق العالمي للعصر المعاصر وعولمة الاقتصاد-عالم الرأسمالي، أو النسق العالمي المعولَم	**122**
المبحث الأوّل: من الاقتصاد-عالم الرأسمالي الأوربي إلى الاقتصاد-عالم الرأسمالي الأمريكي	123
1- النسق العالمي قبل الحرب العالمية الثانية	124
2- النسق العالمي بعد الحرب العالمية الثانية	126
المبحث الثاني: الهيئات الدولية و"عولمة الاقتصاد-عالم الرأسمالي"	132
1- منظّمة الأمم المتّحدة: النظام السياسي العالمي	132
2- -هيئات اقتصادية دولية ونظام اقتصادي دولي معولِم	133
المبحث الثالث: هيكلة النسق العالمي المعولم، بين الإقليمية والقطبية	142
المبحث الرابع: هيكلة النسق العالمي، الشركات متعدّدة الجنسيات وعولمة التدويل	147
خلاصة: قراءة في النسق العالمي المعولم	156
الخاتمة	158
قائمة المراجع	166
قائمة الجداول وقائمة الأشكال	177
الفهرس	179